

د . عبد الرحمن بدوى

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دفاع عن محمد

ضد المنشقين من قدره



دفاع عن محمد ﷺ
ضد المنتقدين من قدره

تأليف

د/ عبد الرحمن بدوي

ترجمة

كمال جاد الله

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

مدخل

« نادراً ما يصدق الناس الحقائق لا سيما إذا تعارضت مع مصالحهم » .

وهذا يفسر ذلك المعدل الرهيب من الأكاذيب التي ساقها الكتاب البيزنطيون والأوربيون منذ اثنى عشر قرنا في موضوع النبي محمد الذي أصبح أكبر أعداء الأوربيين كما كان الهجوم عليه هدفاً للإمبراطورية البيزنطية وأوروبا سواءً على الصعيد الأيديولوجي أو الصعيد الدعائى من جانب المؤرخين الأوربيين المدعومين بعلماء الدين المسيحيين في البلاد الخاضعة لسيطرة المسلمين أمثال (يوحنا الدمشقى وتيودور أبو قرة وإلياس ، وعبد المسيح الكندي وغيرهم) وقد تعهتم في نفس المنهج قساوسة أوربيون بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادى وحتى يومنا هذا .

وكانت هذه الدعاية قائمة على أساطير وأكاذيب جديدة لكتاب لم يعدموها الجهل بالأحداث التاريخية كما لم يحرموا موهبة تلقيق الأكاذيب . وكانت ثمرة هذه الدعاية هي ما اصطلح على تسميته منذ ثلاثة قرون في أوروبا باسم « أسطورة محمد » وقد رسمنا لوحة في المقدمة عن هذه « الأسطورة » في هذا الكتاب الذي بين أيدينا تعد تمهيداً للموضوع الأصلى لهذا الكتاب وهو « المناقشة النقدية المتعمرة للدراسات المسماه « بالعلمية » والمحضصة لحياة النبي محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه والتي قام بها « علماء » مستشرقون بدءاً من الثلث الثاني للقرن التاسع عشر وحتى السنوات التالية من عصرنا وذلك حسب الموضوعات المعالجة وليس حسب الترتيب التاريخي للكتاب والأعمال المختلفة التي ستم مناقشتها . ونحن لم نناقش سوى الأعمال التي تكتسب صفة العلمية أو هكذا قدمها كتابها .

وهذا يفسر أننا تغاضينا كلياً عن الأعمال التي كتبت لأهداف دفاعية خاصة بإثبات عقائد النصارى مثل أعمال (السيرموير ، والأب لامانس) أو الخاصة بالإيديولوجية الماركسيّة مثل أعمال (بارتهولد ، بلايف ، بيرتلز) أو أعمال الموتورين (مثل الأب الدومينيكانى ثيري الذى يكتب باسم مستعار هو حنا زكريا) .

وسوف يجد القارئ عن طريق مناقشتي لهذه الأعمال ذات الطابع العلمي أن هؤلاء الكتاب رغم مظاهرتهم العلمية والموضوعية كانوا أكثر تشبعاً بالأحكام المسبقة دينياً كانت أو قومية . إن مسؤوليتهم في هذا الصدد لا تقل ألف مرة من مسؤولية أسلافهم في القرون الخوالي في أوروبا والذين لم يتوفروا لديهم أى مرجع أصلي ومؤكّد بينما كان في متناول أيدي هؤلاء تقريرياً كل المصادر القادرة على إرشادهم كما أن جانباً كبيراً من تلك المراجع قد نشره أقرانهم الأوروبيون بكثير من العناية ومنهم (فوستنفيلد وفلهوزن) . في الواقع إن دعوى الموضوعية عندهم تبدو في أبهى صورها جزئية ومتاهجهم الذي يسمونه نقدياً علمياً يتكشف عن سراب خادع .

ولذلك فقد حاولنا هنا أن نكشف أخطاءهم وأن ندحض أكاذيبهم وأن نقوم بأحكامهم التي تقوم غالباً على أحداث مغلوطة أو ناقصة وكل ذلك بهدف توصيل القارئ غير المسلم إلى أن يكون لديه عن الإسلام وشخصية مؤسسه مفهوم دقيق وعادل .

د. عبد الرحمن بدوى

المقدمة

أسطورة محمد في أوروبا عشرة قرون من الادعاء الباطل والافتراء

خلال تبعي للمفاهيم التي تبناها الأوروبيون حولنبي الإسلام محمد انتابى الذهول من جهلهم المطبق وعدوانيتهم الواضحة وأحكامهم المسقفة المتأصلة وتحسر بهم الطاغى ضد خصومهم . وهذا لا ينطبق فحسب على الشعب الجاهل والساذج ولكنه ينطبق أيضا على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين والمؤرخين حتى أنه خلال القرون التي شهدت انتلاق الفكر الأوروبي من القرن الثاني عشر وحتى القرن السابع عشر لم يكن لدى أي من هؤلاء المفكرين الشجاعة في تحرى المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه . فلا البرت الكبير ولا توماس الأكويني ولا روجر بيكون في القرن الثالث عشر ولا فرنسيس بيكون ولا بسكال ولا اسبيروزا في القرن السابع عشر لم يحاول أي من هؤلاء أن يبذل جهداً لفهم الإسلام مع أنهم كانوا يعرفون بشكل أو باخر الفلسفة والعلماء العرب ولم يدخلوا وسعاً في مهاجمة أرائهم ودينهم .

وقد شهد رينان على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على محمد ، يقول رينان « لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد ... إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له ، لقد ادعوا بأن محمداً كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له ، ولقد وصمه ذاتي بالإلحاد في رواية الجحيم ، وأصبح اسم محمد عنده ، وعند غيره مرادفاً لكلمة كافراً أو زنديق ، ولقد كان محمد في نظر كتاب العصور الوسطى نارة ساحراً وتارة أخرى فاجراً شنيعاً ولصاً يسرق الإبل ، وكاردينالاً لم يفلح في أن يصبح باباً فاخترع ديناً جديداً أسماه الإسلام ليتقم به

من أعدائه ، وصارت سيرته رمزاً لكل الموبقات وموضوعاً لكل الحكايات الفظيعة» (١).

١ - لقد بدأ دراسته بذكر ما قاله المؤرخ البيزنطي (ثيوفان) (٧٥١ - ٨١٨) في كتابه الأحداث التاريخية حيث يحكى أن موت محمد كان بفعل عشرة من اليهود الذين تآمروا عليه بعد ما رأوا فيه المسيح حيث كانوا يروننه يأكل لحم الإبل (وهو شيء محرم في الديانة اليهودية) ومع ذلك فقد ظلوا حوله من أجل الإضرار باليهودية . ثم يرسم ثيوفان ملامح حياة محمد قائلاً أنه ذهب إلى فلسطين وتحدث مع اليهود والنصارى وتعلم منهم ما تحتويه الكتب المقدسة » (٢).

ونجد في الملامح التي رسمها ثيوفان أسماء كثيرة منها : أستاس (المتوفى قبل ٨٨٦) وقسطنطين بورفiroجينيتا (٩٠٥ - ٩٥٩) وسدرينو توفي (١٠٥٧م) ولكنه لم يحدد اليهود العشرة المسؤولين عن موت محمد .

٢ - كما تأخذ الأسطورة منحني آخر عند الراهب جيوبرت رئيس دير نوجينت (١٠٥٢ - ١١٢٤م) ، ظهرت أسطورة جديدة تقول بأن بطريرك الاسكندرية حين مات أراد راهب أن يخلفه في وظيفته لكنه طرد من الكنيسة ، فوسوس له الشيطان بأن يعلن بأنه المسيح ، ولقد قام هذا الراهب باسمه (ماثوموس) وهي التسمية التي صار يكتب بها اسم محمد ، بالزواج من أرملة غنية اسمها خديجة وأشاع أنه نبى بين حشد من الناس ، ولقد جاء (ماثوموس) ببقرة ووضع بين قرنيها كتاباً صغيراً وأخفى هذه البقرة عن أتباعه ، وفي أحد الأيام أخرج هذه البقرة أمام العامة وجعلهم يقرأون الكتاب الصغير الذي كان بين قرنيها ، وقد وجدوا في هذا الكتاب جملة تحمل لهم لكل أنواع الفساد الأخلاقي ، وتبين لهم أكل كل اللحوم المحرم أكلها على الناس ، ويتبين جلياً أن هذه الأسطورة المضللة قد بني واضعها قصتها على أمرتين ، أحدهما : قصة الراهب (بحيرى) التي وردت في كتب السيرة ، وأسم (سورة البقرة) السورة الثانية الوارددة في القرآن ، ومن خلال هذين الأمرين نسج خيال كتاب أوروبا في العصور الوسطى هذه الأسطورة المفروضة في الحماقة والغباء .

٣ - وبالنسبة للدور المكذوب للراهب (بحيرى) في حياة الرسول ، استنتاج

(١) إرنست ريتان : دراسات في التاريخ الديني - باريس (١٨٥٩) .

(٢) ثيوفان - الأحداث التاريخية - (ص ٥١١) - ط بون (١٨٣٩) .

المسيحيو العصور الوسطى أن الإسلام ليس إلا هرطقة مسيحية ، وأن محمداً ما هو إلا منشق عن الكنيسة المسيحية ، وحتى يدعم هذا الافتراض قال بيردى كلونى (المتوفى ١١٥٦ م) أن الاسم الحقيقي للراهب (بحيرى) هو (سيرجيوس) ، وأن سيرجيوس كان من الهرطقة النساطرة ، وأنه ارتحل إلى الجزيرة العربية وهنالك التقى بمحمد ، ولقنه بكل ما كان ينقصه من معرفة عن تعاليم كتابي العهد القديم والجديد ، على التفسير النسطوري الذي لا يعترف بألوهية المسيح ، إضافة إلى بعض الخرافات الواردة في الأنجليل المزيفة .

٤ - وسار « جاك دى فيترى » على درب من سبقوه في الادعاءات المضللة عن نبى الإسلام ، بقوله إن محمداً كان قسيساً يدعى سوسيو ، وقد أداه بابا روما بتهمة الهرطقة فنفى إلى الجزيرة العربية ، وهنالك انتقم من أعدائه بادعائه النبوة ، وأنه استقى تعاليمه من كتابي العهد ، وأضاف إليهما ما وسوس له به الشيطان .

٥ - كما وصف « مارتين بولونكو » محمداً بأنه ساحر ومدع للنبوة ورئيس لقاطعى الطرق ، وأنه أخذ تعاليمه على يد راهب يدعى (سيرجيوس) وكان الشيطان هو الذى نقل إلى محمد شريعته بمساعدة الراهب الزنديق (سيرجيوس) ، كما أن شريعة محمد انتشرت بالسيف .

٦ - ولقد قال المؤرخ « فانسان دى بوفيه » (١١٩٠ - ١٢٦٤) وهو الكاتب المشهور للموسوعة المسماء « المرأة » وتقع فى أربعة أجزاء : المرأة الطبيعية ، المرأة المذهبية ، المرأة الأخلاقية ، المرأة التاريخية . والجزء الأخير هذا هو قصة العالم منذ بدء الخليقة وحتى عام (١٢٤٤ م) ثم أكملها فانسان نفسه إلى عام ١٢٥٣ ثم استكملت على يد كتاب آخرين فيما بعد . وكان فانسان كما يحكي من الأخوة المبشرين فى دير دى بوفيه وكان على علاقة حميمة بلويس القديس (لويس التاسع) الذى قاد احتملة الصليبية السادسة فى (١٢٤٩ - ١٢٥٠) وكان فانسان يتمتع بشقة هذا الملك كما كان فى نفس الوقت قارئه وأمين مكتبه ومربي أولاده . وهذا يفسر اهتمامه بالإسلام الذى تحدث عنه طويلاً وناقشه فى المرأة التاريخية (٢٣ - ٦١) . ويعتمد فى حكاياته عن الإسلام على ثلاثة مصادر : (١) La Cronaca Libellus لأوجولفولد ياسيس . (٢) وهو كتاب لمشومى تالاسيس وهو كتاب حول أكاذيب محمد فى بلاد ما وراء البحر . (٣) مجادلة يهودية عربية حول الإسلام والمسيحية فى الجزيرة العربية .

وقد اقتبس من المصدر الأول حكاية فن تحضير الأرواح عند محمد ونوبات الصرع المتتابعة عند محمد وقد استلهم من المصدر الثاني حكاية البقرة وأوعية اللبن والعسل واليماما المروضه على أن تهدل في أذن محمد وكذلك اتصاله بالروح القدس وهذه أول مرة نجد تلك القصة في (أسطورة محمد في الغرب) وقد أخذت من المصدر الثالث قصة (سيرجيوس) وكيف أن هذا الراهب قد فسق بشكل رهيب في ديره مما أدى إلى حرمائه وطرده ولجوئه إلى منطقة في الجزيرة العربية فسمها (كوهين) حيث كان يعيش هناك شعب يعبد الأصنام وشعب اليهود .

وهناك تقابل (سيرجيوس) هذا مع محمد الذي يعبد الأصنام وأراد هذا الراهب بداعف من محاولة إرضاء الرهبان الذين طردوه من الكنيسة ، حتى يصطلاح معهم فإنه دفع محمد إلى ترك عبادة الأصنام وتحويله إلى مسيحي نسطوري . ومن هنا أصبح محمد أحد تلاميذه بعد ما أقنعه بال المسيحية وقد تلقب باسم ماهوميت النسطوري حيث تعلم من (سيرجيوس) تعاليم العهدين القديم والجديد وألف القرآن حيث أدخل على تعاليم العهدين القديم والجديد بعض الأساطير والأكاذيب الأخرى . ولكن اليهود حين رأوا أن محمداً يمكن أن يصل إلى المسيحية الحقيقية فدسوا على محمد أتباعاً آخرين وحاولوا أن يعلموهم المذهب الجديد (الإسلام) حيث أضاف اليهود إلى القرآن تعديلات معينة وحذفوا منه بعض المقطوعات !!!

إن فانسان دى بوفيه يمثل قمة الكتاب الذين لم يسبروا أغوار المراجع العربية المباشرة .

٧ - كان على ما يبدو أول من استفاد من المراجع العربية المباشرة هو « جايمون الطرابلسى (طرابلس لبنان) في سنة ١٢٧١ حيث أقام في دير قريب من طرابلس وكتب كراسة يوميات حول رحلاته إلى سوريا وأهداها إلى تيدالد عام (١٢٧٣) . وفي حكايته عن حياة محمد يؤكّد على دور بحيري الراهب الذي كان يعيش في دير على الطريق الذي يسلكه العربي من مكة إلى سيناء . وقد أللهم بحيري أنه يوماً ما سيمّر بهذا المكانة شخص ما تهتم به الكنيسة ، ولما جاء هذا اليوم تعرّف بحيري على هذا الشخص بوحى إلهي حيث أعلم بأن طفلاً يتيمًا معتلًا فقيراً

(١) مارتين بولو - الأحداث التاريخية (ص ٢٧٣) .

(٢) محاورة بين مسلم و مسيحي من الجزيرة العربية حول عقيدة المسلمين و عقيدة المسيحيين .

وحارس إبل هو الشخص المطلوب . وقد حكى المسلمين كما يقول جيوم الطرابلس أن باب الدير الذى دخل منه محمد ارتفع لحظة دخوله ويدا كأنه توس قصر امبراطورى وقد استقبل الطفل بشكل حار من قبل بحيرى الذى منحه الطعام واللبس واعتبره كما لو كان ابناً بالتبني . وقد علمه أن يحترم عباده الأصنام ويتهل بقلبه إلى يسوع بن مريم . وبعد وقت ترك الطفل الدير لأنّه كان في خدمة تاجر غنى . ولكنّه وعد أن يعود حين يكبر . وقد مارس الطفل التجارة بنجاح وكان يتردد كثيراً على بحيرى الراهب . وقد مات سيده في هذه الأثناء فتزوج من أرملته وظل يداوم على زيارة الراهب مما أسرّط عشرة من صحباته ذرعاً ذات ليلة من حديث بحيرى مع محمد فقتلوا بحيرى بسيف محمد وقد اعتذروا لمحمد قائلين : أنهم شربوا حتى الشماملة مما جعلهم تحت تأثير الخمر يطعنون بحيرى بسيف - ولأنّه صدق ذلك الخبر الكاذب فأدان الخمر وحرم الشراب على أتباعه . وحين مات بحيرى أفلت أتباع محمد من عقالهم فراحوا يسلبون البلاد ويقتلون العباد وظلوا على هذا الحال حتى وفاة محمد .

ويعرض جيوم الطرابلسي الدين الإسلامي بالتفصيل حسب مفهومه الشخصي ويتهى بالتأكيد على أن المسلمين لم يكونوا بعيدين عن حقيقة العقيدة المسيحية .
إذاً فرواية جيوم الطرابلسي أقرب إلى الحقيقة التاريخية من كل قصص أسلافه الأوليين (١)

٨ - وهناك كاتب آخر أخذ من المصادر العربية المباشرة وهو (بيير باسكاسيو) (١٢٢٨ - ١٣٠٠م) وكان مطران غرناطة قد كتب مقاله طويلة حول شريعة المحمدين . وقد صب جام هجومه على بحيرى الذي وصفه « بالراهب المحرف »، وعن هذا الراهب المحرف يحكى القصة بشكل مبالغ حيث يقول : لقد كان بحيرى راهباً واسع العلم ولكنه انغمس في الفنون المحرّرة وكان يطمح في المراتب العليا ، لكنه لم يحظ بال懋ج فجاء إلى روما ولم يحصل على أي

(١) نشرت كراسة جيوم الطرابلسي لأول مرة على يد هانز فراتس في ديوانه تاريخ ثقافة قريش مع دراسة حول « مفاهيم العصور الوسطى حول محمد و沫ه ، انظر (ص ٢٣٧) .

شيء مما كان يطمح فيه فاشتد حنقه على الامبراطورية الرومانية وأراد أن يتأثر لنفسه
ببذر بذور الشقاق بين المسيحيين .

ولأنه كان يقرأ في سفر باروخ (العهد القديم) أن ذرية هاجر (أم إسماعيل
ابن إبراهيم) أى العرب سيكونون تافهين وشهوانين وليس لهم أى قوة مادية
فإنه سافر إلى الجزيرة العربية حيث توجد ذرية هاجر . وقد وجد بين العرب
شعراً حديث الدخول في المسيحية فنزل بينهم وعاش فاسقاً في مكان منعزل وقد
قابل الشاب محمد الذي كان يحرس الإبل وحينما رأه قوى البشة ذكياً علمه كثيراً
من الأشياء وحين تأكد أن مهتماً قد بهر به وعده أن يكون سيداً لمدينة تحمل مكاناً
مرموقاً وطلب منه أن يطهيه في كل شيء . ولما رضى الراهب عن محمد علمه
وجعله خبيراً في علم تحضير الأرواح وفي التنجيم كما علمه اللغات وبعد وقت
قليل مات ملك تلك المنطقة دون أن يترك من يرث الملك فاشتد التزاع بين الشعب
وكان الشباب يشكون من قوة القانون بينما رجع الشیوخ إلى الراهب ليحل لهم
هذا الخلاف فأجابهم بأنهم يجب أن يعودوا للملك شخصاً يجد حلاً لهم
وفي هذا الوقت اتفق مع محمد ورتب معه حيله اليمامة والثور الأبيض وعندما
رجع الناس إلى بحيرى اقترح عليهم أن يختاروا للملك شخصاً يكون قادراً على
إيقاف الثور الذي يجب الجبال . وقد روض محمد الثور وكان الوحيد الذي
استطاع ذلك ثم كشف للجمع المتعب الظمآن نتيجة مطاردة الثور عن عين ماء
صاف وضعه في القرب وأخفاه بعانياة . وهكذا اختار هؤلاء الناس محمدأً ليكون
ملكأً عليهم ولما أصبح محمد ملكاً فرض على الناس قانونه وشريعته التي هي في
خدمة الله والشهوة حقاً وألف القرآن بمساعدة الراهب حيث كان مكتوباً على قرن
الثور بينما كانت اليمامة التي روضها محمد قد جعل الناس يعتقدون أنها ملك
يبدو أنه يكلمه في أذنه .

في هذه القصة لم يحدد (ببير باسكاسيو) اسم هذا الراهب ولكنه يذهب
بعد من ذلك حيث يقول : أنه اسم سرجيوس مذكوراً في كتب المسلمين باعتباره
مسيحياً وأحد صحابة محمد ولكنه لم يصفه بحدة الذكاء ولا بالذهب الديني
ولكن فقط مدحه بالتزوع إلى قطع الطريق . وكان (سيرجيوس) هذا يعرف كل
دروب الصحراء وعندما كان قطاعي الطرق يخرجون لطعناتهم كانوا يلحاؤن إلى

حيلة حيث يخفي لهم في الرمال بيض نعام مليئاً بالماء ويعطيه لهم ولابلهم ليشربوا حين يظمأون .

وكان الناس الذين ينهم هؤلاء القطاع لا يتبعونهم على أمل أن يموتونا عطشاً في قلب الصحراء ولكنهم حين يرون قطاع الطرق وقد عادوا سالين غافرين يعتقدون أن في الأمر معجزة مما زاد من صيت محمد ومذهب سلامه الروح والجسد الذي يدعوه إليه . إذا فحسب رأى باسكاسيو فإن سيرجيوس الذي يمكن أن يكون هو بحيري لم يكن راهباً ولا ناسكاً ولكنه مخادع يقود عصابة من قطاع الطرق .

باختصار ، لقد ألف (بير باسكاسيو) رواية استعار تفاصيلها من الأساطير السابقة التي ألفها الكتاب الأوربيون . ويرغم ادعائه أنه رجع إلى المصادر الإسلامية إلا أنه لا شيء يدل على أنه رجع إلى أي من تلك المصادر . وروايته تكشف عن خيال مضطرب مع أنه كان يعيش بين المسلمين وفي قلب مملكة غرناطة التي ظلت إسلامية حتى نهاية حكم المسلمين في أسبانيا عام (١٤٩٢) . إنه لم يستفد إذاً من حياته في بلد إسلامي ومعاشرته لأيام المسلمين ووجود كل ألوان الكتب في متناول يده وكذلك الوثائق كما كانت لديه الفرصة لمناقشة فقهاء المسلمين ليعرف الإسلام حق المعرفة أو حتى ليكون لديه فكرة عادلة إلى حد ما بدلأً من أن يحبس نفسه في قلق من الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة عن الآخرين . وحتى في أيامنا هذه لاحظت أنه ما تزال عند القساوسة في بلاد الإسلام نفس آراء (بير باسكاسيو)
إيان القرن الثالث عشر .

والجديد في تلك الأسطورة كما حكها (بير باسكاسيو) هي وصول سيرجيوس إلى روما وطموحاته في تقلد منصب رفيع وهو أن يصبح مطراناً أو باباً . إذن فبحيري (سيرجيوس لم يكن راهباً مسيحياً يعيش في دير على الطريق من مكة إلى تيماء أو إلى سيناء ولكنه قسيس ذهب إلى روما ليتقلد منصبًا كنسياً رفيعاً . ولما قريل بالصدود وأحبط لأنه لم يحصل على شيء ثأر لنفسه برسم خطة لبذر الشقاوة بين المسيحية .

٩ - ونفس الفكرة أعادها « تاما سوتو سكا » الذي كتب في (١٤٨٨ م) قصة يزعم أنه اقتبسها من كتاب وجده في سكر سينا (كنيسة في بولونيا شمال إيطاليا) .

ولا تختلف قصته عن قصة (بير باسكاسيو) إلا حول بعض النقاط التفصيلية وبعض التفصيلات غير المهمة .

١٠ - ومنذ تلك اللحظة تعلقت الأسطورة بالراهب الذي جاء إلى روما ليتقلد منصباً دينياً رفيعاً ولما أخفق أصبح محروضاً على الانشقاق الذي قد يكون الإسلام. إذاً فالأسطورة تأخذ شكلاً جديداً حين جعلت من ذلك الراهب معلم محمد أو سيده ولكن محمدأً بشخصه ليس مذكوراً في تلك الأسطورة الجديدة ولكنه مذكور تحت اسم نيكولا المتحرر ^(١) . حيث نقرأ أن نيكولا ، الذي هو محمد ، كان واحداً من سبعة من شمامسة كاردينالا ، الكنيسة الرومانية ، وقد ألم بعلوم كثيرة ، وكان عارفاً لكل اللغات القديمة ، وكان البابا آنذاك هو الكاردينال لورنزو ، وكان عجوزاً قد قارب على الموت فأرسل الكرادلة إلى نيكولا يطلبون منه القديوم إلى روما لتعيينه ببابا بسبب قرب موته البابا الحالي ، ولما جاء نيكولا إلى روما ومثل أمام البابا دون إبداء الاحترام والتجليل الواجب نحوه ، عند ذلك غضب عليه البابا وحدد إقامته ، ولكن نيكولا غضب وارتحل إلى جزيرة العرب وصمم على الانتقام من البابا والكنيسة بتأليف عقيدة جديدة يخرب بها المسيحية ويبشر بها بين العرب .

وأضاف مؤلف كتاب نيكولا بأن نيكولا (محمد) قتل على يد رجل يهودي يدعى (مرزوق) ، كان محمد يعشق زوجته التي كانت تدعى (كاروفا) وأن أتباع محمد قتلوا مرزوقاً وكاروفا انتقاماً منهما لقتلهمما محمد .

ولقد أورد (بير باسكاسيو) هذه القصة حين روى أن محمدأً كان قد وقع في حب امرأة يهودية واستطاعت هي وأهل ملتها من اليهود أن يقتلوه بعد أن دعته المرأة في ليلة إلى مخدعها ، وقامت هي وأهلها بقتله وبتر يده اليسرى والاحتفاظ بها وترك بقية جسنه وليمة للخنازير .

انظر بأى هوس صاغ الكتاب الأوليرون فى القرن الثالث عشر هذه القصة الخيالية معتمدين على واقعة بسيطة مذكورة فى سيرة ابن هشام وهى أن يهودية

(١) مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس الوثائق اللاتينية ، تحت رقم (١٤٥٠٣) مكتوب فى القرن الرابع الميلادى .

تسمى زينب بنت الحارث زوج سالم بن مشكم من زعماء اليهود قد دست السُّم لِمُحَمَّد حيث قدمت له كتف شاة مشوية حشتها بالسُّم القاتل الزعاف (انظر التفاصيل في (ص ١٣٥) ١٣٥) وانظر ابن هشام ص ٧٦٤ ، ٧٦ ط . فستيفيلد): وهكذا أصبحت زينب « قاروفا » وأصبح سالم بن مشكم « مرزوق » : وبدلاً من ذكر محاولة سُمّ محمد في كتف شاة ممحشوة بالسُّم لم يظهر أثرها إلا بعد أربع سنوات تتحدث تلك الأسطورة عن اغتيال من قبل مجموعة من اليهود ثم تردها بنهاية سافرة على طريقة الأساطير .

وهذا مثال طبق الأصل لعقلية الكتاب الأوروبيين من مؤرخين وقساوسة وعلماء دين وشعراء !

هذه الأسطورة المتعلقة بالبابوية التي وعد بها ولم تتحقق ذكرها داكونينا (ص ٢٥٠) مع بعض التعديلات في التفاصيل فمرة يذكرها مع اسم نيكولا ومرة بدونه ومرة يكون المطران الرسول مجرد ملهم لمحمد ومرة أخرى يكون هو نفسه محمد وهذا سبب غموضاً كبيراً بين جموع الشعب في أوروبا . ويحدد داكونينا مثالين مأخوذين عن قصيدتين الأولى عن « نيكولودو كاسولا » Nicolo de casola في قصيده Amia نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وكاتب القصيدة الشعبية « دوناتس » التي نظمت حوالي منتصف القرن الخامس عشر .

١١ - أمام هذه البلبلة من الأساطير حول محمد أحس « چاكون دوفاراجم » (١٢٣٠ - ١٢٨٧) بالتشويش في كتابه « الأسطورة المقدسة » وقد اختار ثلاثة مواضع من التي كرستها ليعلق عليها . ولكنه يحكى حادثة تسمم محمد بشكل أكثر دقة وتطابقاً مع التاريخ لأنَّه يقول أنَّ النبي مات من أثر سُمٍّ كان قد وضع له في لحم خروف منذ سنوات .

١٢ - وقد وصلنا الآن إلى كاتب آخر وهو برغم ما كان تحت تصرفه من وسائل المعرفة لم يخرج من نفس الأحكام العشوائية ومن نفس الأساطير ألا وهو « ريكادرو مونتكروس » وهو راهب دومانيكي مدافع عن المسيحية ورحلة كبير في بلاد الإسلام ولد في فلورنسا حوالي (١٢٤٣) ومات في ٣١ أكتوبر (١٣٢٠) ، وقد أصبح مهتماً بالدين منذ عام ١٢٦٧ وتعلم خلال عدة سنوات الفنون المحررة في بيزا من (١٢٨٧ - ١٢٧٢) ثم في براتو (٨٩ - ١٢٨٧) ثم حل بفلورنسا . في عهد البابا نيكولا الرابع بدأ رحلته إلى الشرق حيث جاب فلسطين (ومنها

أخذ اسمه دومونتكروس . ثم أرمينيا الصغرى فتركيا ثم إيران والعراق حيث حاول في الموصل أن يجمع بين العاقبة ثم في بغداد حاول أن يجمع النساطرة .

ثم قام بحوار مع المسلمين ، وبعد سقوط عكا آخر المدن التي كانت تحت سيطرة الصليبيين في ١٨ مايو (١٢٩١) هرب إلى بغداد ، وبعد عشر سنوات ذهب إلى فلورنسا في أكتوبر (١٣١٠) ، وقد حكى قصته في كتاب سماه « سفر الترحال »^(١) ولكن الذي يهمنا هنا بشكل أكبر هو كتابه (نقد القرآن) الذي ألفه في فلورنسا (١٣٤٠) وهي السنة التي توفى فيها وقد ترجم هذا الكتاب إلى اليونانية ترجمة « سيدون » حوالي (١٣٦٠) ثم أعيدت ترجمته مرة ثانية إلى اللاتينية عن طريق « Picerno » (روما ١٥٦٠) ويرغم أن الأصل كان مكتوبا باللاتينية وأن هذه الترجمة المعادة ظهرت لها طبعات مختلفة منها طبعة « مؤلفات آباء الكنيسة اليونانية » حيث نجد الترجمة اليونانية

بجوار الترجمة اللاتينية المعادة . وفي هذا الكتاب يزعم « ريكالدو » أن الملهى الحقيقي لمحمد هو الشيطان الذي نتيجة لخقدم على انتصارات هيركليس البيزنطي على الفرس أعطى محمداً بعض اليهود وبعض النصارى الهراطقة ليعلمهونه حيث كان أمياً ويحدد من بينهم أسماء محرفه مثل بحيري الذي يذكر أن محمداً قتله فيما بعد عبد الله بن سلام وبعض النساطرة الذين يعتقدون أن يسوع كان بشراً ولم يكن إليها وأنه ولد لمريم العذراء ، كما يحروف ريكالدو الحديث الوارد عن النبي ﷺ والذي يقول فيه أن القرآن نزل على سبعة أحرف إلى « نزل القرآن من سبعة رجال وأن هؤلاء الرجال هم ، نفل ، يمن ، عمره ، اليسار ، أسير ابن سيفير ، وابن عمر وهذا تحريف لحديث القراءات السبعة .

١٣ - وهناك رواية أخرى لتلك الأسطورة عند « يعقوب الأكونيني ت ١٣٣٧ وهو صاحب كتاب « صورة العالم » حيث يزعم أن كل عقيدة محمد مقتبسة من النصارى قائلاً : « كان هناك رجل دين مسيحي يدعى نيكولا ، أهين بشكل

(١) طبعة س . م لوان ضمن « رحلات العصور الوسطى » ليزوج ١٨٦١ ص ١٠١ - ٤١ ، انظر حول ريكالدو : محمد مانووس « ريكالدو » حاج في الأرض المقدسة ورسول في الشرق » في المجلة التوراتية (٢ - ١٨٩٣) ص ٤٤ - ٦١ ، ١٨٢ ، ٢٢٢ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧ .

مشين من قبل كنيسة روما وتركها يائساً وصباً عن المسيحية وذهب إلى ما وراء البحار ولأنه رجل حاذق وما كر فقد فكر في أنه يمكن أن يحيا حياة جديرة بالاحترام .

في الواقع أن يقولا كان رجلاً متفقاً وفصيحاً ويشوشاً وذا أخلاق دمثة ، وقد وصل إلى فارس وأخفى عن الناس قداسته وامتناعه عن كل الشهوات وعفته . وكان يسكن هذه المناطق مسيحيون ووثنيون . وكان الأولون متخلقون لأنهم لم يكن عندهم بشرون باليسوعية ولأنهم قد خرج من بينهم كثير من الهرطقة المرتدين . وقد وجد يقولا المعونة من صاحبه الذي استطاع أن يسخره له الشيطان وهو تاجر وقائد إيل يسمى محمد كان يستطيع محادثة العالم كله من نصارى ويهود ووثنيين لأن مهمته تتطلب ذلك . وكان ذكاء حاد وكان متعلماً ويعرف عادات أهل تلك المناطق . وقد تحالف يقولا رجل الدين مع محمد ثم تحالفوا مع رجل آخر يدعى « سيرجيوس » الذي كان راهباً مسيحياً وقد توصلوا إلى تأليف شريعة جديدة مضادة للمسيحية حيث نعموا بحياة بهيجه ودعوا أولاً الغجر وأهالي الجبال المتخلفين قاتلين لهم : « لا نريد أن يقال عنكم أنكم غجر أى أولاد الجارия » هاجر ، ولكن سارين أبناء سارة . ولأنه محدثاً كان ذا هيبة مما حدا بصاحبيه أن يسميه « نبى الله » ، وهكذا دعاه البدو ساكني الجبال . ولذلك اخترع خدعة اليمامة . ولقد حاول محمد التوడد إلى اليهود والنصارى حين مدح شريعتهم ووضعها على قدم المساواة مع شريعته . وينهى يعقوب الأكويني حكاياته حين يقص كيف مات محمد مسموماً وكيف حمل على سفينة معلقة في الهواء^(١) .

وقد انتشرت تلك الأسطورة الأخيرة بشكل واسع بين الأوربيين حتى القرن الثامن عشر . ويقول « بابل » في كتابه « القاموس التاريخي والنقدي » مقال : « محمد » مج ٣ ص ١٨٦١ ، سوتردام - ١٧٢٠ ، يقول عن هذا الموضوع : « إن هناك عدداً لا يحصى من الناس يعتقدون أن نعش محمد كان من حديد وأن هذا أحدث معجزة كبرى في نفوس أتباعه ، فإن هذه الأسطورة أضحت لهم عندما علموا أن النصارى يحكونها على أنها حديث مؤكدة » .

(١) أحداث وحوليات صورة العالم ، نشر في : مونوم هست . مج ٣ ص ١٤٥٨ ، وقد ترجمتنا الملخص الذي نشره أكونيا ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

بعد هذا العرض التاريخي ، يلخص داكونا هذا الخلط الكبير الذى وقع فيه الأوروبيون لمدة أكثر من أربعة قرون حيث يقول : « فى الواقع إن السيد محمد ومستشاره يأخذ أحياناً شخصية بحيرى ومرة أخرى شخصية ورقة بن نوفل فى الأسطورة الإسلامية ومرة يبدو مؤمناً مدافعاً عن المسيحية ومرة أخرى هرطقى أريانى أو يعقوبى أو نسطورى حسب الرواية ، وهو يعمل ليستجدى عطف أتباعه الذين أبعدوه ، وحسب رواية أخرى يعمل على التأثير لنفسه ، كما أنه دائمًا راهب ، أو بطريرك أو كاردينال : أما اسمه فهو بحيرى أو سيرجيوس . كما أن محمداً نفسه يقدم لنا مرة على أنه وثن ومرة أخرى على أنه مسيحى يدعى أوكيين ، أو بلاجيوس أو نيكولا . وهو ساحر ، وأمى وعالِم فى بولونيا : وقد جاء من القسطنطينية ، أو من أنطاكية أو من أزمير ، أو من مناطق وثنية أخرى أو مناطق مسيحية ، وهو مرة عربى ، ومرة أسبانى ، ومرة أخرى رومانى من عائلة كولونا ، ومرة يختلط اسمه باسم معلمه ، ومرة يكون هو الراهب أو المطران الذى كان على وشك أن يصبح بابا عند آخر الكتاب الذين ذكرناهم (يعقوب الأكونينى) والذى يبدو أنه

يريد أن يتعامل مع القضية بشكل أكليروس . وقد ناقشنا هذا الثالوث نيكولا ، وسيرجيوس ، ومحمد ، وقد يأتون أحياناً أربعة ، وسترى أيضاً بعض الاختلافات وبعض الخلط وبعض التداخلات لختلف الأساطير فى بعضها البعض . ومن أسطورة لأخرى تتغير الأسماء والأحداث : ويظهر الفن الشعبى والتقاليد الشفوية بقوة فى الروايات مما يعكس الاضطراب فى العقليات ، وفي خضم هذا الت النوع فإن ما يبدو ثابتاً ومؤكداً هو : أن محمداً هو إما مسيحى أو متعلم على يد مسيحى وأن الإسلام ما هو إلا تشعب هرطيقى عن المسيحية (١) .

ويلاحظ داكونا أخيراً أن هذه الأسماء الثلاثة : سرجيوس ونيكولا وبلاجوس هى الأسماء الحقيقة لأشخاص ثلاثة هراطقة والذين تنطبق سلوكياتهم على التمرد والإنشقاق : سيرجيوس على وجه الشخصوص كان زعيم الموحدين ومت homicidal يشير الإعجاب (عام ٦٣٢) . وكان يعيش فى زمن محمد بشكل جعل كتب

(١) الياندرا داكونا « أسطورة محمد فى الغرب ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ فى « الجريدة التاريخية للأدب الإيطالى » مج ١٣ (١٨٨٩) .

التاريخ وذاكرة البشر تجمع بين كل منها وتشكك منهما أضف بالأمبراطور البيزنطي ومن أعطى نصائح خاطئة لمحمد . ومن هنا حدث الخلط بين بطريرك القسطنطينية المسماى سيرجيوس والراهب الغامض بحيري .

أما عن نيكولا ، فإنه يقول إن الإنجليزي المذكور في « وقائع الحواريين » في (العهد الجديد ٦ ، ٥) الذي انتخب واحداً ضمن السبعة نواب للكنيسة الأم والذى من اسمه اشتقت كلمة الهرطقة النقولية التي تعتمد على نوع من الطمائنية والتى بواسطتها يمكن إعادة نوع من الشفاء الحر لعواطف الحواس . ويشرح رينان في تفقيحه لمقال داكونا هكذا عن اختيار نيكولا بقوله : « لا شيء يثبت أن نيكولا سيرجيوس الرؤوف عند يوحنا كان لهم أب هو النائب نيكولاس المذكور في وقائع الحواريين بل إن كل شيء يحمل على الاعتقاد بعكس ذلك وهو أن نيكولا سيرجيوس الرؤوف هم تلامذة المغرى المسماى « بعلام » و (نيكولا هو الترجمة الإغريقية لكلمة بعلام) ويعتبرهم اليهودي المنطرف كاتب سير الرؤوف تلاميذ القديس بولس والذين علمهم معلمهم بعلام الجديد « أن ينتهكوا قوانين الله ، ومهما يكن من أمر فإن أسطورة نيكولا والنقولين أصبحت منذ القديس أربينا إحدى أسس اللغة الكنسية . حيث كان نيكولا وهو أكبر الهرطقة وأبا الهرطقة وهو في النهاية الاسم الدقيق الذي يدل على الانفصال الذي قسم العالم إلى عدوين مسلحين وكذلك كان نيكولاس كنية تدل على مؤسس العقيدة الإسلامية . كما استخدمت ضد محمد وأصحابه ترسانة من الشتائم فقدت معناها مع سخريتها اللاذعة .

أما الاسم الثالث وهو « بلاجوس » ، فإن داكونا يعترف بأنه لم يتمكن من الكشف عن أصله ولا قضية هذا التحول الخطير من بلاجوس إلى محمد .

وفي ختام مقاله ، يقرر داكونا أن الشكل الأول هو الشكل اليائى للأسطورة الغربية وال المسيحية عن محمد والتى يجب أن تبحث فى إطار رواية السير العربية وخاصة محمد النبي الشاب (محمد) محمد بحيري وكذلك فى السير الخاصة بورقة بن نوفل ودوره فى الإصلاح الدينى الذى قاده محمد . وقد انتشرت تلك الأسطورة التى تميز فيها الراهب المسيحى نصير الهرطقة النسطورية شيئاً فشيئاً فى الشام وفي آسيا الصغرى وفي الإمبراطورية البيزنطية حتى دخلت المناطق الغربية

حيث أكدتها كتاب Disputatio وهي أسطورة ذات أصل إسلامي وقد رویت عن مصادر متعددة وبطرق مختلفة ولذلك فإن المسيحيين الذين يعتقدون أن لديهم وحدهم العقيدة الصحيحة والذين كان يحكى لهم أن هذا الراهب الهرطقى قد ساهم في ميلاد الإسلام بحيث كان لا بد أن يعتبروا الإسلام ليس كدين جديد ولكن كان شفاقاً جديداً عن المسيحية وأن يطلقوا عليه أنه إغراءات شيطانية ويواعث بشرية لأطماع نهمة وغرور لا حدود له. ولكن التغير الأكثر اعتباراً والأكثر غرابة هو الانتقال من دير شرقى حيث يتصارع الرهبان ذوى الحذق الدينى وحيث طرد ذلك الراهب الذى سيكون مستشاراً لـ محمد ، للانتقال من ذلك الدير إلى روما فى قلب المسيحية حيث الصراع بين كل ألوان الفطرة وفى نفس الوقت كل ألوان المؤسوس البشرى . وقد تقول ذلك الراهب الذى ظهر فى بعض الروايات كمطلوب ببطريكة القدس أو الاسكندرية إلى مطران كنسى يطمع فيما هو أعلى من ذلك يطمع فى النيافة السامية ويكون على وشك الوصول إليها . وهكذا لم يعد الإسلام قد ظهر نتيجة صراع بين الرهبان فى أديرة الشام ولكن فى عقر دار المسيحية فى روما ، نتيجة لما قام به ذلك الطموح الذى كان يريد أن يكون مرشد وبابا المؤمنين يسوع المسيح وربما كان فى هذا الأصل الرومانى والبابوى للإسلام بعض رائحة المكر السياسى والدينى وربما يكون الأمر أبعد من ذلك فشكل هذه الأسطورة يرجع إلى وقت مجد وهيبة الشرق وكنائس أورشليم وإنطاكية والاسكندرية سواء على المستوى الروحى أو الزمنى . . ولم يكن هناك حدث مهم فى تاريخ المسيحية أو العالم يمكن أن يتصور عدم مشاركة روما فيه ، ونتيجة لذلك كانت روما هي فى الشكل الرئيسي للأسطورة الوطن الفاعل والمتبني لـ محمد وكانت الامبراطورية الرومانية إلى حد ما هي مهد الهرطقة الجديدة^(١) .

ومع داكونا وصلنا إلى القرن الرابع عشر لنواصل بحثنا إذا حول أسطورة محمد في أوروبا .

١٤ - لا نجد في القرن الخامس عشر شيئاً جديداً فيما يتعلق بتلك الأسطورة .

(١) اليساندرو داكونا - أسطورة محمد في الغرب ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

وقد تعرّض كتاب «نيقولا دي كوزات ١٤٦٤ (غريبة القرآن)»^(١) لتفنيد بعض قضايا القرآن حيث ادعى أنه وجد بعض المتناقضات ، ولكن لم يقل شيئاً عن حياة محمد بشكل مباشر .

١٥ - وفي القرن السادس عشر ، نجد بداية نشرة صغيرة طبعت حوالي ١٥١٥^(٢) حسب تخمين س ، فبركتهام^(٢) الذي عرضه حسب النسخة الموجودة في المكتبة البريطانية . وهذه النشرة بدون عنوان وهي مكونة من ست صفحات نقرأ في أولها «ابداً هذه المقالة عن شريعة الأتراك المسماة القرآن ، ثم تكلم عن محمد مناجي الأرواح ، ويغطي النص حوالي خمس صفحات حيث يقول (وهكذا فإن القرآن الذي هو شريعة الأتراك قد ألقى محمد الكاذب مناجي الأرواح ، وطبع في لندن حسب نصيحة السماء ...) وفي الواقع ليس هذا تلخيصاً للقرآن ولكن نشره ضد الإسلام وحياة محمد ، لنرى معاً ترجمة ما يقوله عن حياة محمد .

«لقد ولد محمد هذا في الجزيرة العربية ، وكان في البداية لصاً وقائد إبل في بلاد الامبراطورية وسافر كثيراً بعد ذلك ووصل إلى مصر بصحبة تاجر مسيحي وقد كانت مصر مسيحية في ذلك الوقت وكانت هناك كنيسة صغيرة في الجزيرة العربية حيث يعيش راهب واحد ، وعندما دخل محمد الدير الذي لم يكن سوى منزل صغير ذا باب منخفض وعندئذ بدأ الباب يتسع وأصبح أكبر من باب القصر وعندئذ قال المسلمون أن هذه كانت أول معجزة لمحمد في شبابه . وبعد ذلك أصبح محمد ساحراً حقيقياً فيما بعد وكان منجماً عظيماً وكان يقول أنه حارس ذهب أمراء قريظة ، وكان يحرسه بعناية وعندما مات أمير قريظة تزوج محمد أرملته والتي كانت تسمى خديجة . وقد أصبح هذا الكاذب محمد مريضاً بالصرع وذلك لأن الملك جبريل كلامه ولذلك خر مغشياً عليه نتيجة لنور جبريل الرهيب .

(١) نيكولاس ، وكويس ، الأعمال الكاملة ، ط بال ١٥٦٥ بعناية هدى برتي (ص ٨٧٩ إلى ٩٣٢) .

(٢) انظر : مقالة «سوء فهم الإسلام ضمن مجلد مخصص للمقارنة بين الإسلام والمسيحية ، فاروريوم ، بربنس ، لندن ١٩٨٣ ، والنسخة الأصلية الموجودة بالتحف البريطاني وتحمل رقم (٢٥١٣) مج ٦ بدون ترقيم .

وقد حكم هذا التاجر الجزيرة العربية في عام ٦٢٠ من ميلاد السيد المسيح وكان من ذرية إسماعيل الذي كان بدوره ابنا لإبراهيم من جارته هاجر .

ولذلك فإن العرب يسمون أنفسهم إسماعيليين وأبناء هاجر ، وكان بعضهم يسمى المؤابين والبعض الآخر يسمى العمونيين نسبة لابن لوط . وقد تحالف هذا الكاذب محمد مع رجل تلقى كان يعيش راهبا في دير على بعد ميل من طور سيناء . ولأن الناس كان من عادتهم أن يذهبوا من الجزيرة العربية إلى كالداس *Caldas* وكانت الرحلة تستغرق يوماً بمحاذة البحر حين كان التجار يصلون من البنديقية وقد جاء محمد أحيانا إلى تلك الصومعة مما أثار حفيظة أصحابه واستفزهم ، لأنه كان يطرب لسماع هذا الراهب الداعية تاركاً قومه يمشون طوال الليل ، ولذلك أراد قومه أن يموت هذا الراهب . وقد حدث ذات ليلة أن شرب محمد كثيراً وغط في نوم عميق فأخذ أصحابه سيفه من جرابه بينما كان يغط هو في نوم عميق وقتلوا الراهب بذلك السيف ثم أعادوا السيف مخضباً بالدماء إلى جرابه . وفي الصباح حين اكتشف محمد موت الراهب غضب وكان على وشك قتل رجاله . ولكنهم كانوا قد اتفقوا على أن محمد هو نفسه الذي قتل الراهب بينما كان ثملاً . ثم توسلوا إلى محمد أن ينظر إلى سيفه الذي كان مخضباً بالدم . وحينما رأى محمد السيف تأكيد من صدق قوله . وكانت هذه ثاني معجزة يفعلها محمد ، وقد لعن الخمر ومن يشربونها . وهذا يفسر أن المسلمين لا يجرؤون على معاشرة الخمر ولكن البعض منهم يشربها خلسة كما أنهم يتعاطون أشربة جيدة ومغذية مصنوعة من الأعشاب ، والسكر . وقد حدث أن أصبح بعض المسيحيين مسلمين إما بسبب الفقر أو نتيجة لضلالهم وعندما كانوا يتذمرون لعقيدة المسيحية كان المسلمون يعلموهم عقائدهم الفاسدة ويأمرونهم عندما يستقبلونهم أن يقولوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » (١) .

هذه الوثيقة تردد إذاً ما كان ي قوله « جيم الطرابلسي » فيما يتعلق بالعلاقة بين محمد وبهيرى الراهب ولكنها تضييف قضية ذهب أمراء قريطة .

(١) انظر : أصل هذا النص في مقال س . ف ، باكتجهاام ص (٢٩ ، ٢٨) من المقال المنشور للمرة الأولى في جريدة الجمعية الملكية للفنون (١٢٤) سبتمبر (١٩٧٦) ، وهذا مقال موضوعى في مجلمه عدا ما ي قوله وليم موير

١٦ - تيودور بيلياندر (١٥٠٤ أو ١٥٠٩ - ١٥٦٤) وهو مستشرق سويسري كان يعرف العربية والسريانية والعربية وقد نشر الترجمة اللاحينية للقرآن المكتوبة في ١١٤٣ بأمر بير رئيس المحفل الماسوني وأضاف إليها ثلاثة كتيبات أحدها بعنوان Praemonidio وكان مكتوبًا بخط « مالنستون » تلميذ « مارتن لوثر » ولكنه أحياناً ينسب للوثر نفسه وكان عنوان طبعه بيلياندر هو :

« المحمديون - المسلمين - خلفاء محمد ، مذهبه ، القرآن ... وهكذا ، وقد نشر هذا الكتاب في عام (١٥٤٣) وتوجد منه نسخة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٠٢٩١ : ١٠ وثلاثة نسخ بالتحف البريطاني . وقد ظهرت منه طبعة ثانية في بازل سنة (١٥٥٠) ويوجد منها ٤ نسخ في المكتبة الوطنية بباريس ، حفظ (١٦٥٨ ، ١٦٥٨ ٠ ٢٩ ١٠١) ، وحفظ ٢٩ ٤٩٤ ٠ ٢٩ ١٠١ . وكذلك نسخة بالتحف البريطاني برقم (٦٩٦ ، ١ ، ١٠) .

وقد كان بيلياندر عالم دين بروتستانت . وكان خليفة « تسفنجل » المصلح الديني السويسري الكبير حيث عمل أستاذًا لتدريس العهد القديم في زيورخ . وكان نشره لترجمة القرآن التي ذكرناها آنفًا قد سبب له بعض المتابع من جانب المجلس البلدي في بازل . ولكن « لوثر » وعلماء الالاهوت في زيورخ وشتراسبورج ساندوه في هذا الصراع . وقد دعا لأمراء ألمانيا والإنجليز إلى طرد المسيح الدجال من روما ويقصد به البابا ، كما دعا إلى حياديه الدعائية لهذا البابا أي بمعنى إرسال دعوة كالفنين إلى اليهود والمسلمين . وبعد وقت قصير نوى هو بنفسه أن يسافر كمبشر ولكن « بالنجر نجح في إثنائه على غزمه - وكانت الفكرة عن الدعائية البروتستانتية لدى غير المسيحيين قد تبلورت في مقاله الافتتاحي (١٥٣٢) . Oratio Ad Enarrationem Esajaec وفيه يشرح رأيه من خلال ملاحظاته عن الإسلام وحياة محمد في ذلك الجزء الذي ذكرناه والذي يحتوى على ترجمة القرآن إلى اللاحينية . ولأنه كان على أي حال عالماً جاداً يعرف العربية ولو بدون إتقان كما لاحظ « يوهان فك » فإن بيلياندر لم يسقط في الأساطير المضحكه التي اخترعها أسلافه الأوروبيون .

١٧ - ونصل الآن إلى القرن السابع عشر .

ونبدأ ب اللقاء الضوء على فرية مضحكه مختربة : وعلى الأقل مكررة من قبل

«فرنسيس بيكون ١٥٦١ - ١٦٢٦» ، وهو داعية المذهب التجربى الشهير . وهو يحكى فى أحد مقالاته والسمى «الخدعة» يحكى مثلاً أن محمداً قال للعرب ذات يوم أنه يستطيع أن ينادى الجبل ليأتى إليه . وقد كان الجبل بعيداً ، ولكن بعد أن ناده محمداً لم يأت ولم يتحرك وهنا قال محمد لهم : «إذا كان الجبل لم يأت إلى محمد فإن محمد سيذهب إلى الجبل» واننى أتساءل كيف يمكن لرجل يدعى أنه يقيم أساس النهج التجربى وقواعدة أن يعتقد في حقيقة تلك الفرية المختلفة! وللأسف فإن بعض السفهاء يرددون تلك الأسطورة حتى يومنا هذا.

١٨ - هوجو دوجروت (وهو باللاتينية ادو جروتيوس) وهو الكاتب الشهير للرسالة المسماة (قانون الحرب والسلام) ، امستردام (١٦٣٠) ، وقد كتب أيضاً «رسالة عن حقيقة الدين المسيحى » باللاتينية وقد ظهرت عام (١٦٢٧) ، وقد حاول في الكتاب السابع أن يدحض الإسلام ويثبت « تميز الدين المسيحى على دين محمد » على حد قوله . وما يهمنا هنا هو التصور الخاطئ الذى يبدو لديه عن الإسلام وعن محمد ، وهذا أهم ما قاله في هذا الصدد :

١ - يزعم أن محمداً قال . « أنه جاء ليتبعه الناس ليس بسلطان معجزاته ولكن بقوة جحافله (١) (ص ٢٩٦) .

٢ - من بين المعجزات التي يلتحقها أتباع محمد به ، يزعم أن محمداً روض حمامه لتطير إلى ذنه (السابق) كما يقول جروت أيضاً « وقد روى أنه كان على اتصال دائم ببعير في الليل » ومعجزة أخرى ، يقول أتباعه : أن جزءاً من القمر خسف بشكل معجز ، ثم أعاده محمد إلى استدارته الكاملة (السابق) .

٣ - إذا كان محمد قد حاز الشهرة فإنه ، كما يقول جروت - قد اشتهر بسرقاته واغتصباته وفواحشه (ص ٢٩٥) .

٤ - يزعم أن محمداً يقول أن « امرأة حبها الطبيعة بميزات تسمع - نشيداً رائعاً يعلمها سراً معجزاً عن الصعود إلى السماء والتزول منها ، وأن هذه المرأة

(١) رسالة عن حقيقة الدين المسيحى مترجمة عن اللاتينية ، تأليف جروفيوس ، مع تعلقيات ، الترجمة الفرنسية - باريس (١٧٢٤) ، وهذه هي الطبعة التى أشرنا إليها ، وقد ترجم الكتاب إلى ثلاث عشرة لغة ومنها ترجمة إلى العربية ترجمها « بوكوك »

حين سمعت كلمات هذا التشيد أرادت أن تبوج بما تعلمته فطارت رأسها إلى السماء وأوقفها الله وحولها إلى نجم وأنها هي نفسها « فينيوس » ربة الجمال ، كما يزعم جروت أيضاً أن محمداً يقول : « أن فاراً ولد في سفينة نوح من أثني الفيل وأن هرآ ولد من نفحة أسد » (ص ٣٥٠) .

٥ - كما يزعم أن القرآن يقول : « أن الموت سيتحول إلى حمل سيختار مكان إقامته بين السماء والأرض (ص ٢٣٠٩) .

٦ - كما يصف دين محمد هكذا « إن هذا الدين لم يأت إلا ليخضب الأرض بدماء مخالفيه ، وأنه دين خارجي ، قائم على عدد كبير من الطقوس ، كما أنه يفرض على الناس إتباعه ، كما يجب الخضوع له بطاعة عمياً ودون مناقشة . وأن الكتب التي تحتوى على الإسلام هي كتب مقدسة . وقراءتها محظمة على الشعب ، وهذا التحرير ليس عادلاً كما أنه يصيب بالشك المبرر في أنه يخفي نظاماً متعمضاً يمكن أن تكشفه القراءة في كتبه » (ص ٢٨٩) .

وهذه هي بعض الأكاذيب المضحكه التي ساقها هذا الرجل الذي يعد من أعظم العقليات في أوروبا وقد مدحه « ليني » في كتابه « المذهب الذي لا يقارن » ، وكذلك « ببير بايل » في كتابه « القاموس التاريخي والنقدي » وقد رأى فيه واحداً من أعظم الرجال في أوروبا كما مدح آخرون أعماله القانونية التي غيرت لفترة طويلة القانون الدولي كما يقولون : لفنـد بدورنا هذا الإدعاء « بتفنيـد ودحض الإسلام » :

أولاً - في أي قرآن قرأ هرجو جروت أن الموت سيتحول إلى حمل يختار مكانه بين السماء والأرض ، مع أن القرآن كان قد ترجم إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر ولا يوجد شيء من ذلك في الترجمة اللاتينية . إذاً لقد كان جروت كاذباً كبيراً ورجلًا مجرداً من أي ضمير علمي .

ثانياً - بأى هلوسة يلوم جروت على الإسلام ما هو لوم على المسيحية الكاثوليكية ، وهو أن قراءة القرآن محظمة على المسلمين ، (إلا يعلم أن قراءة القرآن حتى حفظه عن ظهر قلب مفروضة على كل مسلم ومسلمة) .

ثالثاً - إنه يردد آلياً أسطورة اليمامة التي روضها محمد لتهدل عن أذنه حال الصراع .

رابعاً - أنه يرث أكاذيب أسلافه حين يخترع أساطير أخرى : مثل أسطورة البعير الذى كان محمد معتقداً على محادثه ، والقمر الذى سقط جزء منه فى يد محمد ثم أرسله محمد « ليعيد القمر إلى استدارته » ونخص بالذكر أسطورة المرأة التى انتقلت إلى السماء ثم أوقفها الله لتصير نجماً هو فينوس .

أما عن القول بأن « هوجو دوجروت » هو أحد أعظم الناس فى أوروبا » فهو أعظم من وصل إلى الغباء المطلق أو الخيانة العلمية المطلقة ، ولذلك يجب أن تقلب الأحكام التقريرية الصادرة فى حقه إلى التفليس . وإذا بحث أحد له عن عذر قائلاً أن المعرفة بالإسلام لم تكن مجال دراسته فإنهن سارد عليه بقولى : «لماذا إذن يهاجم الإسلام إذا كان لا يعلم عنه شيئاً ؟

لأنه لا يمكن لأى شخص أن يدحض شيئاً وهو يجهله تماماً .

١٩ - وندخل مع « يوهان هنريكوس » إلى حقبة جديدة فى الروايات المخصصة لمحمد والإسلام حيث سيكون اللجوء غالباً إلى المصادر الإسلامية ، وستكون وجهات نظر الكتاب أكثر مطابقة للأحداث التاريخية مع السماح ب تمام سباب محمد ودينه فى الموضوع .

وقد ألف « هوتنجر » كتاباً بعنوان « تاريخ الشرقيين والآثار الشرقية » (زيورخ، ١٦٥١ ، ٣٧٣ صفحة + إشارات فى ٢٦ صفحة) وهذا الكتاب يحتوى على ٦ فصول .

- الفصل الأول : عن دين محمد ومحمد ؛ أسلافه ، آبائه ، وطنه ، مسقط رأسه ، تربيته ، ما قبل بعثته ، أعدائه ، عقائده ، هجرته ، معاركه ، خلفاؤه ، موته .

- الفصل الثاني : السارينية ، أو دين العرب القدماء .

- الفصل الثالث : الكلدانية ، أو انحراف النبطيين ، والكلدانين والحرانين .
الخ.

- الفصل الرابع : حالة النصارى واليهود فى زمن ومكان ظهور الإسلام .

- الفصل الخامس : الفرق الإسلامية المتعددة والمذاهب المختلفة بين المسلمين حسب العقائد الدينية وأنظمة الحكم .

- الفصل السادس : تاريخ البشرية من خلال الأعمال العربية ، سير وقصص حياة الأنبياء والبطارقة والرسل وملكة فارس وأحداث أخرى من لدن آدم وحتى محمد .

وكما لاحظ « سنوك هورجنزوج » فإن « هوتنجر » لم يعتقد أنه يمكنه نشر عرض للدين المحمدى دون أن يستعرض طويلاً في مقدمته الظروف المخفة . وقد عد نفسه محظوظاً إذا استطاع أن يذكر الشخصيات المشهورة التي لم تكن تقتصر في إلقاء نظرة سريعة على موضوع كهذا . كما أنه أظهر الحاجة إلى تبرير أفعاله حين نسب نفسه إلى علماء عصره الذين شجعواه في مشروعه . كما أن هوتنجر ذكر خطاباً آخر « ل - س - لامبرير » ، الأستاذ بجامعة ليدن وفيه وصف « برتنجر » بأنه « أفسد دين المسيح » حين ساعد الشباب على التأمل في دراساته حول دين المحمديين الذي كان حتى ذلك الحين يتم تناوله بشكل آخر . وكان لامبرير يأمل بصفة خاصة أن يستخلص من تلك الدراسات مهارة الكتابات المسيحية بفضل المعرفة الواسعة لعادات وتصرفات الشرق . كما كان « هو تنجر » نفسه قد حقق ليس فقط نجاحات تأويلية ولكن أيضاً دفاعية وكذلك خاصة بالتاريخ العام . وقد تابع في كتابه « تاريخ الشرق » غایتين آخرين وهما تاريخ الكاثوليك الرومان وصراعهم ضد البروتستانت محاولاً أحياناً التشكيك في مذهب الإصلاح (البروتستانت) وذلك بمقارنته بمذهب المسلمين ، فكان يلوم البروتستانت واصفاً إياهم بأن مذهبهم « مستعار من الإسلام » وذلك برد الحجة من باب الثأر للكاثوليك كما أنه كرس فصلاً كاملاً لتوضيح كيف أن الحج التي ساقها « بلا مان » للدفاع عن مذهب الكنيسة كانت صورة من المنظومة العقائدية الإسلامية ، وعلى صعيد آخر وبسبب علامات الزمن فإنه لم يرد أن يزيد مما قاله القدماء وقد ساهم « بيلياندر » بكتابه « دحض القرآن » في مهاجمة « محمد الكاذب وحكم الأتراك » وقد كان اسم الترك في ذلك الوقت في أوروبا يشير الرعب - وقد كانوا يعلمون ما يمثله الدين في الحفاظ على قوة الأتراك في ذلك الوقت : وقد احتل الجانب السياسي اهتماماً كبيراً حيث كان محور الدائرة في أعمال هوتنجر فجذب كثيراً من القراء . وعلى كل فإننا لا نجد في ذلك العمل ولا حتى في روايته عن محمد الخطوط العريضة لما يمكن أن نقول عنه ما قال عالم من أنه يعرض بجدية ل المجال من الدراسة يعتبره أغليبية أقرانه عديم القائدة أو مليء

بالبعث . وفي كل مرة يتكلّم فيها خاصة حين يجد نفسه مضطراً أن يقول كلاماً طيباً في حق محمد وأتباعه فإن « هوتنجر » كان يحمي نفسه ضد العقبات التي يمكن أن تنتهي به إلى سلسلة من المضايقات والإهانات ولذلك فإنه لم يذكر اسم (النبي الكاذب) دون أن يضيف إليه سيلًا من التعبيرات اللاذعة . ويحدد « هوتنجر » أسماء بعض الذين سبقوه في هذا المجال ومنهم :

- في سويسرا : بالنجر ، وأو بورنيوس ، وجاست .
- في ألمانيا : لوثر ، ميلانشتون شتيمنيوس ، وبوسر .
- في بلجيكا : چيب ، فومتيوس ، أدبنيوس ، ولووفيروس دوديو ولكن له لم يذكر عنهم سوى أسمائهم بينما تحدث باستفاضة عن « هنرييكوس بالنجر » (١٥٠٤ - ١٥٧٥) الذي كتب كتاباً صغيراً عن دين الأتراك » و « أوز والد ميكونيوس » و « تيودور بيلياندر » و « جوالتروس » و « هوسبيتنا نيوس » و « كلاوزروس » كما حدد من بين المعاصرين أسماء « هنرييكوس ألتنج » و « ليد » و « فريديرييكوس سبانهمل » وقسطنطية الامبراطور .

الكتاب الأول

وفي الكتاب الأول يناقش « هوتنجر » في الفصل الأول ما يلى .
أسماء المسلمين (وفيه يتحدث عن المؤمنين وال المسلمين أهل القبلة وأهل السنة وأهل الكتاب وأمة محمد ثم الشرقيين والمهاجرين وأمة إسماعيل ، وكان يكتب هذه الأسماء بالعربية ولكن بسمات عربية كما سيكون دائمًا في هذا الكتاب في كل مرة يكتب فيها نصاً عربياً (انظر ص ١٩) .

- ٢ - ثم يتناول « أصل و مرادف اسم محمد وأحمد (ص ١٢٥) .
- ٣ - شجرة عائلة محمد ، وهذا فصل طويل من (ص ١٢) إلى (١٣٣)
- ٤ - آباء محمد (ص ١٣٤ - ١٣٧)
- ٥ - وطن محمد (ص ١٣٨ - ١٤٤) .
- ٦ - مسقط رأس محمد (١٤٥ - ١٥١) .
- ٧ - دين القرشين والعرب القدامى قبل الإسلام (١٥١ - ١٦٢) .
- ٨ - دين الصابئة والبيزنطيين والعرب القدامى الآخرين (١٦٢ - ٢٠٣)

الكتاب الثاني

وها هي الفصول التي يحتويها هذا الكتاب :

- ١ - تربية محمد : ورحلته إلى الشام ، وظهور دعوته ، زواجه ، كتابه (ص ٢٠٤ - ٢١١).
- ٢ - حالة النصارى واليهود في جزيرة العرب زمن محمد (ص ٢١٢ - ٢٢٨).
- ٣ - نبوة محمد المستعارة ، البداية ، المنهج ، المعتقدات ، الصحابة الأول ، الأعداء (ص ٢٣٩ - ٢٦٠).
- ٤ - الهجرة (ص ٢٦٠ - ٢٧٣).
- ٥ - أسباب بقاء الإسلام (ص ٢٧٤ - ٣٣٩).
- ٦ - الآراء المختلفة ، والشعائر المنشقة والهرطقة عند المسلمين (ص ٣٤٠ - ٣٧٣).

ويعتمد هو تجدر على المصادر العربية الآتية :

- (أ) البيضاوى - تفسير القرآن .
- (ب) الزمخشري - تفسير القرآن .
- (ج) محمد بن أبي بكر - الأربعين حديثاً النووية .
- (د) كتاب الرسالة .
- (هـ) أبي النصر بن عبد الرحمن .

- (و) أحمد بن إدريس القرافي الأجوية الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة .
- (ز) ابن خلkan - وفيات الأعيان (ذكره ص ٣٤٢ - ٣٥٢ : ٣ ، ٣٥٢ : ٣ (*)).
- (ح) الميمونى - دلالات الحائرين (ذكر ص ٣٢٤ - ٣٤٨ : ٦ - ٩) .
- (ط) أحمد بن عرب شاه : چاب المقدور في تاريخ تيمور (ذكر ص ٣٥١).
- (ى) محمد ابن إسحاق (ابن النديم) الفهرست ذكر (ص ٣٦١ ، ٣٦٣) .
- (ك) القسوى (ص ٢٦٣) .

ولكن مرجعه الأصلى هو : كتاب المجمع المبارك « مؤلفه » جرجس بن أبي اليسير ابن أبي المكارم المكين ابن العميد (ولد في القاهرة ٦٠٢ هـ ١٢٠٥ م) وتوفى في دمشق ١٧٢ هـ - ١٢٧٣). وهو قبطي مصرى . وكتابه هذا تاريخ عالمي في جزئين :

الأول - منذ بدء الخلية وحتى عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م . وقد نشر منه «هوتنجر» مقتطفات من الجزء الأول في *Smega Orientalis* وقد ترجمه إلى اللاتينية ونشره «توماس أريبيوس» تحت عنوان «تاريخ العرب»

وقد ترجم :

- إلى الإنجليزية ، ترجمه س بورتشاس *Purchas* لندن (١٦٢٦) .

- وترجمة إلى الفرنسية ، بير فاتيه *Vattier* تحت عنوان (التاريخ المحمدي أو تسع وأربعون سنة من الخلافة في المدينة) باريس (١٦٥٧) .

ومع ذلك فإن «هوتنجر» يذكر النص العربي مباشرة (ولكن بسمات عبرية دائمًا) وقد يذكر أحياناً ترجمة «أريبيوس» اللاتينية وكما حدث مثلاً ص ٢٥ .

ولم يستند «هوتنجر» من كتاب جرجس المكين إلا في الجزء التاريخي ولكنه استفاد أيضاً في الفصل الذي كرسه لما أسماه «الأراء المختلفة والملل والنحل عند المسلمين» (ص ٣٤٠ - ٣٧٣) .

ويذكر «هوتنجر» القرآن مشفوعاً بتفسير البيضاوي كثيراً وأحياناً مشفوعاً بتفسير الزمخشري وذلك بصورة متكررة وبعد كل استشهاد يذكر الترجمة اللاتينية وهي صحيحة في مجملها ويدافع من توفره على المصادر العربية فإن «هوتنجر» لمن للمرة الأولى حياة محمد وأعماله بروح جديدة .

١ - فقد تراجعت بشكل ملحوظ أسطورة محمد التي تكونت في أوروبا على مدار سبعة قرون ليحل محلها مفهوم أكثر تطابقاً مع الواقع التاريخية .

٢ - مثلاً ، يكفي أن نذكر اللقاء بين بحيري ومحمد حسبياً يذكر أحمد بن إدريس حيث يورد «هوتنجر» كلامه بالعربية ويتبعه بترجمة لاتينية دون أدنى تعليق . ويذكر ما أورده أريبيوس باللغة العربية (ص ٤٥) وهو أن محمداً لم يذهب مطلقاً إلى الشام وهذا عكس ما أثبتته الكتاب الأوليون وذلك يعني أن

(*) انظر حول هذا الكتاب بروكلمان (١ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦) : جورдан : السيرة العالمية (١٣ ، ٤٢ ،) فستفليد : التاريخ .. (ص ٣٥١) ، ويوجد من هذا الكتاب حوالي عشرة مخطوطات بالعربية أشار إليها بروكلمان (ص ٤٢٦) وسويل (ص ٥٩٠) والصفحات مجرد مثال فقط .

هوتنجر لم يعر اهتماماً كبيراً لواقعه اللقاء بين بحيري ومحمد والتي اتخذ منها الكتاب الأوروبيون قاعدة لتفريق كثير من الأساطير .

٣ - كما ناقش بالتفصيل العجزات المسندة إلى محمد (ص ٢٩١ ، ٣٠٣) ولكنه قال في نهاية هذا القسم أنه بالنسبة لمحمد ليس هناك معجزة سوى القرآن وهذا ساق من سورة الرعد قوله تعالى : « قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ، ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلام به الموتى بل الله الأمر جميماً » الرعد آيات ٣٠ - ٣١) ثم يسوق تفسير البيضاوي مصدرأً به الآية . ويريد « هوتنجر » بذلك تحديد دور العجزات المسندة إلى محمد من قبل الكتاب المسلمين . ويدرك من بينهم على الأخص « أحمد بن إدريس القرافي » (توفي في جمادى الآخرة ٦٨٤ / ١٢٨٥) وهو صاحب كتاب شهير تحت عنوان « كتاب الأجرة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة » وهو رد على كتاب بولس الراهب الذي كان مطراناً لكنيسة صيدا (لبنان) كتب فريتسن بعنوان (الإسلام والمسيحية في الميزان (ص ٢٠ - ٢١) يصف كتاب القرافي بأنه «أفضل دفاع عن الإسلام وأنه يمتاز بوفرة مادته العلمية وأرائه البلية وعرضه الدقيق » (١) .

٤ - ييدو « هوتنجر » ذا نظرية علمية فيما يتعلق بالإسلام من منظور المسيحية واليهودية بالأخص . ومع ذلك . فإنه لم يستند من تلك النظرة العلمية في البحث في الدعاوى التي يسوقها محمد ضد هذين الدينين كما سيفعله كتاب أوربيون آخرون في القرن التاسع عشر .

٥ - والفصل الخامس من الكتاب الثاني (ص ٢٧٤ - ٣٣٩) فصل مثير للنضول ويستحق التحليل والدراسة العميقه المتخصصة . وعنوانه له « الأسباب التي أدت إلى بقاء الإسلام » وهو في نفس الوقت دحض للأعمال الجدلية للكاردينال « بلaman » (١٥٤٢ - ١٦٢٢) ، وكان مطراناً وأحد أعظم علماء اللاهوت المدافعين عن المسيحية وباعتباره محاوراً فقد كان أحد العلماء المهرة المدافعين عن الكنيسة الرومانية وذلك في كتابه (معجم أصول الدين الكاثوليكية)

(١) طبع على هامش كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق » لسليم باشا غازاده ، القاهرة (١٣٢٢) انظر : بروكلمان . وذلك بالنسبة للمخطوطات المتعددة بمكتبات أوربا .

٢ ، ٥٦٠ ، وقد ألقى محاضرات بالمدرسة الرومانية من (١٥٧٦ إلى ١٥٨٨) ظهرت في ٣ مجلدات أول مرة في المجلوشتات (١٥٨٦ ، ١٥٩٣) ، ثم في ثلاثة مجلدات في (البندقية) ، وهو يدافع في المجلد الأول عن القضايا الخطيرة التي كانت قضايا الساعة وقتها من سلطة البابا إلى الجانب الروحي والزمني كما دخل في كثير من المحاديرات مع زعماء الإصلاح البروتستانت .

وكما فعل « بلامان » فإن « هوتنجر » أورد في الفصل الخامس (الكتاب الثاني) مشيراً إلى أن الحجج التي ساقها « بلامان » ليدعم السلطة الزمنية كانت هي إن لم نقل أنها متتحلة من تلك التي ساقها المسلمون . وهو يعتمد بالأخص على الكتاب الذي ذكره « بلامان » المعاورة ، الكتاب الرابع ، الفصل الرابع ، وهذه هي أوجه الشبه التي كشف عنها بين البابا من جهة والإسلام من جهة ثانية:

١ - سلطة البابا شبيهة بسلطة الخلفاء المسلمين (أمراء المسلمين) .

٢ - البابا يعتمد على الآثار البابوية ليدعم مطالبته بالسلطة الزمنية ، ولكن كما يرد « هوتنجر » فإن المسلمين يستطيعون أن ينتصروا ليس فقط بالموروث ولكن أيضاً بامتدادهم العظيم في المعمورة .

٣ - والحججة الثالثة التي ساقها « بلامان » هي الاستمرارية غير المنقطعة «للبابوية» . ويقول « هوتنجر » : إن الإسلام يمكن أن ينتصر أيضاً على هذه الحجة . لأنه يستمر دائماً وولا انقطاع منذ ألف سنة .

٤ - والحججة الرابعة عند « بلامان » هي تعدد وتنوع المؤمنين ويرد « هوتنجر » أن للإسلام في هذا الصدد رأى أكثر تقدماً من الكنيسة الكاثوليكية . وقد أسهب في رأيه في هذا الصدد . وهذه عينة من دحض المزاعم البابوية التي دافع عنها « بلامان » وهو دحض قائم على مثال الإسلام . وهكذا ظهر الإسلام على يد بروتستانتي هو « هوتنجر » ليدين الكاثوليكية التي دافع عنها الكاردينال « بلامان » ، وهكذا يهدف « هوتنجر » إلى دحض الاتهامات التي ساقها الكاثوليك ضد البروتستانت وهي أن الإصلاح الذي قام به « مارتن لوثر » وأعوانه قد تأثر بالإسلام إن لم يكن هرطقه إسلامية داخل المسيحية نفسها (١) .

(١) ولد في (١٦٤٨) في بادستو، ضاحية كرومobil (في المجلنرا) وكان أستاذًا للعبرية =

٦ - وقد خصص الفصل السادس من الكتاب الثاني (ص ٣٤٠ - ٣٧٣) للدراسة :

(أ) المدارس الفقهية الخمسة - الأحناف - المالكية - الشافعية - الحنابلة والشمرانية والتى لم يذكر منها سوى اسمها .

وقد اقتبس معلوماته هنا من : ١ - المكين . ٢ - ابن خلkan .

(ب) الانشقاق بين العلماء الأتراك .

(ج) الخلاف بين الفرس وبقية المسلمين . وهذا قسم كبير منصب على مذهب الشيعة (ص ٣٦٦ - ٣٧٣) .

(د) فيما يخص القسم المخصص للمذاهب الفقهية ، يعتمد اعتماداً أساسياً على كتاب موسى الميموني « دلالات الحائرين » (الجزء الأول ، الفصل ٧١) وتاريخ المكين .

ويكفى هنا الحديث عن كتاب « هوتنجر » وقد بوأناه مكاناً علمياً يليق به لأنه يمثل تحولاً جذرياً في الدراسات الأوروبية عن محمد والإسلام بصفة عامة . ومنذ ظهور هذا الكتاب .

والكتاب الجادين عن الإسلام سيجدون من واجهم الاطلاع على المصادر العربية إن أرادوا أن يظهروا أقل تطرفاً في أحکامهم وسيفكرون قليلاً قبل أن يسوقوا الأساطير والأكاذيب التي لفّقها أسلافهم البيزنطيون والأوربيون .

٢٠ - وأول الكتاب الذين ينبغي متابعة أعمالهم ولا سيما أنه يتبع المنهج الذي كان « هوتنجر » باكورته هو : « هامفري بريدو » في كتابه بعنوان (حسب الترجمة الفرنسية) « حياة محمد المخادع » وفيه جمع كتاباً عرباً وفرساً وعبرين وكاثوليك ويونانيين ولاتين مع ملخص تاريخي يوضح العصر الذي ولدوا فيه وعاشوا وأصل وسمات كتاباتهم (باريس ١٦٩٩) ويصف المترجم الفرنسي (الذى لم يذكر اسمه لا في صفحة العنوان ولا حتى في نهاية المقدمة) الكاتب وهدفه بأنه « الدكتور بريدو ، العالم الكبير في اللغات الشرقية وهو معروف سلفاً بطبعه

= في الكنيسة المسيحية بأكسفورد ، توفي عام ١٧٢٤) ، وظهر كتابه « حياة محمد » أول الأمر بالإنجليزية عام (١٦٩٧) .

المذكرات الغربية . وكان يهدف إلى هدفين مختلفين من وراء تأليف هذا العمل الأول هو القيام بعمل تاريخي دقيق للإسلام والطريقة التي تأسس بها في العالم دون أن يخلط بها التاريخ أياً من الأشياء العاطفية أو الأحكام المسبقة التي انتشرت من قبل المشككين في هذا المنهج . والثاني هو الاستفادة من ذلك بالوصول إلى غاية عاقلة ومسجية وذلك بعرض قصة حياة ذلك الكاذب المسمى محمد بما يفيد ذلك الهدف الثاني وهو الحالة التي كان يوجد عليها الدين المسيحي في إنجلترا حيث التعددية الكريمة للآلهة والتي انتشرت لوقت طويل ولذلك كتب بنفس الاندفاع الذي كان عند كل من « سلز » و « بروفير » و « هيروكليس » و « جولييان » والذين كانوا يعملون بترخيص من الأباطرة الوثنيين تحت إمرتهم (ص ١ - ٣) .

ويقول المترجم أيضاً : « إن بريدو قد كتب حياة محمد بكثير من الدقة لم يسبقه إليها أحد فقد ذكر كل الظروف التي تكتف سلطة الكتاب من جميع الأسم وقد ذكر هذه الظروف على الهاشم واعترف أن هذه الطريقة في كتابة التاريخ لم تكن معروفة لدى الأغلبية الساحقة من القدماء ولكنها أصبحت ضرورية في هذا العصر حيث جهل وانعدام أمانة كثير من المؤرخين قد خدعت دوى النبات الحسنة من القراء الذين يمكن أن يطلبوا اليوم عن طيب خاطر ضماناً برجوازياً من أولئك الذين يدعون أنهم مؤرخون . ولم يحيد بريدو دفته على هذين الصعدين فقط بل أنه أراد أن يمدها ويوسعاها من أجل أولئك الذين سيقرأون كتابه حتى أنه عرفهم على عقريه وشخصية المؤلفين الذين استفاد منهم في حكاياته وذلك بإعطائنا رسماً توضيحيًّا مختصراً عن كتاباتهم مع حكمة الشخص في تصنيف ما يجب تصنيفه (ص ٦ - ٨) .

وهذه قائمة بكتاب العرب المذكورين عند بريدو

- ١ - أبو فرج بن العبرى : تاريخ مختصر الدول - صدر في إكسفورد (١٦٦٣) مع ط لاتينيَّ الفها بوكوك
- ٢ - أبو الفداء : مختصر تاريخ الأمم
- ٣ - أبو نصر بن عبد الرحمن وقد ذكره هو تاجر كثيراً وقد كان أحد مؤلفي الأساطير عند العرب

٤ - أحمد بن إدريس القرافي : الأرجوحة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة .

٥ - أحمد بن يوسف « مؤرخ من عصر الأضمحلال أنهى كتابة تاريخه عام (١٥٩٩) .

٦ - أحمد بن زين العابدين الأصفهانى « وقد كتب يهاجم الدين المسيحى بهدف الدفاع عن الإسلام واحداً من كتبه الروحانية والحقيقة التي لم يكتب أحد بمثل طريقتها ، وقد كلفت أبرشية الدعائية الإمامية في روما بداية بونافيتير البولندي وهو راهب فرنسيسكاني بكتابه رد على كتاب أحمد بن زين العابدين وقد كتب هذا الرد ونشره في عام (١٦٢٨) ولكن لأن هذا الرد لم يكن كافياً فإن نفس الجمعية كلفت فيليب جواد جنل (Guadagnol) وهو فرنسيسكاني أيضاً بكتابه رد آخر فكتب كتاباً بعنوان تقرير الديانة المسيحية ظهر أولاً في روما عام (١٦٣١) ثم ظهر بالعربية عام (١٦٣٧) وقد كانت معظم الحجج التي ساقها جواد جنل قائمة على سلطة البابوات والقناصل وهي سلطة لم يكن المسلمين يعرفونها وحتى « بريدو » يقول : ألم يكن من المخيف أن هذا العمل الجيد في حد ذاته لم يلق النجاح الذي كان يومنا من ورائه (انظر السابق ص ٢٧٣) .

٧ - البخاري : الصحيح « وهو أقدم الكتب وأصح الكتب لدى المسلمين بعد القرآن » (ص ٢٧٣) ج ٤ .

٨ - الفرغانى ، عالم الفلك : كتاب « عناصر الفلك » وقد طبع مرات عديدة في أوروبا في كل من نورمبرج عام (١٥٣٧) وفي باريس عام (١٥٤٦) وطبع في فرنكفورت عام (١٥٩٠) مع ملاحظات « مكرست متن » وأخيراً في ليدن عام (١٦٦٩) وبالعربية واللاتينية طبعة جوليis ، انظر السابق (ص ٢٧٥) .

٩ - أبو حامد الغزالى الطوسي : تهافت الفلاسفة .

١٠ - أبو محمد مصطفى بن السيد حسان الجبائى وقد امتد تاريخه إلى عام (١٥٨٨) .

١١ - الفيروزبادى : القاموس المحيط .

١٢ - القضاوى (أبو عبد الله محمد بن سلمة بن جعفر القضاوى) : مؤرخ .

١٣ - المسعودى : مروج الذهب .

١٤ - الإيشيهى : المستطرف (ويقول « بريدو » أن هذا اسم كتاب عربى ألفه كاتب ييدو أن هذا اسمه) .

١٥ - المطرزى : المغرب .

١٦ - الشمايل « وهو كتاب كان كل من « جان أندريه » « وجoad جنل » يذكرونـه كثيراً » (ص ٢٨٢) .

١٧ - البيضاوى : تفسير القرآن (وأكثر ما هو جيد من تفسير في هذا الكتاب مأخوذ عن الزمخشري .

١٨ - القزوينى .

١٩ - « الحوار بين محمد وعبد الله بن سلام وقد كتب بالعربية ويحتوى على جانب كبير من المبالغات عن عقيدته في شكل حوار بينه وبين هذا اليهودي وهو الوزير الأساسي لـ محمد والمستشار له مع أكاذيبه وكان « هرمانوس دالاماـتا » هو أول من ترجمه إلى اللاتينية وتبعه بطبعه القرآن باللاتينية كان بيلياندر كان قد نشرها في القرن الماضي (انظر السابق ٢٨٣ - ٤) .

٢٠ - المكين ، جرجيوس بن العميد : المجموع المبارك .

٢١ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد) : تاريخ (وتاريخه يبدأ من بدأ الخليقة وينتهي عام ١٢٣٠) .

٢٢ - ابن القسيع وهو مؤلف كتاب بعنوان تعريفات وهو مدونة لكثير من المصطلحات العربية التي تهم الفلاسفة والفقهاء وعلماء أصول الدين وكل العلماء العرب بصفة عامة (٢٨٦) .

ولكن كتاب التعريفات ليس لـ ابن القسيع ولكنه لـ محمد بن على الجرجانى .

٢٣ - ابن فارس وقد توفي عام ١٠٠٠ .

٢٤ - يوطشيوس : وهو مسيحي من الملكانيين كان يسمى في لغته سعيد بن البطريق وقد أخذ أسم يوطشيوس حين أصبح بطريك للأسكندرية عام ٩٣٣ « وكانت حولياته عن كنيسة الأسكندرية قد نشرت في إسفورد عام ١٦٥٦ بالعربية واللاتينية تحت رعاية د/ بوكوك .

٢٥ - « الكتاب العربي الذي يتناول ميلاد ونشأة محمد وهو كتاب ساخر وعديم القيمة ومع ذلك فقد ترجم إلى اللاتينية من جانب هرمانوس دالاماـتا وطبع مصحوباً بـ ترجمة القرآن باللاتينية لـ بيلياندر » (ص ٢٩٠) .

٢٦ - « الكتاب المسمى الجغرافيا النوبية وهذا الكتاب يحمل اسم سبونيتا

وهسرونيتا اللذين نشراه باللاتينية مع ملحق جغرافي عام (١٦١٦) ولكن هذا العمل ليس إلا مختصرأ من عمل كبير ورائع ألفه الشريف الإدريسي بناء على أمر روجر الثاني ملك صقلية ليساعد في معرفة الخريطة التي كان هذا الأمير قد وضعها من الفضة وقد أنهى الكاتب هذا العمل عام (١١٥٣) وأسماه كتاب روجر (ص ٢٩١).

٢٧ - جرجس الراهب وكان آباء في دير سان سيمون وقد كتب كتاباً يدافع فيه عن الدين المسيحي ضد المسلمين واستغل لنشره فرصة صراع مع ثلاثة من المسلمين كان أبرز محاوريه هو أبو سلامة بن سعد الموصلى .

٢٨ - الجوهرى : « وهو تركى المولد وهو مؤلف القاموس العربى الشهير المسمى الصلاح .

٢٩ - الجلالين : جلال الدين محمد بن أحمد المحلى (توفى ١٤٦٦) وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى . ويرتكب « بريدو» هنا خطأ شنعوا حين يقول : « هذا الأخير هو أيضاً مؤلف تاريخ معروف بعنوان مزهر (ص ٢٩٣) ، لأن المزهر هو كتاب في قواعد اللغة العربية وليس كتاب تاريخ ، ولكن للسيوطى كتاب في التاريخ: هو حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - وتاريخ الخلفاء

٣٠ - الشهستانى ، وهو كاتب مدرسى مسلم الديانة ولد في شهرستان في عام (١٠٧٤) وتوفي عام (١١٥٤) .

٣١ - صفى الدين : « وهو كاتب معجم جغرافي كتب بالعربية » .

٣٢ - الزمخشري : الكشاف .

ولكن يجب أن نلاحظ أن « بريدو » لم يطلع بالضرورة على كل هذه الكتب فقد نجده في مواضع أخرى يشعرنا - أنه لا يعرف بعض هذه الكتب أو المؤلفين إلا من خلال استشهادات يرويها عن كتاب آخرين حيث يقول مثلاً عند هوتنجر وهو ما يستخدمه كثيراً أو عند بوكوك : غوذج التاريخ العربى وهكذا .

أما عن الكتاب اليونانين فيذكر :

١ - بارتلوماش إديسنى Bartholomaci Edessenii وكتابه Conducatio Varia نشره لوموان وهو أستاذ في جامعة ليدن ضمن منشوراته : Sacra

٢ - كتاب كتنا كورين *Cantacuzene*. وهو يحتوى على ثمانية خطب. وقد كان كتناكوزين امبراطوراً للقسطنطينية ولكنه تنازل عن العرش عام (١٣٥٥) ليوحنا باليولوجوس ابن زوجته واعزل وترهين في أحد الأديرة . وفي هذا الدير ألف كتابه من أجل أحد أعضاء كنيسته ليrid به على سامباتس وهو فارسي من أصفهان .

٣ - سيدريني (*Cedreni*) وكتابه .. التاريخ المجمل .

٤ - لغط محمد (*Conjatatio Mohometis*) : وهي مقالة يونانية لكاتب باسم مستعار وهو : لوهوان في *Varia Sacra* .

٥ - تيوفانيس (*Théophanes*) : تاريخ وقائع الإمبراطورية الرومانية منذ عام (٢٨٥م) وحتى عام (٨٢٣م) ، وقد ولد في القسطنطينية عام (٧٥٨) وتوفي عام (٨١٥) .

٦ - زونار « التاريخ » ، وهو يشمل منذ بدء الخليقة وحتى موت أليكس كورين « امبراطور القسطنطينية الذي توفي عام (١١١٨) » .

وكتاب « بريدو » فيما يخص حياة محمد يعتبر أكثر تقيحاً من كتاب « هوتنجر » لأنه محدود بحياة محمد بينما يشمل كتاب هوتنجر كثيراً من المجالات . ولكن « بريدو » ويدافع من هدفه الأساسي وهو مهاجمة الإسلام يعد أكثر موضوعية إلى حد ما من هوتنجر ، هذا إذا كان من الجائز أن تطلق الموضوعية على أعمال هذين الكاتبين ! وفي هذا الصدد يظهر أن هناك تراجعاً في فهم الإسلام في أوروبا . وفي الواقع إن بريدو تطفع كتاباته بالأساطير والأكاذيب المثيرة للسخرية . ولنكشف بعضاً من هذه الأكاذيب .

(١) أنه يحكى أشياء خيالية فيما يتعلق بالشاعر كعب بن رهير الذي نظم القصيدة الشهيرة التي تبدأ ببيان سعاد فيزعم أن كعب كان يهودياً والأدهى من ذلك أنه يقول : « ينسب البعض إلى كعب منذ صداقته بمحمد أنه ساعد أكثر من أي شخص آخر في أكاذيب محمد وأنه ألف له القرآن الذي يتشابه مع فصاحة كعب ذلك اليهودي الملحد » . ومرجع « بريدو » في ذلك كتاب « المكين » الكتاب الأول ، الفصل الأول ، لأبي الفرج ابن العبرى (ص ١٠٢) .

(ب) ثم يسلم «بريدو» نفسه إلى أسطورة أخرى متعلقة هذه المرة بعد الله ابن سلام حيث يعتقد بما قاله الراهب ريشار في كتابه «دحض شريعة محمد» الفصل ١٣ وهو أن مهدياً كان جاهلاً فاستفاد من الوزير «عبد يابن سالون» وهو يهودي فارس أخذ في اللغة العربية اسمه عبد الله بن سلام (انظر السابق ص ٦٢) ويرعى أنه يبدو أنه الذي دار عنه حديث القرآن ثم يزعم بريدو أن عبد الله بن سلام هذا هو نفسه سلمان الفارسي الذي ذكره المكين ومن قبله البيضاوي في معرض تفسيره لقوله تعالى «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمهم بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعمى وهذا لسان عربي مبين» [النحل: ١٠٣] في الحقيقة لقد قال البيضاوي إن الرجل الأعمى الفارسي الذي تحدثت عنه الآية، هو سلمان الفارسي وهكذا خلط بريدو بين سلمان الفارسي وعبد الله بن سلام وزركش القصة حتى تبدو رواية صحيحة (انظر ص ٦٣ إلى ص ٦٦).

(ج) ونفس المبالغات والمهاترات تظهر في كتاب «بريدو» في معرض حديثه عن بحيري (ص ٦٨ إلى ٧٠) حيث يقول هنا مثلاً أن مهدياً استقبل بحيري في بيته بمكة بظاهر الحفاوة التي لا يتخيلها إنسان وأعطاه كل ما يحتاجه من مؤن وزاد ثم فتك به بعد ذلك لأنه خاف أن يأتي يوم وظهور سر لغز محمد وقد كان نجاحه يتوقف على هذا السر (ص ٦٩ - ٧٠).

وبالمقابل، يحمل «بريدو» على القصص الساخرة «التي اخترعها أسلافه ليكتب حسب قولهم كذب محمد. وقد عد منها ما يلى: «الثور الذي علمه محمد ليحمل إليه القرآن على قرونه في المحافل العامة، وتلك الأسطورة الخاصة بالحمامات الخاصة التي اعتادت أن تقترب من أذنه وقصص أخرى مشابهة يقول: «أشعر بالخجل من ذكرها بينما لم يشك كل من «سکالجر» أو «سيوبيا» أو «جروتیوس» في هذه الرواية التي تبدو لي أكثر سخرية من قصة الثور لا سيما بالنسبة لقوم دوى عقول دقة كما هي عادة العرب (ص ٧٢)

ويدين «بريدو» اللجوء إلى مثل تلك الأكاذيب التي وصفها بأنها «يتنازعها المسيحيون البسطاء ولكنهم متهمون بجهلهم حقيقة الحدث ولذلك يلجأون إلى الأكاذيب بداعي التقوى العمياء لأولئك الذين يبحثون عن أسلحة خيالية لهاجمة عدوهم (ص ٧٣)

وهذه أول مرة نجد حكماً كهذا على الأكاذيب التي اختلفها الكتاب الأوليون في موضوع محمد . وسوف نجد صدى لذلك عند « بايل » كما سرى فيما بعد .

وهناك سمة أخرى لكتاب « بريدو » وهى التى فتحت الطريق أمام محاولات من نفس النوع فى القرن التاسع عشر وهى البحث فى المقتبس من الأدب اليهودى والسيحى ، فقد حكى مثلاً بكثير من التفصيل رحلة إسراء محمد وسماها « مسرى » (ص ٧٨ - ٧٩) ثم أورد الملاحظة التالية « هذه القصة هي تقليد لقصة مقتبسة من التلمود الذى علم منه عبد الله بن سلام جزءاً لمحمد وغير من طريقتها أثناء القص حتى يخفى المصدر الذى امتنح منه . فى الواقع أنتا نقرأ أشياء مثل هذه فى التلمود البابلوبنى فى المقالة التى عنوانها « بافا بثرا » حيث هناك عصفور يسمى « نريج » كان يمشى على الأرض ومع ذلك يلمس الماء برأسه وكان بسبب امتداد جناحيه يتسبب فى كسوف القمر والشمس . والشرح الكلدانى على الإصلاح (٤ - ٨٠ و ١١ - ٥) تحدد اسم هذا العصفور حيث سمته « كوك » حيث قالت أن رأسه تسبح بحمد الله . وحتى شرح « جوب » يقول : أن هذا العصفور يغنى كل صباح فى حضرة الله الذى منحه حكمة رائعة ويكتننا أن نرى ما كتبه التلموديون فى حوالى الفصل الخمسين من ميثاق جمعية بوكتوروف Purches ، وفي الكتاب الثانى ، فصل ، من « حجج » برتشز Boxtorf الشاعر الإنجليزى المشهور .

وقد كان « بريدو » فى هذا المجال رائداً لإبراهام جايجر و « هير شفيلد » و « جولدتسيهر » و « سبير » وآخرون كثيرون سيكون أيضاً رائداً لكثير من المستشرقين فى القرنين التاسع عشر والعشرين فيما يخص كثيراً من وقائع حياة محمد مثل : غزوة بنى قريطة التى انتهت بالسيف فى أعقاب غزوة الخندق (ص ١٧٧ - ٢٣١ - ٢٣٣) واقعة زواج النبي بزینب بنت جحش (ص ٢٣١ - ٢٣٣) .

ومهما يكن من أمر فإن « بريدو » فى نهاية كتابه كان مضطراً حتى رغم أنفه وبمشاعر الأسى أن يعترف بالصفات السامية لمحمد وعظمة أعماله ، إنه يعترف أن محمداً طوال فترة بعثته النبوية « امتاز بشجاعته وفطنة عقله وعدم غروره بانتصاراته ، ويدرجة عالية من المجد مما أغراه بأن يكون له مكان بين أعظم الثوار الذين عرفهم العالم ، وقد أنشأ امبراطورية فى أربع وعشرين عاماً امتدت لتشمل

المناطق التي تحملها الإمبراطورية الرومانية لمدة خمسة مائة عام بل وأكثر منها وقد استمرت تلك المملكة الواسعة لقرون عديدة وهي في أوج عظمتها . وقد رأينا ميلاد كثير من الإمبراطوريات والمالك الإسلامية التي لا تقارن بغيرها في الامتداد والسيطرة لمدة طويلة . ولن أتحدث عن ممالك الترك والفرس والمغول وهذه المالك يحفظها الله بعاليته بينما يعاق بالمصاب والفوبيسي المسيحية » .

رولاند « أول كاتب أوربي يكون عادلاً مع محمد » :

ولكن أول كاتب أوربي ينظر بعين العدل إلى محمد والإسلام كان « أدريان رولاند » المولود في ١٧ يوليو (١٦٧٦) في « دالكمار » شمال هولندا المتوفى في ٥ فبراير (١٧١٨) في الثانية والأربعين من عمره « وقد كان عالماً متبحراً في معرفة اللغات الشرقية العربية والفارسية والملاوية . وقد كان على دراية تامة بالآثار اليونانية والرومانية . وبهمنا من أعماله هنا كتابه : عن دين محمد - أوترخت (١٩٠٥) ، وقد طبعه طبعة ثانية أكثر انتشاراً وقرنه بكثير من الرسوم التوضيحية . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية بعد موت رولاند في « لاهاي » ١١ / ١١ ، ترجمة « ديفيد دوران » وهذه الترجمة الرديئة لا تمس حقيقة النص الأصلي وهذا العبرى الذي أراد أن يحرف بالفرنسية عمل رولاند اقطع وجزء الجزء الأكبر من تعلقيات الكاتب كما قام بحذف الكثير من محتوى الكتاب معتقداً أنه سيعرض قراءه بالإضافات البزيئة لبعض الأشعار الفرنسية السيئة التي وضعها بطريقته وهذا السلوك كان سلوكاً مثيراً للسخرية وبأسلوب مشين أراد به أن يبرر الخدمات المهمة التي ظن أنه أسدتها إلى كتاب رولاند ولأنه المترجم لم يشر في هذا الصدد ولو بإشارة عابرة إلى المقطوعات التي أضافها إلى نصه والتي سوف تبهر سواد الشعب كما قال ولذلك اعتدنا على عرض الملاحظات التي لفتها في ترجمته (فنجده أنه هنا الذي يتكلم وليس المؤلف) وقد استعراض عن ملاحظات رولاند لأن كتاب رولاند لم يكن أبداً من هذا النوع من الكتب الذي لا يحتوى على أي شيء مفيد . وسوف نلاحظ إذاً أن كاتب هذه الترجمة قد الحق بها مقالة صغيرة بعنوان اعترافات عن عقيدة المسلمين وهذه المقالة قصيرة جداً ومؤخورة عن مخطوط لاتيني مترجم عن الأصل الأسباني ومكتوب بخط عربي (١) .

(١) سان مارتن : مقال في مجلة مشود : السيرة العالمية ج ٣٥ (ص ٣٩) ط باريس

ولينبرج

وهذا الحكم على الترجمة الفرنسية التي ظهرت في لاهى مطبعة إيزاك فيلانت عام (١٧٢١) هو حكم عادل ولا يفيد في شيء أن يحذرنا الكاتب الذي لم يذكر اسمه في هذه الترجمة في (ص ١٠) «أن هذه ليست ترجمة بالمعنى الدقيق وأنه حقاً أنت لم أغير شيئاً لا في الإهداء ولا في مقدمة رولاند في ما عدا بعض الأشياء التافهة والتي أوضحتها في الهاشم كما لم أغير فيه مقالة اعترافات عن العقيدة ولا في ملخص المذهب الحمدي ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد ملاحظات، وقد اقتطعت مطلقاً كل الأشياء التي يبدو أنها لا تخرج عن العربية والتي لم أفهمها ولن يفهمها أغلبية الذين قمت بالترجمة من أجلهم وقد فعلت ما هو أسوأ من ذلك - يا لها من جرأة من جانبي فلقد لفقت هنا بعض من ملاحظاتي على أنها من ملاحظات الكاتب وهذا سوف يبهر سواد الشعب كما أني لم أميز ملاحظاتي بأي إشارة ولا بأي حروف تدل على اسمى وكان بوسعي أن أفعل ذلك كما فعله الآخرون ولكن الطريقة التي اخترتها بدت لي مناسبة ومؤثرة وفي الحقيقة لم أعتقد أنه لا يجوز أن أقتطع شيئاً من ملخص المذهب الحمدي ليس فقط لأنه وصل إلينا عن طريق كاتب مسلم ماهر في دينه ولكن أيضاً لأن مقالته قصيرة جداً ومنهجية جداً بحيث يستحيل الاقتراب منها بالحذف أو التلخيص دون أن تفسد ولكن فيما يخص الملاحظات الموجودة في عمل السيد رولاند فأنا لم أخذ منها إلا ما بدا لي ضرورياً وشيقاً للقارئ الفرنسي وكان على أن أعرض هذا القارئ عن حذف ملاحظات من النقد الخالص بـ ملاحظات أخرى من عندي بدت لي أكثر سداً للحاجة » (ص ١٠ - ١٣) ولكن هذه التبريرات وغيرها كثير مما ذكره المترجم لا تساوى شيئاً ، فالمترجم ليس له الحق في أن يفعل ما فعله هذا المترجم ولن أركز كثيراً على هذه النقطة برغم أن كثيراً من المترجمين الأوربيين قدامى ومحدثين ومثلهم عرب أيضاً قد أفسدوا النصوص بهذه الجريمة الشعاء المخلجة .

وعنوان الكتاب هو عن الدين الحمدي وكتابه القرآن وخلاصة العقيدة الإسلامية من كتاب كتبه عالم مسلم مع أشعار لاتينية وتوضيحات ومناقشة المفاهيم الخاطئة عن محمد ودينه وبيته ط أولتريخت سنة ١٧٠٣ والكتاب يحتوى على (٢٧٢) صفحة .

وكما يوضح العنوان فإن الكتاب مقسم إلى جزئين الأول هو نشر خلاصة عقائد المسلمين كتبه كاتب مسلم وقد نشره رولاند عن مخطوط عربي ثم ترجمه إلى اللاتينية مع كثير من الملاحظات والتوضيحات - والجزء الثاني يناقش الآراء الفاسدة التي سادت في أوروبا في موضوع الإسلام وسنة النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - وقد حاول أن يصحح تلك المفاهيم الخاطئة بالرجوع إلى القرآن والسنة والكتاب المسلمين .

وقد ترجم الكتاب من الكتابة إلى اللاتينية على الطبعة الأولى ومن اللاتينية إلى الهولندية على الطبعة الثانية ومن اللاتينية إلى الإنجليزية على الطبعة الأولى تلك الطبعة المصحوبة بمقالات كثيرة حول حياة محمد وشعائر الآتراك وملاحظات السيد « دولاكروزا » عن المحمدية والاشتراكية .

وحتى نقيم كتاب رولاند نعود كما فعلنا مع « هونتجر » إلى حكم « ستوك هورجرنجي » « إن الإهداء القصير إلى أخيه بير رولاند والمقدمة الطويلة والجيدة والجديرة بالقراءة حتى يومنا هذا لتوضيحان كيف أن هذا العالم كان مدفوعاً بحب الحقيقة والشعور بالعدالة التاريخية إلى رسم صورة صادقة للإسلام وقد سأله أخيه هل من الممكن بالنسبة لدين عابث وهو الإسلام كما يصفه الكتاب المسيحيون أن يجد ملائين الأتباع ؟ فلترى المسلمين يصفون لهم دينهم بأنفسهم في الواقع أيضاً أن المذاهب اليهودية والمسيحية قد حرفها الوثنيون وأن المذاهب البروتستانية قد حرفها الكاثوليك ولذلك فإنه لا يمكن أن يعاد تشكيل دين حسب أوصاف أعدائه ويضيف قائلاً إننا بشر أى أننا لسنا معصومين وأننا نطلق العنان لأنفسنا في الكلام مثاث المرات بما لا يطابق الحقيقة ولكن بداعي عواطفنا لا سيما إذا تعلق الأمر بالقضايا الدينية .

وهناك قراء عدوانيون يمكن أن يشككوا في أن الكاتب يمكن أن يكون مفكراً جيداً وهو يتهمه بقوة بكل تشكيك من هذا النوع إن قضية الحقيقة بالنسبة له لا يمكن أن تخدم حقاً إلا من خلال حوار أمين ويعلن رولاند أنه لم توجه إهانات إلى أى دين بقدر ما وجهت إلى الإسلام ويرغم أن الأب مراكش قد عقد حواراً مع العديد من اليهود والنصارى حول الإسلام إلا أنه لم يوضح هذه الظاهرة الغريبة مؤكداً أن المسلمين قد اقتبسوا من المسيحية الكثير من الأشياء ويقول على

صعيد آخر : أليس من الضروري ألا تهاجم الإسلام قبل التعرف عليه وتضاعف فرص هذا الحوار الجدلى الصريح كل يوم بسبب العلاقات الممتدة دائمًا بين الأوروبيين وال المسلمين فى تركيا وإفريقيا والشام وفارس وبين الهنود الوجودين فى هولندا حيث يخفى كثير من المسيحيين خجلًا اسمهم المسيحى ومن وجهة نظره فإن هناك كثير من الفرص لنكسـبـ من المسلمين إيمانـهـ الحقيقـىـ حين ظـهـرـ بشـكـلـ لـاقـ فىـ مـعـرـضـ منـاقـشـتـاـ الـدـيـنـيةـ وـأـنـ نـكـفـ عـنـ لـعـنـهـمـ بـحـمـاـقـةـ إـنـ يـرـيدـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوـصـ أـلـاـ يـعـيـشـ مـسـيـحـيـوـ الشـرـقـ بـهـذـهـ طـرـيـقـةـ التـىـ تـشـبـهـ طـرـيـقـةـ التـرـكـىـ الـذـىـ يـشـكـ.ـ فـيـ أـهـلـ مـلـتـهـ وـيـتـهـمـونـهـ بـالـكـذـبـ وـالـخـدـاعـ بـيـنـمـاـ يـكـنـهـ أـنـ يـحـترـمـ بـهـجـوـمـ مـضـادـ وـيـصـلـ رـوـلـانـدـ إـلـىـ هـذـهـ عـبـارـةـ (ـأـتـعـتـبـنـىـ إـذـاـ مـسـيـحـاـ؟ـ)ـ .ـ وـيـوـاصـلـ حـدـيـثـهـ قـائـلـاـ:ـ «ـ إـنـ مـعـرـفـةـ أـكـثـرـ دـقـةـ بـالـإـسـلـامـ وـبـأـتـابـاعـ كـفـيـلـةـ بـأـنـ تـحـولـ غـرـورـنـاـ الـأـحـمـقـ إـلـىـ شـعـورـ بـالـعـرـفـانـ نـحـوـ اللـهـ الـذـىـ أـعـطـانـاـ بـفـضـلـهـ الـحـبـةـ وـهـذـاـ الـاعـتـرـافـ بـالـفـضـلـ يـنـبعـ مـنـ أـنـ الـمـحـمـدـيـنـ قـدـ اـسـتـطـاعـوـاـ غالـبـاـ أـنـ يـقـدـمـواـ جـرـعـةـ مـكـثـفـةـ جـدـاـ مـنـ الـفـضـائـلـ إـنـ رـوـلـانـدـ يـعـتـقـدـ حـقـاـ مـثـلـ كـثـيرـ مـنـ جـاـوـاـ بـعـدـ أـنـ يـضـطـرـ أـنـ يـحـمـيـ قـرـاءـهـ صـرـاحـةـ مـنـ الـفـهـمـ الـصـيـقـ لـكـلـمـاتـهـ كـمـاـ تـحـدـثـ مـثـلـاـ فـيـ خـلـالـ عـمـلـهـ هـذـاـ عـنـ النـبـىـ مـحـمـدـ ﷺـ حـيـثـ خـافـ أـنـ يـشـكـ النـاسـ فـيـ أـنـ يـرـدـ الـاعـتـبـارـ لـلـدـيـنـ الـمـحـمـدـيـ فـأـعـلـنـ أـنـ يـمـارـسـ نـوـعـاـ مـنـ النـقـاشـ الـحـرـ يـرـيدـ بـهـ فـقـطـ أـنـ يـكـوـنـ هـذـاـ الـدـيـنـ وـاـضـحـاـ وـلـيـسـ مـعـرـفـاـ بـشـكـلـ سـيـئـ .ـ «ـ إـذـاـ كـانـ يـرـيدـ رـغـمـاـ عـنـهـ أـنـ يـحـفـظـ بـالـأـسـاطـيـرـ الـعـبـيـةـ التـىـ وـرـدـتـ بـشـكـلـ عـامـ فـيـ مـوـضـوـعـ الـأـتـرـاـكـ وـقـدـ غـذـتـ هـذـهـ اـسـاطـيـرـ عـنـهـمـ كـثـيرـ مـنـ الـأـوـهـامـ فـإـنـهـ كـانـ لـهـ السـبـقـ دـائـيـاـ فـيـ تـجـربـةـ أـنـ الـعـالـمـ يـرـيدـ أـنـ يـخـدـعـ وـأـنـ مـحـكـومـ بـالـأـوـهـامـ .ـ وـحـيـنـ تـبـعـ عـنـاـوـينـ فـصـولـ الـمـقـدـمـةـ فـإـنـاـ نـسـتـخـلـصـ لـمـحـةـ أـولـىـ مـنـ الـمـحـتـوىـ وـهـذـهـ هـىـ الـعـنـاـوـينـ (ـ١ـ)ـ .ـ

١ - أـنـ أـغـلـيـةـ الـأـدـيـانـ قـدـ وـصـفـهـاـ أـعـدـاؤـهـاـ بـشـكـلـ سـيـئـ وـمـنـ بـيـنـهـاـ الـيـهـوـدـيـةـ وـدـيـانـاتـ أـخـرىـ .ـ

٢ - أـنـ الـدـيـنـ الـمـسـيـحـيـ لـمـ يـرـاعـ أـعـدـاؤـهـ صـحـتـهـ بـشـكـلـ كـبـيرـ .ـ

٣ - أـنـ الـكـاثـوـلـيـكـ لـمـ يـنـاقـشـواـ قـضـيـاـ الـبـرـوـتـسـتـانـتـ وـيـذـكـرـ رـوـلـانـدـ فـيـ هـذـاـ الفـصـلـ

(ـ١ـ)ـ لـقـدـ ذـكـرـنـاـ بـعـدـ الـتـرـجـمـةـ الـفـرـنـسـيـةـ التـىـ ذـكـرـنـاـهـاـ بـعـالـيـهـ وـالـتـىـ تـعـدـ دـقـيـقـةـ وـمـطـابـقـةـ لـلـنـصـ الـلـاتـيـنـيـ .ـ

(جنيرار) (Genebrard) الذى لم يجد صعوبة فى الرجم بالغيب فى تاريخه (ص ٧) وقد قال لنا بطريقته أن لوثر سوف ينقل قريباً الإمبراطورية الأوروبية إلى محمد (ص) ، وأن وزراءه وأتباعه سوف يتحولون إلى الإسلام وفى الطبعة الأولى وليس فى الثانية يحكى رولاند أيضاً عن جنيرار قوله : « نحن مقسمون إلى ١٢٦ فرقة مفسدة وأن لوثر دخل فى صفقة كبيرة مع الشيطان وانتهى بالميثاق والذى عوقب به » كلفان نفسه من قبل الله باعتباره مجرماً وذلك بقرحة خبيثة جراء جريمته ولذلك مات فى حالة من اليأس « والترجم الفرنسي فى تعليقه ص ١٩١ يسوق هذه الملاحظة « إن رولاند ما كان ينبغي له أن يلغى تلك الوشایا لأنها تساعدنا فى أن نرى أن روما (حيث مقر البابوية) هي كاذبة وقاتلة من البداية حتى النهاية . »

- ٤ - أن الكاثوليك كانوا مخطئين فى مقارنتنا بالمحمدين .
- ٥ - ذلك التشابه المضحك بين أتباع لوثر وأتباع محمد والذى أورده شخص يدعى بيليدو
- ٦ - وشبه آخر لبيالدو (Vivaldo) بين المحمددين والكاثوليك الرومان .
- ٧ - ماذا يمكن أن تكون الأسباب وراء المعرفة الضحلة التى اعتدتها عن الدين المحمدى وفي رأي رولاند فإن هذه الأسباب مختصرة فى ثلاثة أسباب .
- (١) أن كل الأديان فهمت بشكل خاطئ ومن ثم تعامل معها أعداؤها بشكل خاطئ ولذلك يجب الا نندهش إذا حدث نفس الشيء مع الدين للمحمدى .
- (ب) حتى نلح بكثير من النجاح داخل روح هذا الدين والكتاب الذين تعرضوا له يجب علينا أن نعرف العربية جيداً ولكنأغلبية الذين يكتبون عن محمد والإسلام فى الغرب عندنا كما فى اليونان هم على جهل تام بهذه اللغة .
- (ج) وفي النهاية يأتي التعود أو مزاج المحمددين الذين لا يميلون إلى النقاش الدينى ولا يبدون مهتمين بنشر دينهم على نطاق عالمى
- وبهذه المناسبة يذكر رولاند بعض الكتب الحماسية والمليئة بالكراهية والحقن على الإسلام .
- هورن بيك (Hoorne beeck) جملة من المحاورات .

- جان أندريله مور (وهو مسلم أسباني تحول إلى المسيحية في الربع الأخير من القرن الخامس عشر) : إعترافات حول الملة المحمدية .
- فوريسيوس (Forbesius) : المؤسسات اللامهوية .
- أميوس (Omius) : التركية في المرأة .
- بيلياندر : خطبة منشورة في نهاية ترجمة القرآن بناء على أمر بير رئيس المجمع الكنسي والناشر هو بيلياندر نفسه .
- دون مارتينو الفونسو بيدالدو (Don Martino Alphanso Vivaldo) : قنديل في كنيسة الرب ، وهو هنا يسوع المسيح .
- الأب مراكشى : مقدمه حول القرآن : دحض القرآن ويدرك رولاند من هذا الكتاب مقطوعات مطولة حيث يوضح مراكشى بعد ذكر كثير من عقائد المسلمين أن هذه المذاهب وأشباهها كثير انتشرت في العالم بشكل واسع ظاهرياً كما يقول مراكشى أيضاً « إن كل غير المؤمنين سيفضلون محمداً وسيعانون دينه بقلوبهم » .
- ٨ - دحض كل ما ردد من أنه من غير المقيد دراسة دين محمد ..

وحتى يبرروا رفضهم لتعلم العربية ودراسة الإسلام يقول أهل أوروبا : « ليست لدينا علاقات تجارية كثيرة مع المسلمين كما أنهم لا يهتمون بمناقشتنا وعرض دينهم علينا : وإذا تحدث النقاش معهم فعندها الكتب اللاتينية المؤلفة في هذا الصدد فلماذا نضيع وقتنا في دراسة العربية ؟ » ويرد رولاند على ذلك قائلاً « هل صحيح أننا ليست لنا تجارة مع المسلمين ؟ أو ليست لنا مصالح كثيرة أو قليلة ليس في القسطنطينية عاصمتهم ولكن أيضاً في جميع ولايات الامبراطورية التركية وعلى سواحل إفريقيا وفي الشام وفارس وفي الهند الشرقية حيث لنا مصالح وموانئ وأماكن تجارية في مناطق تغصن بعدد كبير من المسلمين ؟ ثم ماذا تعنى ليت شعرى هذه الرطانة التي تشنف آذاننا كل يوم من أنه ليس من الضروري دراسة دين هؤلاء الناس ؟ وإذا أخذت هذه القاعدة بحرفيتها ولم ندرس أي شيء لهم فكيف ستتصبح دراستنا وما هو مصير كل العلوم لدينا ؟ » (ص ١٣٢ - ١٣٣) .

٩ - هل صحيح أنه ليس مسموحاً للمسلمين بالنقاش حول دينهم .
ويرد رولاند بأنه لو صح أن المسلمين لا يتناقشون مع بعضهم إلا بالرجوع إلى

القرآن فإنه يبقى على الأقل أن تناقش معهم حول صحة القرآن نفسه وسوف يكون من السهل ساعتها أن تستخرج من هذا الكتاب أشياء سوف نكتشف أنها «ليست إلهية» (ص ١٣٨ - ٩) ورولاند هنا يسلم نفسه للوقوع في الافتراضات الخانقة التي نسخها ألد أعداء الإسلام ، وهذا أمر غريب من جانبه لا سيما وأنه يزعم في هذا الكتاب أنه يرد الاعتبار للإسلام لأنه حتى مراكشى الذي يذكره في الصفحة التالية كان أكثر اتزاناً رغم تعصبه السافر .

ثم يواصل رولاند قائلاً «أن المسيحيين وال المسلمين تناقشوا فيما بينهم ليس فقط مشافهة ولكن أيضاً كتاباً حول النقاط الرئيسية في الدين . ويدرك هنا حالة كاثوليكي رومني كتب كتاباً سماه « المرأة Speculum Verum Ostendens » حيث هاجم فيها عقائد المسلمين . وندلوك فقد رد عليه شريف فارسي هو أحمد ابن زين الدين بكتاب سماه « صقيل المرأة » حيث حاول تفنيد المبادئ الأساسية للعقيدة الكاثوليكية وكذلك الغموض المتعلق بالثالوث المقدس وألوهية المسيح » (ص ١٤٢ - ٣) .

ثم يوضح أن حرية النقاش بين المسيحيين وال المسلمين في البلاد الواقعة تحت سلطان المسلمين كانت مكفولة من وقت لآخر . ويرجع في هذا الموضوع إلى كتاب الأب « رينودو Renaudot » تاريخ بطارقة الإسكندرية (ص ٣٧٧) ، حيث يقول رينودو : « قدماً كان مسماً للنصارى الشرقيين بعرض دينهم بطريقة عامة شفوية أو كتابة ولهذا ظهرت كثير من المساجلات مدونة في المكتبات MSS » ومنها ما يلى :

- مساجلة إبراهام الترهانى مع عبد الرحمن
- مساجلة بين رجل دين ويهودي اسمه غزيرم .
- مساجلة إيلى رئيس أساقفة نزيب فى ديار بكر بأسيا مع الوزير أبي القاسم ابن حسين المغربي
- مساجلة عيسى بن زرعة مع أبي بكر البلاخي
- مساجلة أخرى لأبي فرة وهى نوع من المؤتمر الدعوى للدين المسيحى جرت فى حضرة الخليفة المؤمن

- مساجلة أخرى عن التثلث والتجسيد عقدت في القاهرة عام (١٢٣٩هـ / ١٢٧٩م) قام بها رجل يسمى ابن العسال .

- مساجلة أخرى مع راهب ووزير أحد أمراء إفريقيا وقد كتبها رجل نسطوري .

- ومساجلة أخرى مع راهب آخر يسمى « إچشنا » من مدينة مرو عاصمة خراسان .

- وأخيراً محاورة بين راهب جديد ورئيسه متعلقة بعثية نبوة محمد مع دحض للقرآن ، هنا وقد غضضنا الطرف عن عدد كبير لا يحصى من الكتابات القصيرة في هذا الموضوع كان يمكنا أن نعمل لها قائمة عظيمة .

١٠ - دحض ما اعتدنا سماعه من أنتا عندنا ما يكفيا من الكتب التي تعرفنا بدقة على دين محمد ، ويفند رولاند هذه القضية بقوله : « إن أغلب هؤلاء الكتاب والذين ندحهم بحماس هاجموا دين محمد بأقل مما هاجموا أوهامهم ... وقد وقعوا فيما نسميه السفسطة العادية وهي الجهل بالقضية المطروحة أي إثبات ما ليس من المفيد إثباته ومحاجمة الآخرين بشعور من الوهم عن عقلياتهم أو كما قال فيلورساد » عن « كاليجولا » : « أنه يعيد قصص العدم » وقد كان كاليجولا أميراً مغفلأً صف جيشه في إحدى المعارك على شاطئِ المحيط كما لو كان في حملة مشهودة انتصر فيها على المجلترا ثم وضع الحراب وبقية آلات الحرب كما لو كان سيفز عليها ثم أعطى الأوامر لجنوده فجأة بأن يجمعوا المحار ويلووا به قبعاتهم وجيوبهم ، ثم أضاف إلى هذا العبث مجدأً أكثر عبثاً وهو نقل هذا المحار من المحيط إلى مقر السلطة والباطل . وهكذا كتابكم الذين يهاجمون المسلمين فهم يوجهون أسلحتهم بكثير من العناية والحماس ليس ضد أعداء حقيقين ولكن ضد خصوم وقد انتصروا عليهم لأنه لا شخص يدخل معهم حقاً في خصم ، ولذلك يمكنهم أن يتتصروا كما يريدون وذلك يجمع الغنائم المناسبة لهذا الانتصار مع تصفيق كل من على شاكلتهم كما لو كانوا قد دافعوا دفاعاً مجيداً عن الدين المسيحي ضد كل سباب العرب وكفر الشرق : ولكن العقلاء يمكنهم أن يضحكوا على هذه الانتصارات الكاليجولية (ص ١٥٥ - ٨) .

١١ - وأن معرفة اللغة العربية أكثر فائدة مما يظن الغرب .

١٢ - أن دراسة الأداب والفنون واللغات الأجنبية أصبحت جزءاً لا ينفصل عن الدين الحقيقى .

١٣ - الهدف الذى من أجله ألف هذا الكتاب .

في هذا الفصل الأخير من المقدمة يوضح الكاتب بشكل صريح الهدف من وراء تأليف هذا الكتاب وهذا ما قاله دون مواربة :

« إن هدفى لم يكن خفاء ولا حتى تلقيح حقائق عن دين أكرهه ولا حتى أن أتصل به بشكل عدائى أو ودى . فمن يحكم على هكذا يخطى ولكن الهدف هو شيء من العدل والتزاهة . فقد رأيتني مضطراً للدفاع عن هذا الدين خاصة في الأشياء التي نسبت زوراً وبهتاناً إليه والتي تخجل وجه الحقيقة حين تعتمد على الأكاذيب والافتراضات . والهدف هو إيجاد شخص يجب أن يعكس هذه الأكاذيب التي لا تستند على أي شيء من الشرعية ، وقد ألحقت بال المسلمين أو صافاً كثيرة مثل « خرقاء » أفظاظ ، حمر وحشية ، مجانيين ، مغفلين ، وحتى شياطين ، وأريد أن يرددوا معى الحقائق المضادة التي تعرى هذه الأكاذيب التي جعلتني ألاحظ أن الأيام تثبت أن العالم يريد أن يعيش مخدوعاً ومحكوماً بالأحكام المسبقة (ص ١٧ - ١٧١) .

ويتضح من إعلان التوبيخ هذا :

(١) أن رولاند لا يقصد بهذا الكتاب الدفاع عن محمد وعقائد المسلمين فهو أبعد من ذلك .

(ب) ولكنه يريد أن يصحح الأكاذيب والأحكام المسبقة التي نسجها الكتاب الأوروبيون في موضوع محمد والقرآن والإسلام حتى يستطيع مهاجمة الإسلام آخذنا من المسلمين فرصة الدفاع بإنكار هذه الأكاذيب والافتراضات التي اخترقها المسيحيون في موضوع المسلمين والإسلام . فإذا رفض رولاند مثلاً الاتهام الذي ساقه الكتاب الأوروبيون بدءاً بيوحنا الدمشقي وهو أن محمدأ خلط في القرآن بين مريم أخت موسى ومريم أم عيسى فذلك لأنه كما يقول : « حتى تكون في حالة جيدة ووضع سليم نحن المسيحيين في حوارنا مع المسلمين بطريقة منطقية ومقنعة حتى نهاجمهم من الآن فصاعداً بشكل أكثر وضوحاً وثقلأ بعدد من الحجج والأدلة (١٨٤ - ١٨٥)

(ج) باختصار ، لم يكن لرولاند من وراء كتابه هذا وكل أعماله سوى نصرة الحقيقة والعقيدة الأنجلية أو شيء مشابه لذلك وهو مجد إله واحد حق حيث يضيف في الطبعة الثانية «الأب والابن والروح القدس ، لهذا الثالوث يجب أن تكون العاقبة وكل كلامنا وجميع أفعالنا (السابق)»

إذاً لا يمكن أن ينخدع أحد في نية رولاند وهي : أنه يتعشم أن يهاجم الإسلام بهدم الأساطير التي اخترعها الكتاب المسيحيون والأوريبيون وذلك لدحض وتفنيد حياة محمد ودينه إنه يضع نفسه في عداوة مع الإسلام ولكنها عداوة عالم ذكي بدلاً من المتقصين من قدر الإسلام وهم كاذبون وحمقى .

وبعيداً عن نية رولاند فإن كتابه قد ساهم بعد ذلك في تنوير الأوريبيين في موضوع الإسلام . ولذلك لن يكون بمقدور أحد أن يجرؤ على ترديد الأساطير المتراءكة والأكاذيب التي نسجت في أوروبا منذ عشرة قرون حول محمد دون أن يخاطر بأن يصبح أصححوكه المتفقين الأمناء .

ويجب أن نتوقف هنا لأن متابعة تاريخ مفاهيم الأوريبيين عن محمد والإسلام سوف تستأنف في كتابنا : «الإسلام كما ارتأه فوليت وهيرود وجيبون وهيجل» وهو الكتاب الذي سيظهر بعد كتابنا هذا .

* * *

الفصل الأول

صدق محمد فيما يتعلّق برؤاه للملا الأعلى

« لقد قيل عن سقراط أنه كان يهذى وأنه كان مجنوناً ذا عقل كبير ، ولكن ماذا عن الإغريق الذين يتكلمون هكذا عن رجل عاقل وهم يصلون إلى درجة الجنون » .

لابرومير

الشخصيات « أحكام ٦٦

١ - سورة العلق :

وهو يخبر برسالته النبوية أعلن محمد أن الوحي نزل عليه من الله خلال عزلته في غار حراء قريباً من جبل أبي قيس بمكة . وقد قال أنه سمع صوتاً من أعلى يقول له :

﴿ اقراً باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقراً وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥ .

ونجد أن الكلمة اقرأ هنا قد ترجمها بلاشير بكلمة *Preche* وهذا شيء من الصعب فهمه لأن الكلمة اقرأ تعنى حرفيا *Lis* ولكن لأن محمداً لم يكن أمامه كتاب يمكنه أن يقرأ فإن الأمر هنا لا بد أن يخرج عن حقيقته إلى معنى مجازي وهو *Preche* بمعنى بشر أو *Prochame* بمعنى أعلن . ومع ذلك فليس هنا مفعول لهذا الفعل حتى وإن كان *Preche* بمعنى بشر ولكن **بشر** بماذا ؟

وحتى يخرج من تلك المعضلة اقترح أبو عبيدة وتبعه في ذلك هـ - جريم في القرن التاسع عشر في كتابه (محمد) أن نفهم الأمر « اقرأ » بمعنى « امدح » وذلك بحذف حرف الجر « بـ » حيث يصير المعنى هكذا « امدح أو مجد اسم ربك » .

نولدكه - شفالى (مع ١ ص ٨١) وتبعهم « فرانتس بول » في كتابه (ثقافة محمد ص ١٣٧) يرون أنه يجبأخذ فعل الأمر على إطلاقه أي بدون مفعول مباشر وأن نفهمه هكذا : أعلن بصراحة وأفصح للناس بما في داخلك **ما أوحينا إليك** .

إلى هنا والترجمة المقترحة منطقية ومقبولة ، وهي تتفق تماماً مع الفهم العقلاني دون حاجة إلى استدعاء قوة سامية .

ولكن « فرانتس بول » (ص ١٣٧ - ٨) يلوى عنق الكلام بعد ذلك ليصل إلى هدفه غير المعلن وهو الموروث اليهومسيحي ويزعم أن الآيات الخمسة التي ذكرناها « قد اكتسبت معنى مطابقاً للموروث اليهودي المسيحي وذلك يتأكد حين نرجع إلى الرسالات السماوية السابقة عند أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وقد آمن محمد بمحفوظ هذه الكتب عن اقتناع لوقت ما .

وهذا مثال واحد مطابق للنقطة السائدة عند دارس الإسلاميات . فبأى حق يفسر

« بول » عدم وجود مفعول لكلمة أقرأ بهذا التحوير العظيم أو المذهب الذي لا تدل عليه أى كلمة في سياق الآيات ؟ للأسف إن هذه عملية معتادة لدى دارسي الإسلاميات وذلك لينشروا آراءهم خلسة حتى يستطيعوا أن يهاجموا الإسلام بضراوة حين يتعرضون بالطعن لقواعده .

نأتي إلى المشكلة الثانية التي أثارتها الآيات الأولى من الوحي وهي أن محمدأً سمع صوتاً يدعوه إلى أن يقرأ . فماذا كان هذا الصوت ؟ هل هو صوت داخلى ؟ أم خارجى ؟

إذا كان هذا الصوت نابعاً من داخل نفس محمد فلن تكون هناك مشكلة ، فالإنسان بداع التأمل في جو من السكون والوحدة والتحادث مع الذات حول قضايا عظيمة متعلقة بالله والإنسان ومصيره والموت والحياة الأخرى ، فلا بد هنا أن يصبح الوجودان غنياً بالمساعر التي تضطرب بحيث يشعر الإنسان بالازدواج بين أنا وأنت . وهذه الحالة النفسية طبيعية تماماً ولا يجوز اتهام من يشعر بها بالخداع أو الكذب .

ولكن قضية الصوت الخارجي هي القضية المعتمدة لدى كل كتاب السيرة المسلمين مع اختلاف في الروايات نورد منه أقدمها :

(١) ابن إسحاق (توفي في ٧٦٩) وبحكي أن محمدأً ذهب إلى غار حراء في شهر رمضان في السنة التي بعث فيها وهنا يبحكي النبي قائلاً : « ذات ليلة كنت نائماً وأتاني جبريل بلوح عليه كتابه وقال : « أقرأ » فقلت : « ما أنا بقاريء » فضمني بهذه الرقعة حتى خشيت أن أهلك ثم أرسلني وقال : « أقرأ » فقال النبي ﷺ ما أنا بقاريء مرتين فخفف الملك من شدته معه فسأله محمد « وماذا أقرأ ؟ » فأجابه الملك « أقرأ باسم ربك الذي خلق » يقول الرسول : « فاستيقظت وكأن شيئاً ما قد نقش في قلبي فخرجت ولما أصبحت في قلب الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل » ، فرفعت بصرى نحو السماء لأراه فإذا جبريل على شكل رجل يجلس عند الأفق ورجلان القرفصاء ويقول : « أنت رسول الله وأنا جبريل » فوقفت ، ورأيته

ولكن حيث تقدمت أو تأخرت أو قلت وجهي في أي مكان في السماء كتلت
أراها^(١).

وفي هذه الرواية عنصران متمايزان : الملك الذي يبحث محمداً على القراءة
ورؤية محمد لجبريل جالساً عند الأفق يقول له : « أنت رسول الله وأنا جبريل »
فالشيء الأول حدث داخل غار حراء بينما حدث الثاني عند الجبل في الهواء
الطلق وفي وضح النهار ولكن هذين الحدثين مع تميزهما بتكاملان ويتطابقان ،
لأن الحدث الثاني لا يعدو أن يكون تصريحاً وإزالة لغموض الأول : فهو يحدد
شخصية الملك واسمها ويشرح هدف الحدث الأول وهو أن يعلم محمداً بوجوب
تبليغ الدين الجديد لأنه رسول الله . وهذا ما يجعلنى أعتقد أنه ليس هناك داع
لهذه الأهمية المبالغ فيها من جانب : « تور أندريا » للتفصيل بين الحدثين^(٢) .

إن القضية الجديرة بأن تطرح هنا هي صحة هذه الرواية كلها لأن :

(أ) القرآن لم يشير إليها ولو بكلمة واحدة ولم يقل لنا أي شيء عن الطريقة
التي تلقى بها النبي محمد الوحي .

(ب) أنه ليس من المؤكد أن سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن على
النبي فراء علماء المسلمين مختلفون في ذلك (انظر السيوطي : الإتقان)
والزرκشى (البرهان) .

(ج) التفاصيل الخاصة (لقراب اليمحور عليه كتابه) يبدو أنها من الخيال
المضطرب والمتأثر بالرواية والتخيل كما أنها نعتقد أن هذه الرواية ألفها ابن إسحاق
وأخذها عنه كتاب السيرة من المسلمين فيما بعد .

ومن الواضح في هذا الصدد أن ابن سعد في كتابه « الطبقات » لم يذكر إلا
الحدث الثاني وهو رؤية الملك في الأفق ساكتاً عن الحدث الثاني وهو ما حدث
بداخل غار حراء .

(١) مذكور في « تور أندريا » (محمد ، حياته ، ودينه) تأليف جون جودفرواد
يمومين باريس ، ١٩٤٥ (ص ٤٣) .

(٢) السابق (ص ٤٤ - ٤٦) .

٢ - سورة النجم :

يجب علينا هنا أن نكشف عن خطأ آخر متشر بين المستشرقين وهو أنه في سورة النجم من المفروض أن محمداً تلقى الوحي عن ملك كان يراه في الأفق الأعلى وحسب تفسيرهم التخيل فإنهم أضافوا كلمة (ملك) « بين قوسين وهذه مثلاً ترجمة بلاشير :

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى . ذو مرء فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتما رونه على ما يرى . ولقد رأه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ سورة النجم من آية ١١ إلى ١٨) إذا فالمقصود في الآيات الخمس والتالي لها ليس ملكاً ولكنه الله نفسه وهذا يظهر بوضوح في الآية ١ « فأوحى إلى عبده ما أوحى » لأن محمداً ليس عبداً للملك ولكنه عبد الله وحده ، وهو وحده الذي يوحى إليه . والملك ليس إلا وسيطاً بينهما . لأنه لا يوحى شيئاً . وما يعزز هذه الرواية أنه كيف يستوى الملك في عظمة وقوعة بينما يجلس في الأفق الأعلى آية ٦ فالمملك لا يستوى في الأفق الأعلى لأن هذه صفات لا يمكن أن تنسب إلا إلى الله ولا يمكن أن تنسب أبداً للملك .

لذلك فمن الغريب أن يقع في هذا الخطأ الشنيع شخص مثل « تور اندرراك » (السابق ص ٤٦) ، وبلاشير (القرآن ص ٥٦٠ - ١) وكثير غيرهم أما فرانس بول فإنه يذكر هذه الآيات دون أن يشرحها ولذلك فتحن لا نعرف كيف فهمها كما يذكرها أيضاً « مكسيم رودنسون » (١) دون حتى أن يشك في المشكلة المثارة هنا .

إننا نعتبر هنا أنه لا داعي لشرح سورة العلق باستخدام سورة النجم لأن سورة النجم تتحدث عن رؤية الله من جانب محمد وهي الرؤية التي تمت بالروح

(١) مكسيم رودنسون - محمد - باريس (١٩٦١) (ص ٩٣ - ٩٩) .

وهذه هي القضية برمتها وقد تناولها علماء التصوف المسلمين . وبالاعتماد على هذه السورة اعتقاد متصوفة المسلمين في إمكانية رؤية الله وهي رؤية روحانية خالصة .

٣ - أحوال النبي إبان استقبال الوحي .

نعود إلى حالة النبي إبان الوحي الأول (أول ما نزل من القرآن) سواءً كان سورة العلق أو سورة المدثر في أقوال أخرى . ولم يحدثنا القرآن عن شيء من ذلك . ومصطلح « مدثر » يعني فقط « الذي يلبس ثاراً والثار هو رداء يلبس فوق قميص ليدفعه من يلبسه وفي الحديث « أن النبي بعد أن نزل عليه الوحي كان يقول : « دثروني دثروني » أي غطوني برداء يدفعني .

وقد أردا بعض المستشرقين أن يعمل من هذا الحديث البسيط وهو « التدثر برداء بغية الدفء » قضية النبوة وشعائرها عند الكهان . ويقول : « تور أندريا » في هذا الموضوع « لقد اقتبس محمد هذه التعبيرات بلا أدنى شك من الكهنة الوثنيين ، لأن كثيراً من الكهان كانوا يغطون رؤسهم عند ما يستقبلون الوحي وقد فعل محمد نفس الشيء (القرآن ٧٣ ، ١ ، ٧٤) وهذه الطريقة في الواقع هي طريقة قدية لاستقبال الوحي . فالكاهن الفالى كان يتدثر في جلد ثور مقدس والكافن الأيسلندي كان يتدثر في جلد شاة رمادية (١) كما يقول « جود فرواد يوميين عن كلمتي « مدثر ومزمل » هذا دأب كل الذين يشعرون بأنهم على علاقة بقوة إلهية . وهكذا كان يفعل كهان الجزيرة العربية وقد كان القرشيون على حق حين زعموا أن محمداً يقلدتهم لكي يوحى إليه هو أيضاً بأسرار الجن وقد كان هنا بعد ذلك دأب مدعى النبوة مثل « طليحة بن خويلد الأسدى ، والأسود العنسي » (٢) ولكن هذه مبالغة لا مبرر لها وهي أن نستخرج من هذه الصفة البسيطة والمعتادة « مدثر » كل هذه النتائج التي لا تقوم على دليل .

وفي الواقع أنه لم يرد لا في القرآن ولا السنة ولا عند كتاب السيرة المسلمين أن النبي كان يتدثر برداء مخصوص في كل مرة ينزل عليه فيها الوحي وكل ما قاله هذه المصادر في هذا الموضوع هو أن النبي حينما كان يأتيه الوحي يشعر برعشة

(١) تور أندريا - محمد - (ص ٢٨) .

(٢) موريس جود فروا ديموميين - محمد - باريس ، (١٩٦٩) (ص ٧٢ ، ٧٣) .

برد ويطلب أن يدثروه برداء ليستدفه . كما يذكر في هذا الصدد مثلاً أن «عمر عندما لاحظ أن النبي بقصد نزول الوحي غطاه بمعطف ليشعر بالدفء لأنه عرف بالتجربة أن النبي يشعر بالبرد في تلك الحالة » وهذا معنى حديث رواه البخاري (ص ٦٢١ و ٧٤٥) ومسلم (ج ١ ص ٦٧٣) ، وترجمة « شبرنجر (ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠) .

إذا لم يكن النبي يلبس معطفاً ليستطيع استقبال وتلاوة ما يوحى به إليه : ولكن على العكس من ذلك وأنه كان يشعر بالبرد حين يستقبل الوحي فكان يطلب أن يغطوه برداء ليشعر بالدفء من البرد الذي يجري في أوصاله . ولذلك ليس هناك علاقة بين هذا الرداء الذي يبعث فيه الدفء وبين المعطف أو الإيفود (ثوب أخبار اليهود) الذي يلبسه الكاهن أو النبي في بنى إسرائيل .

* * *

ويمكنا أن نتساءل هنا في أي حالة نفسية أو عصبية كان النبي محمد عند استقبال الوحي .

نسوق هنا بعض الروايات التي جمعها وترجمها شبرنجر (١) .

١ - الواحدى : أسباب النزول (٤ - ٩٧) والبخارى (ص ٦٦٠) « حدثت للنبي حادثة وسقط على صدر زيد بشكل عنيف حتى خاف زيد (بن ثابت) أن تكسر قدماه .

٢ - المواهب اللدنية « يقول زيد بن ثابت : « كنت كاتباً لوحى النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي تصيبه حمى عنيفة ويتصبب عرقاً حباته مثل حبات اللؤلؤ » .

٣ - ابن سعد عن عكرمة « كان الوحي حين ينزل على النبي تصيبه نوبة لبرهة كما لو كان شملاً » .

٤ - ابن سعد (ص ٣٧) ومسلم (مج ٢ ص ٤٣٠) عن عبادة بن الصامت « حين ينزل الوحي على النبي يكفره وجهه ويتغير » .

٥ - مسلم (مج ٢ ص ٤٣٠) عن عبادة بن الصامت « حين ينزل الوحي على

(١) شبرنجر : حياة محمد وثقافته (ص ٢٦٩ - ٢٧٥) ، برلين (١٨٦١) .

النبي كان يطأطئ رأسه وكذلك الصحابة فإذا ذهب الوحي رفع رأسه من جديد .

٦ - «البغوى» - تفسير عن ابن عباس حين كان جبريل ينزل بالوحي على النبي كانت شفتها النبي تضطرب وكذلك لسانه وفي هذه الحالة يكون مضطرباً وكانت حركاته تدل على ذلك .

٧ - ابن سعد (٣٧) عن ابن عباس «حين كان الوحي ينزل على النبي يكون في حالة ترقب وكان يحرك شفتيه ويتتمم حتى لا ينساه . ولهذا أنزل الله عليه في سورة القيمة آية ١٦ ﴿لَا تحرك بِهِ لسانك لتعجل بِهِ﴾ .

٨ - ابن سعد (٣٧) عن عائشة «سأل الحارث بن هشام النبي كيف يستقبل الوحي فأجابه النبي : «إن الوحي يأتي أحياناً مثل صلصلة الجرس وكان يشق على ثم تنتهي الصلصلة وأعيد ما قاله لى جبريل وأحياناً أخرى يأتيه الملك ويكلمني وأفهم ما يقول» .

٩ - مسلم (ص ٣٤٠) يقول عائشة : «أبصرت النبي حين ينزل عليه الوحي في يوم شديد البرودة عندما توقف الوحي وجدت جبينه وَلَيْلَةً يتصبب عرقاً» .

١٠ - ابن سعد (٣٧) كان الرسول دائماً يقول : «كان الوحي يأتيه على ضربين ، إما أن يأتيه به جبريل ويلقني كما يتحدث أحدكم إلى آخر وقد اختفت مثل هذه الطريقة ، أو يأتيه الوحي كصلصلة الجرس ويستمر حتى ينطبع في قلبي وهذه الطريقة لم تخفت أبداً» .

* * *

وقد أطلق المستشركون العنان لخيالهم أمام معطيات السنة دون أن يسألوا أنفسهم إلى أى مدى يمكن أن يتباهاوا بصحتها دون أن يخضعوها لأى نقد تاريخي مثلاً هو الحال حين لا تتفق الروايات مع خيالاتهم .

(أ) شبرنخير ، الذى أورد وترجم هذه الروايات يتسرع بأن يستخلص منها التبيبة التالية : «كان محمد يعاني من مرض كان حين يأتيه يملأه وهو مرض شائع فى بلادنا لدى النساء ولدى الرجال بشكل نادر . وهذا المرض يأخذ أسماء متعددة «شون لين» مثلاً يسمى «الهيستيريا العصبية» . وكالعادة فإن الهيستيريا

مرض نسائي ولكنه يضيف: « إنهم مخطئون أولئك الذين يعتقدون أن هذا المرض لا يصيب الرجال أبداً لأنه يظهر أيضاً عند البشر من جنس الرجال ولكن بشكل نادر جداً » وكالعادة فإن هذا المرض يدو في صورة نوبة. وحين كان يصيب محمدًا بشكل خفيف كان يظهر الترنج والتتشنج والذى هو الصفة المميزة لهذا الالم .

وكانت شفاته تضطربان وكذلك لسانه يدو وكأنه يريد أن يلعق شيئاً : وكانت عيناه تدور في وقت قصير من جهة لأخرى ورأسه تتحرك بشكل تلقائي . وفي النوبات الحقيقة لهذا المرض تكون إرادة التحكم في الحركات قوية كما يمكننا إيقاف رعشة الأعضاء بإراده قوية : ولكن في الحالات الأعنف تكون الحركات آلية تحت ضغط الإرادة . « وفي نفس الوقت كان يعاني كذلك آلاماً في الرأس (الهيستيريا المفتة للرأس) وعندما تكون النوبات عنيفة ، يصل به الأمر إلى التخشب . وكان محمد يسقط على الأرض وكأنه ثمل ، ويصبح وجهه محمراً وتنفسه ثقيلاً وينغط « مثل بغير » ، ولكن يدو أنه لم يكن يفقد الوعي ولذلك فإن حركاته كانت تعرف بالصرع . وفور انتهاء زيارات الملك يكون محمد قادرًا على التحدث إلى الأشخاص الحاضرين بما أوحى إليه وما جاءه الملك به وحتى إذا كانت لهجته ضعيفة في أحيان كثيرة فإنها تثبت أنه كان في كامل وعيه .

« ومن خصائص الهيستيريا المعروفة أنها تشبه أنواعاً أخرى من الأمراض وذلك فإنه ليس من المعاناة أن يخضع الشخص الواقع تحت تأثير الهيستيريا لهذه النوبة مؤقتاً . وهذا المرض المتغير يظهر مرة في شكل التهاب رئوي ومرة أخرى على شكل أزمة قلبية تهدد بالموت في أحيان كثيرة وأحياناً يأخذ شكل الربو الكثيف .

ويكون الأشخاص الحاضرون مروعين من ذلك ولكن إذا فحصنا الحالة بطريقة أكثر دقة فنكتشف أن أصل هذه الأعراض الرعبية لا يعود أن يكون هيستيريا لا خطر منها وقد تتحول إلى حالة صحية جيدة وربما إلى قوة طاغية سريعاً كما هو الحال عند تحول الأطفال من الدموع إلى الضحكات (١) .

ويشير شبرنجر على نفس المثال قائلاً أن: « هيستيريا محمد كانت تأخذ شكل الحمى عادة وذلك لأنه في المناطق الاستوائية وخاصة المدينة تعتبر الحمى المتنقلة هي المرض السائد وكل المشاكل الصحية تدرج تحته . وكانت نوبات محمد تأخذ

(١) شبرنجر : حياة محمد وثقافته (ص ٢٠٧ - ٨) .

عادة إذا شكل الحمى . وكان وجهه يصبح شاحناً وكان يضطرب ويشعر بقشعريرة وفي النهاية تسقط قطرات عظيمة من العرق معلنة نهاية الأزمة (السابق ص ٢٠٨ - ٩) .

ويدفع شبرنجر التحليل إلى أقصى درجات المبالغة الساقطة والسفه العلمي حين يناقش قضية الجنس البشري عند محمد حيث يزعم حسب نفس نظرية الهيستيريا أن النساء المصابات بالهيستيريا في أخرج لحظاتهن يقنن تحت تأثير الشبق ويزعم « أن مرض محمد كان مصحوباً بتلك الظواهر - ويقول أنه في « شبابه كان يعيش حياة متحفظة ولكنه لم يكن معفياً من الشك في أن يقع في الخطيئة المذكورة في سفر التكوين - إصلاح ٣٨ - ٩) ماذا يريد « شبرنجر » أن يقول بالرجوع إلى هذا المصدر ؟ إن الآية التي يرجع إليها تتحدث عن « رجل كان يستمنى بكفه « ولأنه كان لا يريد أطفالاً من زوجة أخيه المتوفى حيث كان مضطراً للزواج بها بعد وفاة أخيه حسب قوانين الزواج اللاوى ولذلك كان يبتعد عن تلك المرأة في حالة قذف المني حتى لا يدخل ماءه في فرج هذه المرأة . بمعنى أدق فإن هذا هو « الجماع المتقطع » ولذلك فإن شبرنجر يريد أن يقول هنا على الأقل أن محمداً كانت عنده عادة الاستمناء وهي تعنى في المعنى المعاصر « العادة السرية » ولكن هذا ليشهد على حقاره ودناءه من جانب شبرنجر .

وينهى هذا الفصل متهمًا محمداً بالنزعة الجنسية المفرطة أى النشاط الجنسي المحموم الناشيء عن رغبة جامعة *Satyriasis* والمقابل له عند النساء هو الشبق *Nymphomanie* ، وتناقش الآن هذه القضية التي أثارها شبرنجر تحت دعوى القواعد العلمية . ولكنها لم تكن سوى اتهام تقليدي من القرن الثامن عند الكتاب البيزنطيين وعلى رأسهم « ثيوفان » (١) المتوفى ٨٢٠ .

ولكن قبل أن ندلّى برأينا ، نسوق أراء المستشرقين الذين فندوا حجة شبرنجر .
١ - نسوق أولاً رأى « تور أندريا » .

حيث يقول : « لقد انتهينا منذ وقت طويل من هذا النص (أحد الأحاديث التي رواها آنفاً) من أن محمد كان مصاباً بالصرع . وقد اكتشف كتاب بيزنطيون

(١) ثيوفان - الواقع التاريخية - ط . دوبورا - (ص ١٣٤) .

هذا الألم وبعد وقت طويل وصف بعض الكتاب الغربيين محمداً بهذا اللقب الذي يعد إلى حد ما مدحًا حيث اعتبروه عدو المسيحية المدود . وحتى في العصر الحديث فإن هناك بعض الكتاب ما يزالون يقعون في نفس الخطأ بتأثير بعض إنجازات الطب النفسي التي لا تعدو السطحية العلمية . وأصبح في حكم الموضة القول بأن الحالة النفسية يمكن أن يأتي الوحي من خلالها كما يفعلون نفس الشيء حين يحددون كل الحالات النفسية من الرعدة وفقدان الوعي الفجائي بأنها أعراض صرع . وبالطبع فسيقال إن محمداً كان مصروعاً . ولكن إذا طبقنا هذا المصطلح على الحالات المرضية الخطيرة حيث يكون للمرض عواقبه الوخيمة على الجسم والروح فإننا سوف نحترم إذاً ونقبل بالزعم بأن محمداً كان مصروعاً . وهنا لن نستطيع في هذه الحالة أن نتحدث عن الحالة التي نسميها مرضية لأن الملم يكون له عقريات أخرى أديبة أو دينية بدعوى أنها تظهر في أشكال واضحة - تخرج من مشكاة واحدة .

ومن ناحية أخرى ، فلتتفق على أن نولى أهمية للروايات التي وردت في السنة وهي متعلقة بنزل الوحي على النبي . فبعض الملامح المنفصلة لهذه الروايات يمكن أن تكون دقيقة وتفق مع ما نعرفه عن الذين يلهمون عادة . وذلك مثل صلصلة الجرس وانفجار الحرارة . وهذا يحدث غالباً . ولكن المناخ العام في المجتمع الإسلامي القديم مع قسوته وشدته يفسر لماذا يحمل الخيال على زيادة الوزن الملحوظة مما يجعل من بتلقى الوحي يسقط على الأرض ... إنه لمن الصعب أن نستخلص نتائج نفسية من تلك المعطيات التقليدية عن حال محمد وقت نزول الوحي (١) .

٢ - « فرانس بول » يناقش هذا الموضوع من وجهة نظر صدق محمد حين يتحدث عن نزول الوحي الذي يستقبله والأشياء التي يراها فيقول (٢) :

« كيف يجب الحكم على هذه الرؤى والوحي بصفة عامة وهو القرآن ! لقد

(١) تور أندريرا - محمد - حياته ومذهبه ، الترجمة الفرنسية - (ص ٥٠ - ٥١) .

(٢) فرانس بول - حياة محمد (ص ١٣٨) ، ليزيج (١٩٥٥) ، وكانت الطبعة الدانماركية الأولى قد ظهرت عام (١٩٣٢) وقام بالترجمة الألمانية هـ . هـ شادر وظهرت عام (١٩٢٩) والطبعة الثانية عام (١٩٥٥)

كان يحكم على هذه الأشياء في وقت ما بشكل متسرع وبسطحة حيث يوصف محمد بأنه كذاب وتصف رؤاه بأنها مخترعة ومحض خيال وتأملات . وفي انتظار البحث ، أثبت العلم المعاصر أن مثل هذا التفسير ليس سطحياً فقط من وجهة النظر النفسية ولكنه أيضاً يتعارض مع الحقائق الثابتة والتي نجدها في القرآن والسنّة . ولذلك فما من شك في أن محمد في رؤاه كان في حالة يرى فيها حقاً أشكالاً معينة ويسمع أصواتاً . تماماً مثلما وصف هو في أحاديثه . وفي سلسلة من الأحاديث يروى كيف أن وحي النبوة كان ينزل عليه فبسط في حمى شديدة وتنفلي قطرات العرق جبهته ، ويتغير لونه ويصبح وجهه أحمر كما لو كان محموماً حتى لو كان في يوم شديد البرودة من أيام الشتاء ويتنفس بصعوبة بالغة تشبه غطط البعير . ويجب ساعتها أن يغطوه جيداً ويضعوا وسادة من الجلد تحت رأسه .

ويقول محمد عن نفسه في هذه الحالة أنه يسمع صوتاً يشبه حديث الرجل إلى الرجل ومثل صلصلة الجرس وهذا يكون شاقاً عليه .. وفي الحقيقة إن هذه الأوصاف ضمنت قبل كل شيء أن تساهم هذه الحالات الغريبة أكثر من غيرها في تقوية الإيمان الذي لا يتزعزع من قبل أصحابه في المصدر غير البشري للوحي الذي ينزل عليه ما جعل واحداً مثل « عمر » الذي كانت له نظرة ثاقبة في العيوب البشرية للنبي لم يشك أن الله استعمل محمداً ليحمل رسالته . وكانت هذه الأعراض هي التي أعطت الفرصة لأعدائه لاتهامه بالاتصال بالجinn ... وهنالك دليل آخر على صدق ما قال وهو ما كان معروفاً منذ وقت مبكر وانتشر بين الناس من أن محمداً كان يعاني من حالات مرضية وغير عادية مما يعتبره البعض صرعاً . ولكن لأن محمداً كان يحفظ بوعيه طوال هذه الأعراض فإن تفسير حالته بالصرع لا يكون دقيقاً . فلتترك للأطباء التفسير أن يحددوا بعينية طبيعة هذه الحالة . وحسب الأحاديث الروية فإن حالته يجب أن تفسر على أنها « هلوسة سمعية » ومع ذلك فإنه يوجد في القرآن أوصاف للهلوسة البصرية والتي يمكن أن نسميها بفضل الوصف المحفوظ بأنها « محشمة » وهي تشتمل على دليل جديد أنه من الظلم والخطأ أن نظن أن محمداً كان مخدعاً أو كاذباً . وفي سورة النجم « ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (آية ١٧ ، ١٨) ، ويجب أن نضيف هنا ما جاء في سورة التكوير : « إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمحنون ،

ولقد رأه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ﴿
 سورة التكوير الآيات من ١٩ - ٢٥﴾ ، والكذاب لا يتكلم هكذا ، ولكن الذى
 يتكلم هكذا رجل مقتنع تماماً بحقيقة ما رأى ووعيه تام قائم على حقيقة ما رأه
 (السابق ص ١٣٨ إلى ١٤٠) .

وينهى « بول » كلامه قائلاً : « إننا لا بد أن نصل إلى فهم كامل لشخصية
 محمد عندما ندقق فيما كانت عليه حاليه فى الفترة الأولى من ظهوره فى مكة وقد
 كان على خلق عظيم وشخصية مستقيمة ونمودجة بشكل يسترعى الانتباه (السابق
 ص ١٤١) ، ولكن شخصية محمد فى مكة بعد ذلك سرعان ما طرأ عليها تغير
 حسب ظروف حياته هناك والتى كانت تتطلب كثيراً من الاعتبارات الواقعية
 والتحفظات التى يملها الموقف ، ولكن وكم يقول « بول » يجب أن تكون
 حذرين فى توجيه مثل هذا الاتهام إلى محمد وهو رجل ظل حتى آخر رقم من
 حياته مقتنعاً تماماً بحقيقة المصدر الإلهي لرسالته وحتى ساعة موته لم يشك لحظة
 فى هذا الأمر . ولذلك لا بد أن نصل إلى الحقيقة عندما نفترض وجود عارض
 نفسى كان من الممكن لمحمد بواسطته أن يتذكر هذه الظروف المرضية دون أن يكون
 واضحاً أمام عينيه ودون أن يلاحظ أى فرق فى الموضوعية بين الأعراض الناشئة
 عن هذا المرض وتلك التى كانت تحدث له قبل ذلك . إن المقدرة العقلية لرجل
 كهذا المفروض أنه مصروع هو ظاهرة تنطبق تماماً وتتفق مع الحكم عليه بمنطق
 بسيط سهل أنه رجل طبيعى يخلو من المرض (السابق ص ١٤٢ - ١٤٣) .

وبهذين الرأيين لكل من « تور أندريا » و « بول » كم نحن بعيدين عن
 الافتراضات التى لا يمرر لها والتى تم عن سوء نيه من جانب « شبرنجر »
 ولنلخص هنا أراد تور أندريا وبول :

(أ) « تور أندريا » يرفض الإدعاء بأن محمداً كان مصروعاً .

(ب) الحالة التى كان عليها محمد إبان نزول الوحي لا يمكن أن توصف بأنها
 حالة « مرضية » إن لم توصف بأنها إلهام لكثير من العبريات الأدبية والدينية
 بدعوى أنها تظهر فى أشكال واضحة وتنبع من مكان واحد .

(ج) يجب التحفظ من أن نولى أهمية كبيرة لروايات السنة المتعلقة بنزول
 الوحي على النبي .

(د) الوحي النبوى هو التعبير الطبيعى والضرورى عن الاقتناع القوى » .

هذه القضايا الأربع تكفى لدحض افتاءات شبرنجر وأمثالها في هذا الصدد . كما أنها تمثل تقدماً ملحوظاً في الفهم الدقيق والعادل لشخصية محمد . ولأن كتاب « تور أندريا » ، قد ظهر عام (١٩٣٢) ، فإنه يمثل أيضاً تقدماً ملحوظاً بالقياس إلى كتاب « بول » حيث ظهرت منه الطبيعة الدائمة لشخصية محمد عام (١٩٠٣) .

(أ) لأن بول يؤمن بصدق الروايات المتعلقة بالحالات المصاحبة لنزول الوحي فإن يفتقد روح النقد تجاهها .

(ب) بول ليس مقتنعاً تماماً بما يقوله شبرنجر وهو أن محمدًا كان مصاباً بالهيبستريا ولكنه لا يذكر ذلك إلا بشكل عارض (ص ١٢٢ ، ١٨١) ، مؤكداً أن الأمر ظاهرة معقدة ولذلك لا يمكن أن تتطابق ببساطة مع المنطق لأنه لا يجوز الحكم على محمد كحكمنا على رجل عادي .

(ج) يؤكّد « بول » مثله مثل « تور أندريا » أن محمدًا كان صادقاً حينما قال أنه يتلقى الوحي لأنّه كان مقتنعاً تماماً برسالته حيث اعتقد اعتقاداً جازماً أنه يسمع صوتاً من أعلى يتلو عليه القرآن .

وهكذا نرى أن قضية إصابة محمد بالهيبستريا أو بالصرع قد تخلّى عنها المستشرقون منذ بداية القرن العشرين ولم يعودوا يتكلّمون عنها إلا ذكرى تاريخية ولكنها تركت المجال لكثير من الشروح الأخرى .

ولكن قبل التعرض لتلك الشروح الأخرى نعرض لتناول هذه القضية من جانب « شبرنجر » :

١ - كما أوضح « تور أندريا » ، فإنه يجب الخذر في الوثيق بالروايات المتعلقة بالحالة النفسية والبدنية لمحمد إبان نزول الوحي . وهي القصص الموجوّدة تحت اسم أحاديث لدى كتاب السنة أو السيرة (وخاصة ابن إسحاق وابن سعد) ، ويجب في هذا الصدد أن نذكر أن هذه الآثار ليست أحاديثاً بالمعنى الدقيق للغرض أى كلام النبي أو أفعاله ولكنها ملاحظات من جانب من كانوا حول النبي مثل : زيد بن ثابت وعبادة بن الصامت وابن عباس وعائشة . وهذه الملاحظات لا تتطلب حتى عناء تحقيقها مثلما هو الحال في أحاديث النبي نفسه ويجب أن

يساورنا الشك فى علاقه الملاحظات التي ينقلها الرواية عن أصحاب النبي بكلام
الرسول نفسه .

٢ - حتى هذه القصص تأتى حقا من أناس معروفين بالاسم وهؤلاء الناس يعتقدون بوجود ظواهر غير عادية أثناء نزول الوحي تحت تأثير انتظار الوحي وقد اعتقدوا بحدوث أشياء غير عادية ولكن الأمر لا يعود أن يكون عاديا وطبيعا . وهو أمر يحدث دائما ونراه كل يوم . وأتباع أى رجل عظيم متحمسون له يعتبرون أن ما يرونه من جانبه من أحداث بسيطة كأنها أحداث غير عادية وهذا ما جعل الناس يتصورونها كذلك - ما هو الغير عادى أو غير الطبيعي فى أن ينضج العرق من جبين محمد فى يوم بارد حين تعرية أشجان قوية ، وكمثال بسيط على ذلك نذكر حالة أنور السادات فى الكنيست فى القدس فى نوفمبر (١٩٧٧) حيث كان جبيه يتسبب عرقا طوال الوقت ولكن لم نجد فردا واحدا يقول : إن هذا العرق فى هذا المكان البارد كان أحد أعراض الهيستيريا !

وما هو الغريب فى إنسان مشغول بمشروع أو فكرة مهمة حين يعتقد أنه يسمع من داخله صخبا مثل صلصلة الجرس وصوت محدث يهمس إليه بشيء ما ؟
إذا فهو خيال شهود الواقع الذى بالغ فى الموضوع وحول الأحداث العادية إلى دراما .

إنه لمن المدهش أن هؤلاء المستشرقين الذين يتسرعون فى نقد الأحاديث يصدقون بسهولة الأحاديث المتعلقة بحالة النبي خلال استقبال الوحي .

٣ - وكما لاحظ « موريس جودفروا ديموبين (١) (ورأى الآخرون فى محمد إنساناً مصروعاً وعرفوه بأنه كاذب وغير مسؤول - لكن الصرع يسلب ذاكرة المريض بينما القرآن كتاب معتبر ويدل على انتهاه وفصاحة » .

في الواقع ليس هناك أكثر عيناً من وصف محمد بأنه كان مصاباً بالهيستيريا أو بالصرع إن تصرفاته قبل البعثة وبعدها حتى موته تشهد بعدم وجود أية علامة على

(١) موريس جودفروا ديموبين - محمد - (ص ٧٢) ، باريس الطبعة الثالثة (١٩٦٩) .

إصابةه بالهيستيريا أو الصرع أو الاثنين معاً . لنرى مقاماً هي أعراض الهيستيريا وكيف كان سلوك محمد طبيعياً مضاداً تماماً للهيستيريا :

(أ) المصاب بالهيستيريا قابل للتأثير مع اتجاه للتشبه بالأمراض العضوية ^(١) .

بينما يتفق كل كتاب السيرة المسلمين على التأكيد على صلابة وقوه احتمال واستقرار نفسية محمد أمام كل العوامل الخارجية وقد كان ذا سلوك حازم بما لا يدع مجالاً للشك .

(ب) المصاب بالهيستيريا يخاف من الانزعاج ويسير في سلوكه تبعاً لسلوك الآخرين ^{*} بينما لم يكن لدى محمد أى خوف من أن يزعجه أعداؤه ، ناهيك عن أنهم أقارب المقربين ولا أى من لا يؤمنون برسالته فلقد كانت حياته منذ نزول الوحي كفاحاً مستمراً لم تخل من الاهتمامات . وأى محارب مثابر لا يمكن أن يوصف بأنه يخاف من الانزعاج .

(ج) إن شخصية المصاب بالهيستيريا شخصية متقلبة وفجة مع أنانية مفرطة وحاجة إلى الحماية تظهر بوضوح .

وكل هذا أبعد ما يكون عن شخصية محمد حسبما تورد شهادات معاصريه فلقد كان لمحمد شخصية قوية في صلابة الصخر وكان دائماً ثابتاً كما تشهد علاقته بأصحابه على إيمانه لا ينقطع في أشد حالات حياته خاصة ، وحتى صار كرمه ورحمته تجاه أعدائه الذين اضطهدوه كثيراً مضرب الأمثال (انظر تصرفه مع أعدائه المكين بعد فتح مكة)

(د) تستمر الأضطرابات الجنسية عند المصاب بالهيستيريا وقد تصل أحياناً إلى العجز الجنسي وهذا بالضبط خلاف ما أثبته كتاب السيرة المسلمين الذين يزعمون حتى أن مهدياً على عكس ذلك كان فيما يخص الناحية الجنسية له قوة ثلاثة رجال . وقد كانت هذه إحدى الاتهامات التي ركز عليها الكتاب المسيحيون الأوبيون ضد محمد : فقد اتهموه بالإفراط الجنسي .

(هـ) « المصاب بالهيستيريا يؤلف عن نفسه قصة ويضخم تفاصيل حياته اليومية

(١) اقتبست هذه الأوصاف من مقال « الهيستيريا » في « لاروس الجديد » قاموس طبي - باريس (١٩٨٦) (ص ٥١٤)

ويذكر بسهولة بعض الذكريات ويعطي من حوله إحساساً بعدم صدقه في حديثه أو حركاته » .

وهذه الأشياء متناقضة تماماً مع سلوك محمد . فلقد كان يسمى دائماً «الصادق الأمين » ولم يتحدث عن تفاصيل حياته اليومية ولم يؤلف أو يتظاهر بشيء غير حقيقي أمام الناس ولذلك فقد أخبر أتباعه بفضل صدقه وحسن سيرته وتواضعه وكذلك لاعتيادهم على صدقه أجبرهم على طاعته كما لم يعط أى انطباع لمن حوله عن عدم صدقه وإلا لما كان من الممكن أن ينجح في وقت قصير (عشر سنوات) ، في تحويل الجزيرة العربية كلها إلى دين الإسلام . إذا لم تظهر أى من أعراض الهيستيريا في سلوك محمد طوال حياته .

ومن باب أولى فإنه لم يكن مصاباً بالصرع حيث أعراض الصرع تظهر بقوة وبعنتف ويوصوح وفي الواقع لم يرو عن محمد حدوث أى أزمة من أزمات الصرع حيث لم يحدث له أن فقد التركيز أو حدثت له تشنجات شاملة أو أى أزمة استمرت لساعة أو ساعتين ولم تحدث له أزمة كان يمكن أن يفقد فيها السيطرة على بوله ، وأخيراً لم يحدث له أن فقد الذاكرة إذ إنه لمن الغباء أن نرى «شبرنجر» يصف محمداً بأنه مصاب بالهيستيريا وحتى الصرع وأن يكرر مستشهاداً كما يزعم بالتحليل النفسي وكل تلك الافتراضات السخيفة التي أطلقها ثيوفانس والكتاب البيزنطيون الآخرون .

ولكن بحلول النصف الثاني للقرن التاسع عشر كان التحليل النفسي هو الموضة السائدة بفضل « جان مارتان شاركون (١٨٢٥ - ١٨٩٣) » و « بير چانيه (١٨٥٩ - ١٩٤٧) » من الفرنسيين و « شونلين (١٧٩٣ - ١٨٦٤) » و « بيرنر (١٨٤٢ - ١٩٢٥) » من الألمان والنساويين .

وكانوا يفسرون العوريات العظيمة في العلوم الإنسانية في ضوء البحوث النفسية . وقد رأوا أن العورى شخصية غير عادية ولذلك فهو مصاب ب نوع من الجنون . وكان يكفي أن يكون الإنسان أعلى من سواد البشر ليوصف بالجنون . وقد ظهر أدب واسع في نهاية القرن الماضي وصل فيه هذا التوجه إلى قمته . وقد وصل هذا الاتجاه إلى متها مع « فرويد » وتلامذته . ونذكر من ضمن أشهر ضحاياهم : « دستوفسكي » و « نيشه » و « بودلير » و « كليست » و « هودرلن »

و « شترنوبيرج » و « فان جوخ » وفي كتاب يسمى « الانحطاط » للكاتب المجرى « ماكس نوردو » (١٨٤٩ - ١٩٢٣) ، وهو كتاب ظهر عام (١٨٩٢) في جزئين، يرى الكاتب أن كل العبريات العظيمة تقريراً كانوا مجانين : وبنفس الروح كتب « شبرنجر » هذه الصفحات حول النبي محمد (م杰 افصل ٣ ص ٢٠٧ - ٢٦٣).

٤ - محمد : صوفي ؟

ويشكل عبئي وحتى يتخلوا عن تلك الدعوى القائمة على غير أساس من أن محمدًا كان مصاباً بالهisteria أو بالصرع بحث المستشرقون عن تفسير آخر حالات النبي قبل وأثناء نزول الوحي .

وهذا التفسير الآخر يستند على النظر إلى محمد باعتباره ضلوفيليا . وال فكرة ليست جديدة حيث رأى المتصوفة المسلمين في محمد قدواتهم الروحى على طريق التصوف حيث نجد فصلاً في كتابات متصوفة المسلمين بعنوان « الاقتداء بالنبي » (١) .

وكان أول مستشرق يعتمد ذلك التفسير هو « لويس ماسينيون » Louis Massiynon في رسالته « مقال عن أصل المعجم الفنى للتتصوف الإسلامى » (باريس ١٩٢٢) وفيه أوضح كيف أن الحالات الروحية التي كانت تحدث لمحمد عشية بعثته وبعد الوحي مشابهة للحالات الروحية للمتصوف الذى لم يصل بعد إلى حالة « الواصل » .

ثم جاء « تور اندربيا » في كتابه « نفسية المتصوفة » ليؤكد أنه « يوجد في ظاهرة الوحي نوعان مختلفان : السمعي والبصري . في النوع الأول يسمع صوت يتحدث إلى الأذن أو إلى النفس - والكلام الذى يطلقه الموحى إليه يظهر غالباً في شكل واضح ومحدد وغالباً منظوم . ونجد أمثلة كثيرة من هذا النوع من الوحي لدى الشعراء الفنانين : ولا يعمل المرء شيئاً ولكن يسمع فقط « كما لو كان شخص غير معروف يتحدث إلى الأذن » كما كتب « الفريد دوموسيه » .

وعلى العكس من ذلك النوع المرئي حيث يعتمد الوحي على رؤى قابلة للتشكل ومتمازية أحياناً ولكنها غالباً غير مؤكدة ومتقلبة وخيالية مثل رؤى

(١) انظر كتابنا « تاريخ التتصوف الإسلامى » م杰 ١ الكويت - (١٩٧٥) .

الأحلام . وقد تكون مصحوبة بأفكار تشكل نوعاً من النص الذي يشرحه ويضفي عليها معنى الرؤى - إنها أحياناً عمق غامض ومغري يجعل العقل يخمن أنه لن يفهمها صراحة . وألوان الوحي هذه تتميز بتمامها وكثرة تفاصيلها وتدخلها . والوحي السمعي أو الغنائي يقترب نفسياً من الإطاء العاطفي . بينما يقترب البصري من الحالة المرضية .

ومحمد يتمي بكل تأكيد إلى النوع السمعي . وكان الوحي الذي يسمعه عبارة عن صوت اعتقاد أنه صوت جبريل ^(١) .

ولكى يشرح الروايات المذكورة في السنة وال المتعلقة بحالة محمد إبان الوحي يؤكّد تور أندربيا أن الوحي « يأتى بصحبة حالة نفسية خاصة وهى : اضطرابات حقيقة ، أو عميقة وغياب الشعور وخاصة في النوع المرئي ويصل ذلك أحياناً إلى فقد الشعور تماماً » (السابق - ص ٤٨) .

ولكن التفسير الخاص بتصرف محمد له حدود يجب أن تحدد فمحمد لم يكن صوفياً على طريقة الخلاج أو البسطامي أو ابن عربى ولا حتى على طريقة الغزالى أو الجيد . ولكنه كان عبارة عن تزيد في تقوى الله مع الاحتفاظ بالشعور دائماً وإلا لما كان من الممكن أن يكون هذا المنظم العظيم لدولة كبيرة ولا هذا المخطط الكبير للحروب ولا هذا السياسي العظيم في تصريف شئون الدولة . ولذلك فمن المستحيل أيضاً أن تقارن تصوفه بأى تصوف آخر عبر التاريخ . وإذا كان متتصوفاً فهو متتصوف من نوع متفرد .

وإذا كان متتصوفة المسلمين قد حاولوا تبع مظاهر التصوف عند النبي فليس ذلك لشيء سوى دعم قضيتهم في مواجهة الهجمات التي كانت تتوالى عليهم من معسكرات الفقهاء وعلماء التوحيد . ولذلك فالإعلان عن أن نموذج التصوف هو النبي محمد هي كسب لنصف - إن لم يكن كل - المعركة .

في الواقع إن التصوف عند محمد كان محدوداً في نطاق الزهد والنسك المعتدل والخلو الروحي في غار حراء والصلوات التهجدية طوال الليل والصيام . باختصار لم يكن لدى محمد من التصوف سوى الحد الأدنى المطلوب لمؤسس دين .

* * *

(١) تور أندربيا - محمد - حياته و沫ذهب . الترجمة الفرنسية (ص ٤٧ - ٤٨) .

الفصل الثاني

حسية الرسول المفترى عليها

وهذه قضية أخرى لطالما أثارها دارسو الإسلام والكتاب الأوليون وهي الشبق الجنسي عند محمد وحاجتهم الوحيدة التي يسوقونها هي أنه تزوج بثلاث عشرة امرأة فلتذكر بداية آراء بعضهم في هذا الموضوع

١ - « شيرنجر » (حياة محمد وثقافته مج ٣ ص ٦١ - ٨٧) ، وقد خصص ملحاً (في الفصل ١٧) بعنوان « زوجات النبي » ، حيث يعتمد في هذا الفصل على كتاب الطبقات لابن سعد (ج ١٢) ، حيث يعطي نبذة مختصرة أو مطولة عن كل زوجة من الأربع عشر ويتحدث أيضاً عن نساء ملك اليمين أى الإمام ومن أعطوا هدية للنبي ويدرك منهم مارية القبطية .

وبعد أن ذكر تلك التصنيفات وهي حشو من الملاحظات غير المطلوبة فيما يخص النبي ساق شيرنجر هذا التعليق .

« بربعم أن تعدد الزوجات بين العرب قبل محمد كان شائعاً ألا أن الإفراط فيه كان يعد عملاً غير أخلاقي ولذلك وجد محمد أنه لا بد أن يهدأ الرأى العام بوجه خاص : فلقد أباح الله له في الآية ٤٩ من سورة الأحزاب الحرية المطلقة في عدد و اختيار الزوجات أكثر من بقية الرجال وقد أراد المسلمون أن يبرروا ذلك وقد استلزم ذلك منهم بعض الصعوبات القليلة حيث كانت واحدة فقط من زوجاته هي التي أنجبت ولكن تختم عليه هو نفسه أن يعترف أن الهدف الذي كان ينشده من وراء الزواج قد فشل في تحقيقه نتيجة طريقة في المعيشة ولذلك فإن الهدف الوحيد من وراء الإفراط في عدد الزوجات هو ما أوضحه محمد بن نفسه في حديث صحيح حيث يقول « حب إلى من دنياكم النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة » . ويرصيده المسلمون أن النبي ﷺ كان مكلفاً بهمة شاقة وأن الله عوضه عن ذلك بالمتعة الجنسية ولهذا فقد كانت قوته الجنسية أكثر من قوة ثلاثين رجلاً مجتمعين ولم ينس في هذا الصدد أن يذكر حالة إبراهيم وداود وسليمان (مج ٣ ص ٨٦ - ٨٧) ولنا الملاحظات التالية على تعليق « شيرنجر »

(١) لقد كان تعدد الزوجات عند العرب قبل الإسلام غير محدود ولم يلام

على أي عربي قبل الإسلام لزواجه بعدد كبير من النساء وليس هناك أى نص يدل على اللوم من هذا التصرف وحتى الزواج بأكثر من واحدة لا لوم عليه في الإسلام بشرط أن لا يزيد على أربع نسوة مرة واحدة في نفس الوقت ونحن نعرف مثلاً «أن على بن أبي طالب» صهر النبي والخليفة الرابع قد تزوج بأكثر من مائتي امرأة وأن ولده الحسن وكثير من أئمة الشيعة قد تزوج كل منهم بأكثر من عشرين امرأة وقد تزوج المغيرة بن شعبة بأربع وعشرين امرأة خلال حياته^(١) وفي أيامنا هذه نجد ملوك وأمراء الخليج يتزوجون عشرات المرات.

(ب) الآية ٤٩ من سورة الأحزاب لا تتناول أى لوم من جانب الرأي العام للنبي فيما يتعلق بعدد و اختيار الزوجات إنها تحدد حدثاً معيناً وهذا هو نصها : «يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهب نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين» [الأحزاب : آية ٥٠].

كلمة «من دون المؤمنين» تعود فقط على «المرأة المؤمنة» التي تهب نفسها للنبي إن أراد أن يستنكحها «وذلك يعني أن النبي له الحق في الزواج بهذه المرأة فقط ليس إلا ، إذاً فبأى حق نفترض هذه الجملة من الآية على أنها رد على لوم وجهمه الرأي العام للنبي فيما يتعلق بادعاء تمييز للنبي أن يكون له عدد كبير من النساء أكثر من غيره من الناس وحسبما يورد مفسرو القرآن المسلمين فإن التمييز الوحيد للنبي في هذه الآية يعتمد فقط على أن محمداً له الحق في أن يتزوج من امرأة وهب نفسها له إن وافق على الزواج بها دون أن يتحتم عليه دفع مهر لها وقد ذكروا حالة «زينب بنت خزيمة» المعروفة «بأم المساكين»^(٢).

(١) انظر «ألف ليلة وليلة» مجل ١ ص ٣١٩ ، سميث ، التسرى والزواج في الجزيرة العربية .

(٢) انظر الطبرى : مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٥ ص ١٥٥ بيروت - مكتبة الحياة . وقد قيل نفس الشيء عن ميمونة .

ومن هذا المثال يتضح لنا بجلاء كيف أن المستشرقين قد أساءوا فهم القرآن واستخلصوا نتائج خاطئة ولسوء نية فقد حرفوا فهم النصوص الواضحة لا سيما القرآن

(ج) وقع في نفس الخطأ « فرانتس بول » حيث أكد بكثير من الصلف كما هو الشأن طوال كتابه الذي يطعن بالكراهية والتعصب ضد محمد والإسلام ، وفي رأيي إن كتاب فرانتس بول « حياة محمد » هو أحد أكثر الكتب حقاره عن النبي والإسلام

وهذا ما قاله : « إن محمداً يبدو لنا بصورة مثيرة للاشمئزاز : حين يجعل الوحي في خدمة شبقه الجنسي ومحاوله نفي التهمة عنه هي مشروع جرىء لكنه بلا أمل ويدرك في مسحوظة خاصة كمثال على هذه المحاولة القول بأن محمداً تزوج هذا العدد الكبير من النساء ليتألف القبائل . ولكن يوضح عدم كفاية هذا التفسير فإنه يذكر حب محمد لزوجة ابنته بالتبني « زينب بنت جحش »

ثم يواصل حديثه هكذا « لقد ذكرنا أنه منذ وقت مبكر تزوج خديجة ولم يتزوج بأمرأة أخرى طوال حياة خديجة ولكن بعد موتها تزوج من جديد ومن ذلك الحين لم يكفه عدد نسائه عن الزيادة ثم سمح لصحابته حسب قانون سنه بالمدينة حسب تفسير نبوى للآلية ٣ من سورة النساء بأن يتزوجوا حتى أربع نسوة وما ملكت أيديهم من الإماء مما طاب لهم ثم بعد ذلك فيما يخصه هو بالغبن من جزء هذا التحديد فسمح لنفسه دون سائر الباقيين بنكاح ما شاء من النساء حسب الرخصة الإلهية المذكورة في آية « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك ... » الآية الأحزاب آية ٤٩ وقد بينا في معرض حديثنا عن شيرنجر هذا التفسير لتلك الآية ما لا يستلزم تكراره حيث لم يفعل بول سوى تكرار ما قال شيرنجر من هذيان

أما عن الملحوظة التي ساقها على هامش كلامه (ص ٣٦٠) فستتناولها فيما بعد .

٣ - « تور أندريرا » (١) وقد قال ما يلى في هذا الموضوع :

(١) تور أندريرا - محمد - حياته ومذهبة الترجمة الفرنسية (ص ١٨٧ - ١٩٠) .

« إن السمة التي نفرت المسيحيين الغربيين من سلوك محمد هي بلا أدنى شك إفراطه الجنسي وافتقاده لضبط نفسه والسيطرة عليها في هذا الشأن وذلك يبدو لنا أوضح إذا قسناه بأخلاق مسيحيي القرون الوسطى الذين ورثوا التنشك القديم . والذين كانوا يبالغون في النص على الآثم التي ترتكب بدافع جنسي : فالأخطاء المرتكبة في هذا الميدان تعد أخطاء لا تغفر ولذلك فإن يهود المدينة وجدوا أن سلوك محمد في هذه النقطة مصدوم وقالوا : « يا له مننبي غريب ذلك الذي لا يفكر إلا في الزواج » ، وما لا يمكن إنكاره أن نبيا يعلن أن النساء والأطفال هم زينة الحياة الدنيا ثم يجمع لديه من الحريم تسع نساء وكثيراً ما ملكت يمينه يبدو محل شك من الناحية الأخلاقية . ولا ينفعه في شيء التأكيد على أنه حتى موت خديجة وحتى بلوغه الخمسين من عمره اكتفى بزوجة واحدة . فقد كان قمة تصرفة حين أوهنت قواه السنون ترك العنان لغرائزه الجنسيه « إننا لا نحكم على النبي محمد حسب مفهومنا الأخلاقي ولكن حسب أخلاقه التي أعلنها وذلك حتى نفهم رأيه في هذا الصدد فإننا يجب أن نتعرف على عادات الجزيرة العربية قبل الإسلام والظروف التي جعلت من سلوك محمد الجنسي نشازاً بين العرب ولا يجب أن نعجب إذا كانت هذه الأخلاق الجنسيه التي نحكم عليها بطبعنا ذات مستوى متدن . فلقد كان تعدد الزوجات أمراً شائعاً . وقد كان عدد النساء في أحيان كثيرة يتجاوز ما يكفي لتعة الإنسان . وكان الطلاق يحدث وبلا مراسم وحين نضع أمامنا هذا المفهوم العربي للأخلاق المتعلقة بالزواج فإن شهوانية محمد بشكل مختلف . إننا نجهل بشكل موضوعي ما إذا كان المعاصرون لمحمد قد رأوا أن سلوكه مصدماً أو أقل قبولاً . وعلى أي حال فإنه من المسموح به أن نفترض أن توبيراً من جانب المسلمين جعل محمداً يحدد في سورة الأحزاب آية ٥٢ عدد زوجاته ، وقد أعلنت الآية أنه لم يعد مسموحاً لمحمد أن يتعدد زوجات آخريات حتى وإن أتعجبه حسنهن . ومن الواضح أن تميزه عن المسلمين في موضوع الزواج كان قد أحدث غضاضة عند المسلمين . وربما أيضاً كان هذا القرار من محمد عبارة عن تنازل وتنحى لزوجاته وكان هذا لغرض لا نعرفه حيث كان محمد قبل ذلك على خلاف معهم حين هم بطلاقهن جميعاً .

« ويجب أن تقول أيضاً في تراثة محمد أنه التزم بالحدود التي حددها وأنه حاول أن يقلص بتشريعه الحرية الفصوصى للممارسة الجنسيه . ولقد حاول بطرق

عديدة أن يدخل مفهوماً أكثر أخلاقيه في الزواج وكذلك إعلاه شأن المرأة لا سيما في منحها الحق القانوني في الميراث والذى لم يكن يعطى لها إلا مصادفة قبل محمد . وقد أمر بمعاملة النساء بالمعروف واللودة والعدل » ويوضح حديث « تور أندريا » مفهوماً أكثر دقة عن أفكار وتصرات محمد فيما يخص موضوع الجنس والنساء والزواج حيث :

(أ) اعتبر أن تعدد الزوجات عند محمد يجب أن يقارن بمثيله عند العرب قبل الإسلام . وقد أكد أن « عدد النساء كان يمكن أن يكون أكثر بكثير من العدد الذي يشبع رغبات الرجل . بينما حد محمد من مساوى التعدد الغير منضبط حيث أوقف العدد عند أربع نسوة في نفس الوقت وهكذا » فقد حاول بتشريعه إيقاف حرية التعدد الجنسي »

(ب) يؤكّد تور أندريا أيضاً أنّ محمداً قد « أدخل مفهوماً أكثر إلزاماً بالأخلاق في الزواج وأعلى شأن المرأة لا سيما في منحها حق الميراث .

(ج) أكد خلافاً لما أكد أسلافه « شبرنجر » و « بول » « أنتا تجهل موضوعياً إذا كان معاصره محمد قد رأوا في سلوكه شيئاً مصدماً أو أقل قبولاً » ، وبهذا فقد رفض التصور الخيالي لأسلافه

(د) وقد عدل عن رأيه بقصد الحديث عن سورة الأحزاب آية ٥٢ والتي رأى فيها « تنازلاً لنساء محمد لسبب نجهله حيث كان على خلاف معهن وكان قد عقد العزم على طلاقهن جميعاً »

(هـ) وقد كان على حق أن يوضح أن « الأخلاق المسيحية في العصور الوسطى وهي وريثة التنسك القديم وقد بالغوا في الخطية المتعلقة بالغرائز الجنسية . وكانت الأخطاء المرتكبة في هذا الصدد عبارة عن مجرد خطيئة .

ولذلك كان التفكير للمتعة الجنسية لا يعد فضيلة . ولم يكن يستحق التوبيخ في هذا الصدد سوى الازدياد من النساء بشكل مفرط مثله في ذلك مثل الإفراط في أي شيء . في الرهبة ، وفي التشدد الديني وفي التعصب .. إلخ وقد أدان مارتن لوثر المصلح الكبير الرغبة في التنسك لأنّه صعب التحقيق لأنّه الجسد كما يقول لا تقاوم ^(١) وقد دلل على رأيه بأنّ يسوع المسيح لم يوص بالرهبة أو التبتل بل على

(١) دينيل لونتر (ص ٩) الطبعة الثانية . (١٩٤)

العكس فقد أدانهما (السابق ص ٨٠) لذلك فإنه من المدهش من جانب مستشرقى أوربا حسب قانون لوثر أن يلوموا محمداً في هذا الموضوع . وعلى أي حال فإن المفهوم الكاثوليكى للأخلاق الجنسية مفهوم ضيق ومستحيل التحقيق ولا يمكن لأى رجل عاقل أن يوافق عليه . لأنه حسب هذا المفهوم يجب الامتناع مطلقاً عن كل لذة جسدية حتى « المسموح بها في حالة الزواج (١) وقد وصل الأمر بالقديس بولس أن يشرع التبلي للجنسين (٢) وستكون النتيجة الحتمية لذلك هي فناء الجنس البشري . فعلى أي أخلاق يرتكز بولس في هذه النصيحة ؟

(و) ولكن « تور أندريا » يقول بعد ذلك أن « اليهود بالمدينة وجدوا أن سلوك محمد في هذه النقطة يعد صدمة وكانوا يقولون « ما هذا النبي الغريب الذي لا يفكر سوى في الزواج » (السابق ص ١٨٧) .

ولم يحدد « تور أندريا » أي مصدر لهذا الادعاء من جانب يهود المدينة ونحن بدورنا لم نعثر على أي مصدر . وعلى أي حال فإنه من الغريب أن يدللي يهود المدينة بتلك الملاحظة .

أولاً : لأن شريعة موسى تسمح بالتلعديد . وكان لإبراهيم زوجتان على الأقل : سارة وهاجر (سفر التكوين ، ١٦ ، ٢) . وقد تزوج يعقوب بأختين في وقت واحد (سفر التكوين ، ٢٣ ، ٣٠) ، كما كان له كثيرات ملك اليمين هن إماء زوجاته (سفر التكوين ، ٣٠ ، ٤ ، ٩) ، كما كان من ضمن القضاة كثير من العدد (القضاة ، ٨ ، ٣٠ ، ١ ، وقائع ، ٢ ، ٢٦ ، ٥ ، ٤ ، ٧ ، ٨) ، وقد كانت قبيلة « إيساكار » معروفة بمارستها للتلعديد (الوقائع ، ٧ ، ٤) وقبل ذلك يجب أن نذكر حالة داود وسليمان .

وهذا ما أورده العهد القديم في هذا الموضوع :

(أ) صموئيل (٥ - ١٩) « وقد اتخد داود أيضاً نساء وسراري بأورشليم بعد رحيله من « هيبرون » وولدن له بنين وبنات » .

(ب) الملوك ، ١١ ، ١ - ٣ « لقد أحب الملك سليمان ابنة فرعون بشغف ،

(١) توماس الأكويني - أصول الدين ، ١٥ ط ٣ .

(٢) القديس بولس - رسول إلى الكورثيني مج ١ آيات ٢٨ ، ٣٢ .

وكان له عدد كبير من النساء الأجنبية : المزابين ، والأمنيين ، الأديموين ، والسودانيين والحيشيين ... وقد كان له سبع مائة زوجة وثلاثمائة أمة ١.

وهذه العادة من اتخاذ عدد كبير من الزوجات والسرارى كانت عند كل الملوك السابقين على « جودة » و « إسرائيل » (انظر - سفر الملوك ٢٠ ، ٣) .

وخلال العصور الوسطى كان التعدد مباحاً بين اليهود ويرغم صيحات بعض الأخبار منذ القرن الحادى عشر مثل الربي « جرشوم ابن جودة (٩٦٠ - ١٠٢٨) - فإن اليهود لم يتركوا تعدد الزوجات حتى بعد تحريم السريين فى مؤتمر الإصلاح الذى عقد فى فلاديفيا عام (١٨٦٩) .

وبالنظر إلى تلك الحجج يتبين أنه من المستحيل أن يكون يهود المدينة قد أخذوا تلك الملاحظة على النبي .

« أى بحث عن الشهوانية »

نستعرض الآن زيجات محمد ونبحث عما إذا كان فيها شهوانية جسدية أم لا .

١ - أول زوجات النبي محمد كانت خديجة بنت خويلد وقد استمر هذا الزواج ٢٤ عاماً ولم يتزوج النبي معها زوجة أخرى . وقد ماتت عام ٦١٩ م عن ٦٥ عاماً وكان عمرها ٣٩ عاماً حينما تزوجها النبي وقد ولدت له سبع بنات .

ولو كان النبي شهوانياً كما يزعمون هل كان يتحمل هذه الفترة الطويلة مع زوجة واحدة ؟ وهذا دليل لا يدحض على أن النبي لم يكن شهوانياً ولم يبحث عن المتعة الجنسية . لا سيما إذا اعتبرنا أن خديجة كانت في سن متقدمة ومهما كانت جميلة فلا يمكن أن تتحفظ بجمالها وسحرها في العمر من ٥٠ إلى ٦٥ عاماً .

٢ - وكانت الزوجة الثانية هي « سودة بنت زمعة » وكانت زوجة « سكران بن عمرو » أخي « سهيل بن عمرو » وقد هاجر سكران إلى الحبشة مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى هناك ويقول ابن إسحاق أنه رجع إلى مكة بعد ذلك ومات هناك وقد أصبحت زوجته سودة أرملة . وقد تزوجها النبي بعد شهرين من وفاة خديجة في إبريل (٦١٩ م) (عند ابن إسحاق) وماتت حوالي عام (٦٤٣) ولكن ابن سعد يروى أنها ماتت عام (٦٧٤) .

وقد كانت سودة بنت زمعة متقدمة في السن حين تزوجها النبي : ولكنها كانت قد رحلت مع زوجها سكران ضمن جماعة المسلمين التي هاجرت إلى الحبشة . وقد كانت مؤمنة قوية بالإيمان وسيدة بيت من الدرجة الأولى . ولها تين الميرتين تزوجها النبي لأنها كان بحاجة إلى امرأة عاملة وجادة لتربي بناته الأربع اللاحئ تركتهن خديجة . ولم يكن لأى سبب جنسى دخل فى زواج النبي من سودة بنت زمعة ولأنها كانت عجوزاً فقد رأى النبي أنه من الشاق عليها أن يخصص لها يوماً . ولما أحسست بعنت النبي قالت له « لم يعد لي أرب فيما تريده النساء من الدنيا ولكنى أريد أن أحشر يوم القيمة مع زوجاتك وقد تنازلت عن ليلى لعائشة » .

٣ - كانت الزوجة الثالثة هي « عائشة » بنت صديقه الحميم « أبي بكر » الخليفة الأول . وقد خطبها النبي وهى فى السادسة من عمرها وبنى بها عندما بلغت تسع سنين . وقد كان النبي فى الخمسين من عمره إبان الخطبة وفى الثالثة والخمسين وقت الدخول بها . وهى المرأة الوحيدة البكر التى تزوجها النبي حيث كانت بقية نسائه كلهن قد سبق لهن الزواج . وكانت هى الوحيدة بينهن التى يمكن أن تثيره وتشيع حاجاته الجنسية . ولكن النبي فى هذا الوقت كان قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره وهو سن لا يتحمل الإفراط فى الحاجات الجنسية ، وفي الحقيقة إن النبي حين تزوج عائشة فكر فى توطيد صداقته بأبى بكر أكثر مما فكر فى إشباع حاجة جنسية .

٤ - وكانت الزوجة الرابعة هي « زينب بنت خزيمة » من قبيلة « هلال » من بطون هوازن . وكانت قبل زواجها من النبي زوجة لطفيل بن الحارث ثم تزوجت أخاه عبيدة بن الحارث الذى قتل فى غزوة بدر . وعندئذ تزوجها النبي فى شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة (فبراير ٦٢٥) ، وكان عمرها ٢٨ عاماً ولكنها ماتت بعد ثمانية عشر شهراً ولا يمكن القول بأن هذا الزواج كان لباعث جنسى من جانب النبي لأنها كانت تكبر زوجته الجديدة عائشة بسبعين عشرة سنة وكان قد تزوج بعائشة منذ ستين . ولا تكفى ستان ليمل الرجل من امرأة شابة وجميلة مثل هذه .

ولكن هذا الزواج كان لسبعين : تضميد آلام أرملا شهيد سقط فى معركة مجيدة وحاسمة هي معركة بدر والارتباط بقبيلة هوازن القوية .

٥ - والزوجة الخامسة كانت « حفصة » بنت « الفاروق عمر بن الخطاب » الخليفة الثاني وكانت قبل ذلك زوجة « خنيس بن حذافة » الذي مات متأثراً بجراحه في غزوة بدر وأحد . وقد تزوجها النبي في يناير (٦٢٥) حيث كانت تبلغ من العمر (٢٢) عاماً تقريباً وقد ماتت في سنة (٤٥ أو ٤١) هجرية (أكتوبر ٦٦٦ أو ٦٦٦ م) .

وي يكن أن يقال عن هذا الزواج ما قيل عن زواج عائشة وهو : توطيد الصلة مع صديق حميم وصادق وقوى .

٦ - والزوجة السادسة هي « أم سلمة » من قبيلة « بني مخزوم » وكان زوجها الأول « أبو سلمة » ، وقد كان أخاً في الرضاعة وقريباً للنبي لأن أمه « براح » هي بنت « عبد المطلب » وقد كان « أبو سلمة » أحد المسلمين العشرة الأوائل . وقد هاجر مع زوجته إلى الحبشة ورجع وأدرك النبي قبل الهجرة إلى المدينة بشهرين . وقد جرح في غزوة أحد ومع ذلك قاد سرية إلى « بنى سعد » ولكن بعد رجوعه أثخته الجراح التي جرحتها في أحد ومات في ١٠ جمادى الآخرة من العام الرابع للهجرة . وبعد ١٣٣ يوماً تزوج النبي زوجته « أم سلمة » والتي كان لها من زوجها الأول ولدان ويتان . وكان هذا الزواج في مارس (٦٢٦) م .

وكان ذلك لتخفيض آلام أرملة أحد أصحاب النبي والذي قاتل في سبيل نشر الإسلام وقد تزوج محمد هذه المرأة الشجاعة وهي أم لأربعة أطفال في مارس (٦٢٦) وقد ماتت بعد ذلك بنحو (٥٦ أو ٥٥) عاماً في شهر ذى القعدة عام (٥٩ أو ٦٢ هـ) عن (٨٤) عاماً .

٧ - وكانت زوجته السابعة هي « جويرية بنت الحارث » . وكانت قبل ذلك زوجة قصافي من قبيلة بنى المصطلق . وخلال غزوة « المريسيع » (يناير ٦٢٦) أسر كثير من نساء بنى المصطلق بأيدي جيش المسلمين وكانت « جويرية » ضمن هؤلاء الأسرى وكانت من نصيب « ثابت بن قيس » الذي طلب لقاء إطلاق سراحها ١٠ أوقیات من الذهب . وقد ذهبت إلى محمد تستعطفه . فقبل الرسول شفاعتها ودفع فديتها واتخذها زوجة . وعندئذ أطلق كل من كان لديه أسرى من المسلمين أسرىه وقد ماتت جويرية عام (٥٦) هجرية (٦٧٦ م) .
إذا فقد تزوجها النبي شفقة وتوطيداً لعلاقته بقبيلتها حيث كانت بنت زعيم قبيلة بنى المصطلق .

٨ - وصلنا إلى الزوجة الثامنة من زوجات النبي وهي الحالة التي أطلق فيها الكتاب الأولييون العنان لخيالهم بداية من القرن السابع عشر على الأقل . وهي « زينب بنت جحش » من قبيلة « بنى أسد » ، وكان اسمها الحقيقي « براح » ، وقد سماها النبي زينب . وقد كانت ابنة عممة النبي « أميمة بنت عبد المطلب » إذا فقد كانت من عائلة أرستقراطية . وقد اعتنقت الإسلام مبكراً وكانت من الأتقياء . وهذا يفسر خصوصيتها لرغبة النبي حين اقترح عليها الزواج من زيد بن حارثة مولى النبي وولده بالتبني ، وقد وافقت فقط من أجل تنفيذ رغبة النبي التي جاءت في شكل أمر إلى الله في آية ٣٦ من سورة الأحزاب التي تقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُمُراً أَنْ يَكُونُ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمِنْ يَعْصِيَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ، ولذلك فقد كان زواجه من زيد على غير رضاء ولم تقبله عن طيب خاطر وكان بالنسبة لها مصدر شقاء لا ينتهي وكانت تشتكي منه دائماً . ولم يكن من الممكن أن يضم النبي أذنه إلى الأبد عن شكوى ابنة عمته لا سيما وأنه كان المسؤول عن هذه الزبيحة . ولذلك فقد صرخ النبي بما يجب أن يقوله وهو أن هذا الزواج كان من المستحيل استمراره فطلب من زيد أن يطلق زينب ولكي يصلح خطأه في فرض هذا الزواج تزوج من زينب . وهذا كل ما في الموضوع .

ولكن الخيال السقيم والغير منضبط لا سيما من جانب الكتاب الأولييين قد جعل من هذا الزواج « رواية عاطفية » ومن هؤلاء (جودفروا ديموبين) في كتابه محمد (ص ٢٢٥) « شبرنجر » في كتابه حياة محمد وعلمه (ص ٢٦) و « فرانتس بول » في كتابه « حياة محمد » (ص ٣٦٠) رقم (٥) ويلخص جودفروا ديموبين هذا الإدعاء بوجود قصة عاطفية بهذه الكلمات « تؤكد السنة أن محمداً لم يكن يعرف مطلقاً ابنة عمته وأنه منذ زواجهما من زيد لم تسعن لمحمد أى فرصة لمقابلتها وفي يوم من الأيام لم يكن زيد في بيته ولأنه محمداً قد كلام زينب من وراء حجاب وكان هذا الحجاب عبارة عن ستارة سرعان ما لفتحتها الرياح ظهرت زينب أمام عينيه المتعطشتين وهي عارية ومغربية فتراجع ولكن الزوج الذي شك في الحادث أعلن لأبيه بالتبني عن نيته في طلاق زوجته ودون أن يلوجه فقد أوصاه بالا يفعل ولم ينس أن يخفى مشاعر الغيرة في قلبه ولكن وبلا شك فقد انتشرت شائعة عن النوايا السرية للنبي وتقول لنا السنة أن اليهود والمنافقين قد اغتابوا النبي

لأنهم قالوا أن التبني يورث نفس حقوق البنوة الشرعية ولذلك فلا يجوز للرجل أن يتزوج امرأة ابنه بالتبني وعلى ذلك فكان لا بد أن يتدخل الوحي ويلغى التبني ويؤكّد طلاق زينب ويرمي بها بين زراعي النبي » (المراجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦) .

وفي رأينا أن هذه القصة ساقطة للأسباب التالية :

(أ) لا يمكن أن يكون محمد لم ير ابنة عمه مطلقا لأنهم كانوا ذوي قرابة وثيقة ويعيشون في نفس المدينة وقد اعتنقت زينب الإسلام منذ زمن مبكر وأصبحت مسلمة تقية .

(ب) إذا كان محمد لم ير ابنة عمه فكيف يمكن أن يعرض عليها الزواج من زيد بل ويفرض عليها هذا الزواج ؟

(ج) هل يمكن أن يكون النبي لم تسع له آية فرصة لمقابلة زينب منذ أن تزوجت من زيد ؟ لقد كان زيد حبه فكيف لا يجد الرسول فرصة لمقابلة زوجة زيد التي كانت ابنة عمه وكان الزواج على مسؤولية النبي نفسه .

(د) هذا التفصيل بشكل مغرى هو اختراع محض لكتب جنسى محرج .

هذه الحجج الأربعة تكفى كما نظن في هدم هذه الرواية العاطفية المختلفة من أساسها .

وتبقى النقطة الثانية في هذا المعرض وهي حق محمد في الزواج بأمرأة ابنه بالتبني زيد بن حارثة (١)

وفيما يتعلّق بهذه النقطة يجب أولاً أن نوضح أن التبني الشرعي لم يكن معروفاً في الجزيرة العربية قبل الإسلام وفي مقال حول التبني في موسوعة الدين والأخلاق (ج ١ ص ١١٥ ب) يؤكّد جـ - هـ بوكس أن « التبني كشعيرة معترف بها بين العرب لا يوجد ما يوضح أو يؤكّد وجوده . لقد كان تعدد الزوجات كافياً لتلبية الاحتياجات التي يمكن للتبني أن يشبعها وهي الرغبة في الأولاد » . ويجب أن نوضح في نقطة أخرى « أنه لا شيء يذكر عن ممارسة التبني في

(١) ويكتبه جودفروا ديمومين زيد بن ثابت

أحكام الشريعة اليهودية كما لا يوجد شيء يتعلق بالتبني في النصوص اليهودية الأصلية ولا في ترجماتها اليونانية (موسوعة الدين والأخلاق ج ١ ص ١١٥) وإذا كان الأمر كذلك فهل كان يمكن لليهود أن ينعوا على محمد رغبته في الزواج من امرأة ابنه بالتبني؟

وحتى العرب المعاصرون لمحمد لم يكن لهم نظام خاص في موضوع التبني ولم يحرموا من باب أولى الزواج من مطلقة ابنه بالتبني ولكن القرآن هو الذي نظم للمرة الأولى حالة الأبناء بالتبني بالشكل التالي :

١ - سورة الأحزاب آية ٤ « وما جعل أدعيةكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

٢ - سورة الأحزاب آية ٥ « ادعوهם لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإن أخوانكم في الدين ومواليك » .

٣ - سورة الأحزاب آية ٣٧ « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيةائهم إذا قضوا منها وطرا وكان أمر الله مفعولا » .

وبهذه الآيات الواضحة ألغى الإسلام عادة التبني فلم يعد التبني جائزًا في الإسلام وليس للولد بالتبني نفس حقوق الولد الحقيقي لا في الميراث ولا في الزواج ولا في أي حق من حقوق البنوة الحقيقة باختصار ليس هناك تبني في الإسلام وهذا القانون الإسلامي الذي يحرم التبني لا علاقة له مطلقاً بموضوع زواج النبي من زينب بنت جحش .

٩ - وكانت الزوجة التاسعة للرسول هي اليهودية « ريحانة » من قبيلة بني قريظة والتي كانت أسيرة مع نساء من بني قريظة حين أغار عليهم الرسول بعد غزوة الخندق بسبب خيانتهم حيث قدموا خدمات جليلة للقریشيين الذين جاؤوا في جيش عرمرم يقودهم أبو سفيان لمحاجمة المدينة في أبريل (٦٢٧) . وقد اعتفت ريحانة بعد تردد وبعد ذلك تزوجها النبي وتقول مصادر أخرى أنه اتخذها ملك يمين وقد ماتت سنة ٦٣٢ قبل النبي بقليل .

١٠ - وكانت الزوجة العاشرة هي « أم حبيبة بنت أبي سفيان » وكانت زوجة عبيد الله بن جحش الذي اعتنق الإسلام واصطحب زوجته فيمن هاجر الهجرة

الثانية إلى الحبشة ولكن عيد الله تحول في الحبشة إلى المسيحية ومات هناك بينما بقيت أم حبيبة على إسلامها (هكذا تسمى لأنها كان لها إبنة تدعى حبيبة) وقد أرسل النبي رسولاً إلى النجاشي (ملك الحبشة) هو عمر بن أمية الضرمرى يطلب يد أم حبيبة وقد توكلا النجاشي لأم حبيبة وتم عقد القرآن في الحبشة . ورحلت أم حبيبة إلى المدينة عام (628م) وماتت في (41 أو 44هـ) في خلافة أخيها معاوية .

١١ - وكانت اليهودية « صفية بنت حبيبة » هي الزوجة الحادية عشرة للنبي وقد كانت قبل ذلك متزوجة من زوجين أولهما سلام بن مشكم ثم الشاعر اليهودي « خناعة » وقد كانت من قبيلة بني النمير اليهودية التي كانت تسكن المدينة وقد طردهم النبي منها لأنهم دبروا لاغتياله : وقد رحلت هذه القبيلة إلى خيبر وفي معركة خيبر (629م) قتل خناعة زوج صفية فوقعت أسرة في أيدي المسلمين . ولكن الرسول أطلقها وتزوجها . وقد ماتت عام (52هـ) .

١٢ - وكانت الزوجة الثانية عشرة للنبي هي « ميمونة » من قبيلة بني هلال وقد تزوجت مرتين قبل النبي وقد تزوجها النبي في شوال أو ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة (يناير 629) وماتت سنة ٦٦هـ (680م) عن ثمانين عاماً وهي آخر من مات من أرامل النبي وقد كانت أخت زوجة العباس عم الرسول وخالة الخلفاء العباسيين .

١٣ - وكانت الزوجة الثالثة عشرة للرسول هي « فاطمة بنت الدهاق بن سفيان » من قبيلة كلاب . وقد قيل أن النبي تركها بسبب برص رأه فيها . وقد قيل أيضاً أنها هي التي تركته . وقد حدث هذا الزواج في ذي القعدة من عام (8هـ) بعد العودة من معركة « الجعرانة » .

١٤ - وقد تزوج النبي في شهر ربيع الأول سنة (9هـ) بأسماء بنت النعمان الجوانية ولكن الزواج لم يستمر لأنها أنفثت ذلك الزواج .

ولو أستعرضنا هذه الزيجات الأربع عشرة فسنجد أن هدفها كان كالتالي :

(أ) إما لتقوية أواصر المحبة بين النبي وكبار الصحابة وهذا ينطبق على زواجه بعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب .

(ب) إما للارتباط بكبرى القبائل العربية وتلك حالة جويرية بنت الحارث

والتي كان أبوها رئيس قبيلة بنى المصطلق بن خزاعة وكذلك حالة ميمونة بنت الحارث من قبيلة بنى هلال وقد كان هذا الزواج سبباً في دخول خالد بن الوليد في الإسلام وهو القائد العسكري الكبير حيث كانت ميمونة خالته .

(ج) أو ليحمى الأسيرات الالئي كن يتمتعن بمكانة عالية في قومهن وتلك حالة « ريحانة بنت زيد بن عمر » و « صفية بنت حبي بن أخطب » و « أم حبيبة بنت أبي سفيان » أحد أكبر زعماء قريش الذين حاربوا النبي .

(د) وأخيراً ليحفظ مركزاً اجتماعياً لأمرأة في غير مركزها اللائق بها وتلك حالة زينب بنت جحش بنت أمامة بنت عبد المطلب عممة النبي . وقد درستنا تلك الحالة بما فيه الكفاية بما لا يحتاج منا إلى إعادة تكراره .

وتلك هي البواعث الأساسية لزيجات النبي بعد موت زوجته الأولى خديجة . وكما رأيت فإنه ليس فيها أى باعث يمكن أن يدخل في نطاق الشهوانية الجنسية . وكل هذه البواعث تنبع من مهمته كنبي ومؤسس دولة سياسية في نفس الوقت لأن محمداً لم يكن نبياً عادياً ومتفرداً ولكنه كان نبياً ومؤسس دولة سياسية .

ولهذه الأسباب أيضاً لم يطلق النبي أياً من زوجاته لأن الطلاق كان لا بد أن يتبع عنه فصم لرباطه بالقبيلة أو الشخص القوي الذي تنتهي إليه المرأة المطلقة . وهذا السلوك كان من نتيجته أن النبي تجاوز عدد النساء الأربع المسموح بهن في وقت واحد . ولكن هذه كانت ميزة للنبي وحده دون سائر المؤمنين لأن محمداً كنبي مؤسس دولة سياسية كان حالة خاصة تماماً ولا يمكن أن تكرر لا سيما وهو آخر الأنبياء .

« مبررات التعدد »

في رأينا أن تعدد الزوجات مبرر في الحالات الآتية :

- ١ - عندما تصاب الزوجة الأولى بمرض لا يرجى برؤه يعكر صفو سعادة الزوجين .
- ٢ - عندما تكون الزوجة الأولى عاقراً .
- ٣ - عندما تصبح الزوجة الأولى عجوزاً قمبته بشكل تصبح معه عقبة أمام العلاقات الاجتماعية ومصدر ملل دائم للزوج .

في الحقيقة يجب أن نسأل ما هو الأكثر برأً في هذه الحالة : طلاق المرأة أو الاحتفاظ بها مع أخرى أو أخرىات مع توفير المسكن لها والمأكل والمعاملة الحسنة واحياء مع أولادها ؟ إن الإجابة واضحة تماماً وهي أن الحل الثاني أفضل ألف مره وعلى أي حال فإن المرأة لو فضلت الخلل الأول فليس أمامها إلا طلب الطلاق ولو دخلت في الزواج بهذه النية فليس عليها سوى أن تشرط في عقد الزواج أن يكون لها الحق في طلاق نفسها إن تزوج زوجها بأخرى .. وهذا الشرط جائز في الفقه الإسلامي .

إن مبدأ التعدد متطابق أكثر مع هدف الزواج وهو إنجاب الأولاد واستبقاء النوع البشري والقانون الطبيعي يثبت بل ويطلب التعدد وهذا لا يمس بسوء القانون الوضعي والحجج التي يسوقها أعداء تعدد الزوجات واهية جداً وهي :

(أ) يقولون إن التعدد لا يحقق المساواة بين الرجل والمرأة .

ولا نرد على ذلك بشيء سوى أن المساواة مسألة خيالية لأن دور الرجل في الزواج ليس هو بالضبط دور المرأة . في الحقيقة إن لكل منهما مهمته الخاصة ومن الريف أن تتحدث عن المساواة التامة بين الزوجين .

(ب) يقولون أيضاً إن التعدد مصدر للغيرة والحدق والخصومات وكذلك التفضيل الذي لا يمكن تجاهله من جانب الزوج لإحدى زوجاته على الآخريات .

ونجيب على هذا بالأتي :

إن الحقد والغيرة والخصومات هي عواطف إنسانية طبيعية ولا يمكن تفاديها . حين يجتمع شخصان أو أكثر . وهذه رذائل يجب محاربتها أخلاقياً وليس بقانون يجب احترامه إلا إذا تطلب الأمر زواجاً لا يتيح سوى طفل أو طفلة لأنه أيضاً سيكون هناك حقد بين الأبناء بعضهم البعض وستكون بينهم الغيرة والشحناه . ولن يطلب أحد تجمع عدد من الأطفال وسيكون ضرب من الجحون الخالص .
إذاً في رأينا أن الزواج بواحدة مثل طلب إنجاب طفل واحد .

ومنلاحظاتي الشخصية قمت بعمل إحصائيات موسعة لهذه الظاهرة .

فلاحظت أن أولاد الزوجة الثانية أو الثالثة أكثر ذكاءً وأكثر جدية ويشرفون آباءهم أكثر من أبناء الزوجة الأولى

بالتأكيد هناك أحياناً تعسف في تعدد الزوجات ولكن التعسف موجود في كل شيء وهو دائماً مذموم ويجب تحاشيه في كل الأحوال وليس فقط في تعدد الزوجات .

باختصار . إننا مع بقاء النظامين تعدد الزوجات والزواج بواحدة والظروف وحدها هي التي تقرر ما يفضل الأخذ به من النظامين .

والقرآن صريح في منع التعسف في تعدد الزوجات يقول تعالى : «فإنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاثة ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى لا تغولوا» [سورة النساء آية ٣] إذاً فالمعاملة بالمساواة بين الزوجات شرط ضروري لمارسة حق التعدد في الإسلام . ولأن هذا الشرط صعب - إن لم يكن مستحيلاً - تحقيقه ، فإن هذا يساوى منع التعدد . ولكن أنصار التعدد في الإسلام يمكن أن يقولوا إن المساواة هي في النهاية مسألة تقديرية وبذلك يخرجون من هذا المقياس الصارم .

ويمكن أن نتساءل هنا هل هناك فرق جوهري بين تعدد الزوجات والزواج بنساء الواحدة بعد طلاق الأخرى . فيرأى أن الفرق واه . ومع ذلك فإن القانون في كل البلاد التي تتشدق بأنها دول عصرية ومتقدمة يمنع التعدد ولكنه يجيز الزواج بنساء متعدقات مهما كان عددهن أليس هذا نفاق واضح حين يمنع تعدد الزوجات بينما يسمح بتعدد الزوجات المتعدقة ؟ أليس من المنطق منع الاثنين أو إياحتهما معاً؟ الإجابة بنعم بالتأكيد .

* * *

الفصل الثالث

«سياسة محمد تجاه خصومه»

- (أ) محمد واليهود .
- (ب) محمد وال المسيحية .
- (ج) سياسة محمد تجاه العرب .

(أ) محمد واليهود

وهذا موضوع آخر أطلق فيه المستشرقون العنان لنقدهم مع كثير أو قليل من سوء النية والعنف حسب اتجاه كل طائفة من أعداء محمد من العرب الوثنيين واليهود والنصارى . ولنبأ باليهود لأن صراع النبي معهم بالذات لأسباب واضحة أثارت سخط هؤلاء المستشرقين بشكل واضح أو خفي .

(أ) الصراع مع اليهود :

لقد بدأ الصراع مع اليهود بعد الهجرة لأنه لا شيء يدل على وجود صراع حقيقي بين محمد واليهود حين كان يمكّه لأنه لم يكن يوجد بمكة آية جماعة يهودية أما في المدينة فعلى العكس كان هناك يهود أثرياء وأقوباء يتميز من ضمن أكبر قبائلهم ثلاثة : بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير .

وقد كان بنو قينقاع صاغة وليست لهم أراض زراعية .. على العكس من ذلك بنو قريظة وبنو النضير الذين كانوا يملكون أطيانا زراعية وكان النخيل محصولهم الرئيسي .

من أين أتى يهود المدينة هؤلاء ؟ هل أتوا من فلسطين بعد سحق تمدد «باروخبا» على يد القائد الروماني «جيوليوس سرفيروس» عام (135م) ؟ لا تؤكد ذلك آية وثيقة تاريخية . هل أتوا من يهود العرب باليمن والذين فروا بعد احتلال يهود الحبشة لبلادهم ؟ هذا هو الاحتمال الأكثر تصديقاً .

ولا نعرف على وجه الدقة متى استوطن عرب قبيلي الأوس والخزرج بثرب «وهو الاسم الأصلي للمدينة» وقد جاؤا من جنوب الجزيرة العربية . يرى البعض أن الأوس والخزرج ذهبوا إلى يثرب وهي تحت سيطرة اليهود وأن اليهود سمحوا لهم بالإقامة فيها . ولكن هذه القضية لا تستقيم لأننا لم نجد في أى وقت أن الأوس والخزرج كانوا خاضعين أو حتى مواليين لليهود بالمدينة . وإنما تؤكد

المصادر التي بين أيدينا على عكس ذلك أن اليهود كانوا تحت حماية الأوس والخزرج أو على الأقل متحالفين معهم فقد كان بنو قينقاع مثلاً حلفاء عبد الله ابن أبي وعابة بن الصامت

وما لا شك فيه أن أي يهودي لم يعتنق الإسلام قبل وصول محمد إلى المدينة واقامته بها . وحتى بعد وصول محمد إلى يثرب دخل عدد قليل من اليهود في الإسلام نذكر منهم : عبد الله بن سلام من بنى قينقاع ومجموعة ثانية من الرجال يرجع أصلها إلى تلك القبيلة وقد أصبحوا منافقين مثل زعيمهم « عبد الله بن أبي » ثم بعد ذلك دخل بعض اليهود في الإسلام في أعقاب غزوة أحد (١) أو أثناء غزو النبي لبني النضير (٢) وبني قريظة (٣) .

وليست لدينا أية معلومات عن موقف اليهود من الدين الإسلامي قبل الهجرة . ويبدو أنه في مكة إما لم يكن يوجد أي يهود أو ربما كان يوجد البعض منهم ولكنهم لم يتدخلوا في الشؤون الدينية ولم يشتركوا في المناقشات المثارة حول الدين الجديد . وهكذا فكل الآيات القرآنية المتعلقة باليهود لا تقصد سوى يهود المدينة .

قضية أخرى : هل اتّخذ اليهود موقفاً محدداً من محمد ودينه الجديد قبل وصول محمد إلى المدينة ؟ إذا كان الميثاق بين المهاجرين والأنصار الذي يشمل أيضاً مسالمة مع يهود يثرب قد أملأه النبي فور وصوله إلى المدينة في سبتمبر ، ٦٢ فيمكن أن نؤكّد أن يهود المدينة (يثرب) لم يبدوا أي عداوة لمحمد .

ويقول ابن إسحاق عن هذا الميثاق :

« كتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار حيث وضع الهدنة مع اليهود وعقد معاهدة معهم وأقر لهم بحقهم في البقاء على دينهم وأمنهم على أموالهم وأخذ منهم العهد وأعطائهم العهد (٤) »

(١) انظر : ابن هشام (ص ٣٥٤) ط . فوستنفليد . أوغن (١٨٥٩ - ١٨٦) .

(٢) الواقدي - كتاب المغارى (ص ١٦٤) ترجمة يوليوب فلهوزن للمختصر ، برلين ، (١٨٣٢) .

(٣) ابن هشام (ص ٣٨٧ - ٦٨٧) .

(٤) ابن هشام سيرة سيدنا محمد ط . د / فرديناند فيستنفليد (Wustendeld) ج ١ (ص ٣٤١ ، جونج ، ١٨٥٨) ،

ونسوق ما يخص اليهود في هذا الميثاق :

- ١ - « اليهود الذين يتبعونا لهم منا النصر والأسوة ولا يؤذون ولا يعان عليهم من يحاربونهم » (السابق ، ص ٣٤٢ ، ص ٨٠٩) .
- ٢ - « يقدم اليهود المؤن والزاد لل المسلمين حالة الحرب » .
- ٣ - « يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين » .
- ٤ - « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » .
- ٥ - يهود بنى النجار لهم ما ليهود بنى عوف ، ويهود بنى الحارث لهم ما ليهود بنى عوف ، ويهود بنى ساعدة لهم ما ليهود بنى عوف . ويهود بنى جوشم لهم ما ليهود بنى عوف . ويهود بنى الأوس لهم ما ليهود بنى عوف ، إلا من ارتكب إثماً فائضاً على نفسه وأهل بيته . والجفرة حى من ثعلبة ، لهم ما لهم وبنى شطية لهم ما ليهود بنى عوف .
- ٦ - موالي ثعلبة لهم ما لثعلبة .
- ٧ - « بطانة اليهود لهم ما لليهود » .
- ٨ - « لا يحارب أحد منهم إلا بإذن محمد ولكنهم لا يعنون من الأخذ بثأرهم في الدماء ، ولكن من يتجرأ منهم على أحد من المسلمين فلا يلومن إلا نفسه وإنما عليه وعلى أهل بيته إلا إذا أوذى والله شديد العقاب » .
- ٩ - يتحمل اليهود نفقة أنفسهم وكذلك المسلمين .
- ١٠ - « يتحالف اليهود والمسلمون ضد من يحارب أحداً منهم ويتبادلون النصح والمشورة في الخير لا في الشر . ولا يجوز لأحد أن يضر حليفه . وتكون المساعدة على قدر الأذى » .
- ١١ - « لا يقدم اليهود الحماية لا لقرىش ولا لأعوانها » .
- ١٢ - « يساعدون المسلمين على دفع من يغزوا المدينة » .
- ١٣ - « إذا دعوا إلى عقد سلام أو المحافظة عليه عقدوه وحافظوا عليه » .
- ١٤ - اليهود موالي الأوس لهم حقوق وواجبات يهود الميثاق مع الإحسان إليهم » .

ويجدر بنا أن نسوق الملاحظات الآتية على هذا الميثاق :

١ - كما لاحظ « فلهوزن » ^(١) فإن هذه الصحيفة لا تشتمل على معاهدة مع اليهود لأن اليهود ذكروا في هذا النص فقط لأنهم موالون للأنصار والعلاقة بين محمد واليهود كانت غير مباشرة وعبر الأنصار .

٢ - وهذا يفسر لماذا يذكر اسم قبائل اليهود التي دخل محمد معهم بعد ذلك في صراع وهم ، بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . وفي الواقع إن هذه القبائل كانت موالية للأنصار ولذلك دخلت في حكم يهود بنى عوف بجهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جوشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة بن هشام (ص ٣٧٢) ، وهذا يدلنا على أن يهود المدينة كانوا منقسمين إلى قسمين كبيرين المجموعة الأولى تضم « بنى قينقاع » ، كانوا حلفاء الخزرج والثانية تضم بنى النضير وبنى قريظة وكانوا حلفاء الأوس وكما لاحظ « كاتاني Caetani ^(٢) فإن أسماء قبائل اليهود لم تذكر في الميثاق لأن محمدًا لم يكن له علاقه مباشرة مع اليهود باعتبارهم يهودا ولكن فقط بشكل غير مباشر باعتبارهم حلفاء الأنصار» .

٣ - « يؤمن » فلهوزن (المرجع السابق) بضحة تلك الوثيقة للأسباب التالية :

(أ) لا يمكن أن يسمح أى شخص من العصر الأموي أو العباسي أبداً بأن يكون القرشيون أعداء الله لأن أجداد الأمويين والعباسين أيضاً وثنيون وأعداء محمد في مكة .

(ب) لا يمكن أن يسمح أى فريق من العصر العباسي أو الأموي أن يكون المسلمين والوثنيون واليهود جماعة واحدة على قدم المساواه ولهم نفس الحقوق ونفس الواجبات .

(ج) لا يمكن أن يعتمد شخص نظاماً سياسياً حتى وإن كان واصعه محمد دون أن يعطى للنبي صفاته الالاقة به من حيث كونه نائباً عن الله .

(د) أما عن تاريخ هذه الصحيفة فإن فلهوزن (ص ٨٠) يزعم أنها تعود إلى

(١) يوليوس فلهوزن Skizzen Und Vorarbeiten الطبعة الرابعة (ص ٦٧ - ٨٣) .

(٢) ليون كاتاني ، حوليات الإسلام ، ج ١ (ص ٤٠٠) .

بداية العهد المدنى قبل معركة بدر لأنه محمداً بدا خلالها متسامحاً متواضعاً ولم يدعم تلك الوثيقة أى وحى إلهى ويشك فلهاؤزن فى أن هذا النص يشتمل على ريبة من اليهود : وينهى قوله بأن هذه الوثيقة تعود إلى فترة سابقه على غزوة بدر وليس إلى بداية إقامة محمد في المدينة لأنه كان ما يزال يأمل في دخول اليهود في الإسلام .

ولكن « جريم »^(١) في ملاحظة طويلة يحاول تفنيد قضية فلهاؤزن ويؤكد أن الوثيقة ترجع إلى ما بعد غزوة بدر . وحسب قوله فإن محمداً لا يمكن أن ينصب من نفسه حكماً وقاضي وقائد حرب على قدر كبير من الأهمية إلا إذا كان قد حاز سلطاناً كبيراً وقوة يعرفها الجميع ويحسب حسابها وهو شيء لا يمكن أن يتحقق إلا بعد نصر بدر - وهناك حجة أخرى لجريم وهي الإشارة إلى الصراع من أجل « قضية الإيمان » والذى لم يكن له معنى سوى بعد الأحداث الحقيقية والخروب . الحججه الثالثة هي الكراهة المحمومة للقرشيين والتي لم تفرض نفسها على الأنصار إلا بعد غزوة بدر . حيث لم يكن لدى الأنصار قيل ذلك مبرراً لتغيير موقفهم تجاه القرشيين .

ومع اعترافه بقوة حجج « جريم » إلا أن كاتانى (حوليات الإسلام ج ١ ص ٤٤) يرى أن حجج فلهاؤزن أقوى ويسوق حججه الخاصة ليدعم حجج فلهاؤزن ، وتلك هي حجج كاتانى

(أ) الفقرات (٢٣ ، ٣٦) من المعاهدة لا يجدون أنها تفرض الاعتراف بمحمد حاكماً أعلى وقائداً للجيش .

(ب) الفقرات الخاصة بإبرام السلام (١٧ ، ٤٦) لا تعنى أبداً أن تكون تلك وظيفة محمد . ولكن إذا كان لمحمد حق إعلان الحرب فسيكون من حقه بالضرورة إبرام السلام فأحدهما لا يسير بدون الآخر .

(ج) يشير كاتانى (من الفقرات ١٩ ، ٤٦) إلى أن « في الدين إشارات عابرة ومهمة ولا يمكن أن تعنى مفهوم الجهاد (الحرب المقدمة) .

(د) عداوة القرشيين (فقرات ٢٠ ، ٤٤) مذكورة بشكل متواضع ومتعقل ولا

(١) هربرت جريم - محمد - ج ١ ، (ص ٧٦) .

منع (كل المدينة من أن يكون لهم علاقات ودية مع القرشين في وقت السلم . إنها تمنع فقط أن يرم معهم أي اتفاقات علنية لحماية الأفراد أو الأموال .

(هـ) وأخيراً ، لو أن هذه الصحيفة قد كتبت بعد بدر لكان من الممكن أن نرى فيها روح الغطرسة ومواضيعات أخرى على جانب كبير من الأهمية مثل تقسيم الغنائم .

بهذه الحجج إضافة إلى حجج فلهاوزن يتضح أن تاريخ تلك الصحيفة يعود إلى ما قبل غزوة بدر بوقت قصير تلك الغزوة التي وقعت أحداثها في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (مارس ٦٢٤ م) .

« اليهود ينقضون المعاهدة »

لقد فهم كل المؤرخين المسلمين أن هذه الصحيفة - دون ذكر نصها الحرفي . كانت في نفس الوقت عهداً مع يهود المدينة وهذه أقوال هؤلاء المؤرخين كما ذكرها: كاتانى « بنفسه (ص ٤٠٤ ، ٧) .

(أ) الواقدى - كتاب المغازى ط . كريت ١٨٥٦) « عندما وصل رسول الله إلى المدينة وادعه اليهود وقد كتب صحيفة بينه وبينهم تؤكد على توحد كل قبيلة مع حلفائها وتفرض بينهم وبين الرسول عهد أمان وتفرض عليهم تلك الشروط : لا يجوز أن يقدم اليهود العون لأعداء محمد) .. وبعد غزوة بدر كاد اليهود لحمد ونقضوا الميثاق فرد عليهم محمد بقوه

(ب) الطبرى - تاريخ ج ١ ص ١٣٥٩ ، ٢٢١) .. حينما قدم الرسول المدينة وادع يهود المدينة على ألا يكونوا عوناً لأحد عليه وأن يساعدوه إذا غزا أحد المدينة وحينما انتصر النبي على كفار قريش أظهر اليهود العداوة والبغضاء للMuslimين وأظهروا نواياهم في نقض الميثاق) .

(ج) البلاذرى (فتوح البلدان) (١) (ص ١٧) « عندما وصل النبي إلى المدينة كتب كتاباً بينه وبين يهود يثرب وعقد معاهدة معهم وكان أول من نقض تلك المعاهدة هم يهود بنى قينقاع » .

(د) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٢ ط . ١٨٧٦ القاهرة « عقد محمد

(١) طبعة جوخ ، ليدن ، ١٨٦٦ ، تحت عنوان آخر هو « الغزوات » .

معاهدة سلام مع اليهود وكتب كتاب صلح بينه وبينهم وميثاق موادعة للحقوق والواجبات المتبادلة .

(هـ) حين ابن محمد الحسن الديار بكرى - « عبرات الخميس » ط . بولاق - القاهرة (٣٠٢) هـ جـ ٣ ، ص(ص ٣٩٨) « في هذه السنة الأولى من الهجرة وبعد خمسة أشهر من وصوله إلى المدينة وادع النبي اليهود وعاهدهم على أن يترك لهم حرية ممارسة شعائرهم وأمنهم على أن لا يكونوا عوناً عليه مع أعدائه » .

(و) السيرة الخلبية كتاب « إنسان العيون بسيرة النبي الميمون » : تأليف نور الدين على الخلبى القاهرة (١٢٨٠ هـ) جـ ٢ (ص ٢٤٥) : « كتب النبي كتاباً بين مهاجري مكة والأنصار وادع فيه اليهود أى بنى قينقاع وبنى النضير وصالحهم على الشروط الآتية . يمتنع اليهود عن الحروب الداخلية والمؤامرات ويمتنع محمد عن حربهم أو إيدائهم ولا يكون اليهود عوناً لأحد على محمد ولا يقدموه يد المساعدة لأعدائه وعاهدهم محمد على منحهم حرية ممارسة شعائرهم والتمتع بأموالهم » .

كل هذه المصادر المتقدمة تلخص مضمون ما ذكره ابن هشام بالتفصيل . وقد فهموا تماماً معنى ومضمون تلك الصحيفة .

إنه لمن الغريب إذا أن نرى « ليون كاتانى جـ ١ ص ٤٠٧ - ٨) يقول : إن الكتاب المسلمين قد أساءوا فهم معنى وقيمة هذه الوثيقة . ويوافق قائلًا في صلف « إن الأحكام المسبقة المفرضة أربكت قرائحهم مما جعلهم يعتبرون فقرات هذه الصحيفة التي قرأوها بشكل سطحي موافقين معاهدة مع اليهود . إنهم لم يستطيعوا أن يفسروا بطريقة أخرى وجود تلك الوثيقة حيث بدت موادها لهم باعتبارهم مؤمنين غير مفهومة : أى أنهم لم يستطيعوا أن يسمحوا بكون النبي قد عقد ميثاقاً مع الكفار أعداء الله وفهموا الصحيفة على أنها موادعة مع اليهود وحدهم . ولذلك فقد توصلوا بالكاد إلى هذا المفهوم المغلوط الذى أعاد كتابته المورخون بنفس « الشكل ويرددونه كلَّ عن غيره بنفس الثقة العمياء وغير العقلية التي يتسم بها الشرقيون دون أن يحاولوا تحيصها أو تحقيقها وهو شيء مع ذلك سهل جداً إذا درسنا الصحيفة بامعان .

وهذا الخطأ مثل دفعه كبيرة لأنه استخدم كحججة لصالح محمد في سنته المعرضة التي أرادت أن تصف اليهود بأنهم يحتشون بأعيانهم وينقضون المعاهدات وأنهم يضرون بالسلام العام «

إنه « كاتانى » يبدو هنا هو أو من كتب له هذه الفقرة - وقد وقع في بلاهة نادرة أو صحيحة خياله الجامح .

(أ) لأن هذه الصحيفة كانت ميثاقاً بين محمد والهاجرين من جانب والأنصار ومعهم موالיהם أو حلفائهم من اليهود من جانب آخر ولا يمكن لأحد أن يشك في ذلك لأنه حتى ابن إسحاق نفسه حين عرض هذه الوثيقة وهو المصدر الوحيد الذي نقلت عنه بالتفصيل ويعتبر المصدر الذي نقل عنه المؤرخون من بعده يقول بحثاً أن هذه الصحيفة اشتهرت وعداً لليهود (انظر عند كاتانى نفسه ج ١ ص ٣٩٢ ، ٢ ، ١٩ ، ٢٠) ، إذا بأى حق يأتى وينكر هذا الحدث في الفقرة التي ساقها .

(ب) والأغرب من ذلك تأكيده على أن المؤرخين المسلمين لا يمكن أن يتغىروا أن يكون النبي قد عقد ميثاقاً مع « الكفار أعداء الله » ، ولكن من قال أن الصحيفة كانت ميثاقاً مع أعداء الله الكفار - إن الصحيفة كانت ميثاقاً بين محمد من جانب والأنصار وحلفائهم اليهود من جانب آخر ، فهل كان الأنصار وثنين وأعداء الله ؟ إن كاتانى أو من كتب له تلك الفقرة لا بد أن يكون مختلاً عقلياً ليقول هذا الكلام إن الشتائم التي يكيلها « للكتاب الشرقيين » يجب أن تکال له هو نفسه وليس « للكتاب الشرقيين » .

لقد قلنا « أو من كتب له هذه الفقرة » لأن الأمير « ليون كاتانى » أتهم على رؤس الأشهاد بأنه ليس هو مؤلف هذا الكتاب « حوليات الإسلام » وأن هذا الكتاب قد كتبه مجموعة من العلماء الإيطاليين المستشرقين وكان على رأسهم « ليفي دولافيدا » وقد نظرت القضية أمام المحاكم الإيطالية وحضرها الكتاب الأصليون كشهود . وقد اعترف ليفي دولافيدا بأنه عمل في إعداد هذا الكتاب وذلك بترجمة النصوص العربية المتعلقة بهذا الفصل أو ذاك ولكن حتى يحافظ على شرف أستاده فإنه لم يتجرأ على الاعتراف بأنه كتب بعض الفقرات في هذا الكتاب .

ولكن الفقرة محل البحث في رأينا لا يمكن أن يكون أحد ، قد كتبها غير ليهـى

دولافيدا والذى كان مهمتا بتقييرظ أخوانه القدماء فى الدين . كما أن النظره الحماسية والعاطفة فى الدفاع والشتائم المتكررة لا يمكن أن تتفق إلا مع طبيعة رجل تعز عليه مصلحة اليهود إلى أبعد حد . ولا يمكن أن ينطبق هذا على أمير كاثوليكى من عائلة بطريركية مرموقه فى روما مثل الأمير « ديانو ليون كاتانى » .

« بنو قينقاع ينقضون العهد »

نستعرض الآن بالتفصيل نقض هذه المعاهدة من جانب القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث .

كان أول من نقض هذا العهد هم بنو قينقاع .. ويقول ابن إسحاق (١) « حدثني عثيم بن عمر بن قبية أن بنى قينقاع كانوا أول من نقضوا من اليهود ما بينهم وبين رسول الله وناصبوه العداء ما بين غزوة بدر وغزوة أحد » .

ويورد ابن إسحاق سبب الحرب المباشر بين النبي وبين قينقاع هكذا :

« كان سبب ما وقع بين محمد وبين قينقاع أن امرأة عربية جاءت إلى سوق بنى قينقاع لتبغ حليها وجلست أمام صائغ يهودي وأراد اليهود أن يجبروها على كشف وجهها فأبانت فربط الصائغ طرف ثوبها في ظهرها فلما قامته انكشفت سواعتها فصاحت فأسرع أحد المسلمين إلى الصائغ اليهودي فقتله فأسرع اليهود إلى ذلك المسلم فقتلواه فاستنجدت عائلة المسلم بال المسلمين فلبي المسلمين النساء وهنا قاتلت الحرب بين المسلمين وبين قينقاع ووضع محمد الحصار عليهم حتى يخضعوا لشروطه (ص ٥٤٥ - ٥٤٦) .

وكان الجيش الذى بعثه محمد لحصار بنى قينقاع تحت قيادة « بشير بن عبد المنذر» واستمر الحصار خمسة عشر يوماً وكان عدد محاربى بنى قينقاع ثلثمائة مدرعين وأربعمائة بلا دروع .

وعندما قاتلت الحرب ذهب عبد الله بن أبي بن سلول واللهى ^{كان حليقاً لبعن} قينقاع إلى النبي ليسأله أن يفك الحصار قائلاً للنبي « لا تؤذ حلفائى » وقد كان بنى قينقاع في الواقع حلفاء الخزرج ولكن النبي لم يوجه إلى طلبه « ولكن عبادة بن

(١) ابن إسحاق - سيرة رسول الله ج ٢ (ص ٥٤٥) ط . فوستفيلي ، جوتوجن (١٨٥٩) .

الصامت من بنى عوف وقد كانوا أيضاً حلفاء بنى قينقاع فذهب إلى النبي ليعلن تحمله من حلفه مع اليهود قائلاً : « يا رسول الله إنني حليف الله وحليف نبيه وأنني تحملت من تحالفى مع هؤلاء الكفار ومن حمايتهم . والآيات التالية من سورة المائدة نزلت في شأن عبد الله بن أبي وعابة بن الصامت » يا أيها الذين آمنوا لا تخذلوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون تخشى أن تصيبنا دائرة » [المائدة ٥١ - ٥٢] وهذه العبارة الأخيرة نزلت في شأن عبد الله بن أبي الذي قال أخشى أن تتحقق بي الدوائر وتقول الآية (٦٠) « إنما عليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » ، وهذه الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت الذي تخلى عن حلف بنى قريطة ودخل في حلف الله « فإن حزب الله هم الغالبون » آية (٦١) .

وهذه القصة التي يرويها ابن إسحاق في الجزء الثاني (ص ٥٤٥ - ٥٤٦) موجودة أيضاً عند الواقدي (ص ١٧٧ - ١٧٨) وعند ابن الأثير ج ٢ (ص ١٠٦ - ١٠٧) ، وكون الطبرى لم يوردها فذلك لا يعني شيئاً لأن هناك مئات الروايات مذكورة عند ابن إسحاق أو الواقدي والبلذذى ولم يذكرها الطبرى ويريد كاتانى (١) مع مستشرقين آخرين أن يشككوا في هذه القصة لأن إسنادها يرجع إلى محمد بن كعب القرظى الذى مات سنة ١١٨ هـ والذى يتهمه كاتانى بأن اخترع كثيراً من الأساطير (٥ المقدمة ص ٢٨١) ، ولكن كاتانى نفسه هو الذى يخترع هنا أسطورة وهى أن إسناد حادثة المرأة العربية التى هاجمتها الصاعنة اليهودى يرجع إلى محمد بن كعب القرظى فهى عند ابن هشام (ص ٥٤٥ ، ١ ، ١٥) تنسب إلى أبي عوف وليس إلى القرظى .

ولكن ماذا قرر النبي بعد استسلام بنى قينقاع ؟ لا يعطيانا ابن إسحاق معلومات مباشرة وكل ما نخرج به من روايته هو وساطة عبد الله بن أبي عند النبي لصالح اليهود حيث كان النبي ينوى أن يطبق عليهم ما هو معتاد وهو قتل المحاربين

(١) حوليات لإسلام ج ١ (ص ٥٢١) ملحوظة رقم ١ .

وأسر غير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ ولكن بعد إلحاح بن أبي على الرسول أن يحقن دماء بنى قريطة قائلًا له لن أُبرح مكانى حتى تهبني حلفائى الأربعيناء غير المدرعين والثلاثمائة المدرعين الذين طالما منعوني من الناس وإنى أخشى أن تفتت بي وإنى والله أخشى الدوائر فقال له النبي « هم لك » .

ويعطينا الواقدى (١) مزيداً من المعلومات حيث يقول : إن من بين الشروط التى وضعها الرسول مصادرة جميع أموال اليهود لصالح المسلمين ولأن بنى قينقاع لم يكن لديهم أى أرض زراعية فإن أموالهم كانت تتركز فى الحلى والسلاح ومن الفدية أخذ النبي لنفسه ثلاثة سهام ودرعان وثلاثة سيف وثلاث حراب وخمس الغنيمة ثم وزع أربعة أخمس على المسلمين ، والشرط الثانى هو أنه يجب على بنى قينقاع أن يرحلوا من المدينة نهائياً فى غضون ثلاثة أيام وحتى يتتأكد رحيلهم فقد اصطحبهم عبادة بن الصامت إلى الغاب وسمح لهم فقط أن يأخذوا معهم الأموال التى يمكن أن يسددوا بها ديونهم وقد أقاموا لمدة شهر فى وادى الأنسة حيث أدمهم يهود هذا المكان بالمؤن والخيل ليستأنفوا سيرهم إلى أذرارات بالشام حيث ظلوا هناك .

هذه كل قضية النبي مع بنى قينقاع ولكن من السذاجة والخطأ أن نعتبر أن سبب هذه القضية ينحصر فقط فى حادثة المرأة العربية التى ذكرناها آنفاً .

فى الواقع لقد كان لمحمد مأخذ كثيرة على بنى قريطة وقد كان هذا جزءاً من الصراع بين النبي ويهود المدينة وهو الموضوع الذى سوف نتناوله بالتفصيل بعد أن نفرغ من الصراعات المسلحة بين النبي وقبائل اليهود الثلاثة ونكتفى هنا بذكر حادثة تتعلق بين قينقاع .

يروى ابن إسحاق (ص ٣٨٣) « أنه بعد أن أخذ الله قريش فى غزوة بدر جمع رسول الله فور رجوعه إلى المدينة اليهود في سوق بنى قينقاع قائلًا : « يا معشر يهود أسلموا قبل أن يخزيكم الله كما أخزى قريش » فرد عليه اليهود « يا محمد لا يغرنك أنك قتلت عصابة من قريش لا خبرة لهم بالحرب والله لأن لقيتنا لعلمنا أننا نحن الناس وترى أنك ما لقيت مثلنا » ، وقد أنزل الله رداً على كلامهم

(١) الواقدى - المغازي (ص ١٧٩ ١٨١) - الطبرى ج ١ (ص ١٣٦١ - ٢) .

الآيات التالية « قل للذين كفروا سطّلوبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهداد قد كان لكم آية في فتنين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأنصار » [آل عمران آية ١٢ - ١٣] .

ويذكر ابن إسحاق من بين اليهود المعروفين بالمنافقين رجلاً يسمى زيد بن اللثيات وهو الذي دخل في عراك مع عمر بن الخطاب في سوق بنى قريظة وهو أيضاً من هذه القبيلة وعندما شردت ناقة النبي ذات يوم قال زيد بن اللثيات « يدعى محمد أن الوحي أنزل عليه من السماء ولا يعرف أين ناقته ولما وصل هذا الكلام إلى النبي قال : « قال أحدكم أن محمد يزعم أن الوحي يأتيه من السماء بينما لا يعرف أين ناقته وأيم الله إني لا درى إلا ما أعلمنيه الله وإن الله قد دلني على مكان ناقتي وإنها في هذا الشعب معقوله في شجرة » ، وحيثئذ ذهب بعض المسلمين إلى هذا الشعب ووجدوها كما قال النبي (١) .

ومن بين منافقى بنى قينقاع هؤلاء الأحبار سعد بن حسين والنعمان بن عوف ابن عمرو وعثمان بن عوف ورافع بن حريله ورفاعة بن زيد بن التابوت وعندما مات الإثنان الآخرين قال النبي « اليوم مات أشر الكفار » ويضيف إليهم ابن إسحاق اثنين آخرين هم سلسلة بن برهم وكتانة بين ثرية « وهؤلاء المنافقون كان من عادتهم أن يأتوا إلى المسجد ويسمعوا أحاديث المسلمين ويسيخروا منهم ومن دينهم » (السابق ص ٣٦٢) .

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن بنى قينقاع قد شنوا حملة على النبي وعلى الدين الإسلامي في المدينة ولم يكفوا عن معارضه المهاجرين والأنصار بالقول والفعل - وحيث أنهم كانوا برجوازين صانعين ولم يكونوا فلاحين مثل إخوانهم في الدين فقد أخذوا على عاتقهم مهاجمة الإسلام عقائدياً بالدعائية المسمومة حيث استخدمو أسلحة الوشایة والواقعية بين المهاجرين والأنصار وبين الأنصار بعضهم البعض . وبعد كل ذلك كيف تريدون من النبي أن يظل سليماً ولا يرد على عدائهم ؟ إن أى رجل عاقل لا يمكن أن يتحمل أكثر من ذلك .

(١) ابن إسحاق سيرة رسول الله (ص ٣٦١) .

لقد كان النبي على حق ألف مرة في أن يضع نهاية لعدوان بنى قريطة حين تسنح فرصة حقيقة وكانت هي حادثة المرأة العربية التي طعنت في شرفها وقتل الرجل المسلم الذي ثار لها . ولذلك فقد قرر النبي أن يصفى حساباته مع قبيلة اليهودي الشريرة والمعتدية والخطيره من أجل وجود الإسلام نفسه في المدينة .

إذا فدموه التماسح التي يذرها بعض المستشرين على مصير بنى قيقاع هي شئ مثير للضحك ومخزي ويشتت تعصيمهم الأعمى والظالم .

«محاولة بنى النضير قتل النبي»^(١)

وأما قضية بنى النضير فقد وقعت أحدها في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة (أغسطس - سبتمبر ٦٢٥م ولها علاقة بحادثة بنى معونة التي حدثت في صفر من السنة الرابعة للهجرة يوليو - أغسطس ٦٢٥م) .

وتتلخص تلك الحادثة في أن النبي أرسل بناء على طلب أبي براء عامر بن مالك أربعين رجلاً إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام فلما وصلوا إلى مكان يسمى بنى معونة وهو أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم فنزلوا وأرسلوا رسولاً مع كتاب النبي إلى عامر بن الطيفل من قبيلة بنى عامر فأبى أن يقرأ الكتاب وقتل الرسول ثم دعا بنى عامر لقتل الباقين فلم يجيئه قائلين أنتانا لا يمكن أن نخون جوار وأمان أبي براء فاستنصر ابن الطيفل قبائل بنى سليم فأجابتة (عصبية ورعل وذكوان) ، فقتلوا وفدي النبي فيما عدا كعب بن زيد بن النجار وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر في مؤخرة المسلمين فرأيا الطير من بعيد تحوم على موضع الواقعة . فنزلوا وقاتل المنذر حتى قتل مع أصحابه وأما عمر بن أمية الضمرى فقد أسر ولما قال لهم أنه من مصر أطلق عمر بن الطيفل سراحه ورحل عمرو بن أمية على بعيره فلقي رجلين من بنى عامر فقتلهم وهما نائمان وهو يرى أنه قد أصاب ثار أصحابه ، بينما كان هذان الرجالان معهما عهد من رسول الله لم يعلم به عمرو بن أمية وبعقد الجوار هذا يكون على النبي أن يدفع دية هذين القتيلين فذهب النبي إلى

(١) انظر ابن هشام (ص ٦٥٢) ، الواقدي (٣٦٢ - ٣٥٣) - الطبرى الجزء الأول (ص

١٤٤٨ ، ١٤٥٣)

يهود بنى النضير ليسا عدوه فى دفع الديه فأجابوه «أجل يا أبا القاسم إن علينا أن نساعدك كما ت يريد» ، ثم ذهبا بعيداً عن النبي وقالوا لبعضهم البعض : «إننا لن نظر بمحمد فى موقف أفضل من هذا لتخلاص منه وكان النبي يجلس إلى جدار من بيوتهم ، فقالوا أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد بها فيلقيها على رأسه فيشده بها ، فقال أحدهم وهو عمر بن جحاش أنا أفعل وجز نفسي للقيام بهذه المهمة وكان النبي يجلس ومعه بعض الصحابة منهم أبو بكر الصديق وعمر وعلي ابن أبي طالب فقام من مجلسه فجأة ورجع إلى المدينة ورجعوا وراءه وسألوه عن انتصافه فجأة فقال لهم النبي : إنه أوحى إليه أن اليهود كانوا يريدون قتله غيلة .

فأمر النبي بالتجهيز لحرب بنى النضير وسار على رأس جيش حتى بلغ حصونهم وحاصرها ليلة سبعة أيام ليجبرهم على الخروج ثم أمر بقطع وإحراق التخلي ولذلك أرسلت جماعة من بنى عوف بن الخزرجى منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووداعة ومالك بن أبي قوقال وسويد وداعس أرسلوا رسالهم إلى بنى النضير يحثونهم على المقاومة والبقاء فى حصونهم قائلين لهم : «لن نخونكم فإن قوتلتم لننصرنكم ولن آخرجن لنخرجن معكم» ، ولكنهم حين قامت الحرب لم يفعلوا شيئاً . وهنا دب الخوف والفزع فى نفوس بنى النضير فحملوا أمتعتهم وما استطاعوا حمله على عييرهم وأخذوا يدمرون بيوتهم حتى يأخذوا أبوابها وتحولوها على عييرهم وهكذا رحل بنو النضير .

وقد رحل بنو النضير نهائياً عن المدينة واستقر أغلبهم فى خير والآخرون واصلوا السير حتى الشام ومن بين أشرافهم الذين استقروا فى خير نذكر «سلام ابن أبي الحقيقة وكتانة بن أبي الريبع بن أبي الحقيقة وحبي بن أخطب وخرجت المنشدات خلفهن ينشدن الأناشيد ويضربن بالدفوف ويقلن «شىء غريب ما رأينا مثله . من أمة بين الأمم» ابن هشام (ص ٦٥٤) وقد حملت أموال بنى النضير إلى النبي فقسمها بين المهاجرين الأوائل خاصة ولم يعط من الأنصار سوى سهل ابن حنيفة وأبي دجابة سماك بن خراشه لفقرهما فأعطاهما جزءاً ولم يبق من أموال بنى النضير سوى مال رجلين يمين بن عمير بن كعب بن عم عمر بن جحاش وأبي سعد بن وهب لأنهما دخلا فى الإسلام . ويقال إن النبي عنتف يميناً

قائلاً : « أرأيت ما كان يريد ابن عمك أن يفعله بي ؟ وهنا عهد يمين إلى رجل بقتل عمر بن جحاش فقتله .

وكان تقسيم الغنائم بهذه الطريقة بهدف إلى إعطاء المهاجرين ما يقيم أودهم دون الاحتياج إلى الأنصار الذي كانوا حتى ذلك الوقت يساهمون في سد حاجة المهاجرين ولذلك كان الأنصار متفقين على هذا الشكل من التوزيع .

وبخلاف العقارات من منازل وأراضٍ فقد خلف بنو النضير وراءهم خمسين زرداً وخمسين خوذة - وثلاثمائة وأربعين سهماً . وقد كانت أراضي بنى النضير خصبة يزرع فيها بجانب التخيل القمح والشعير . وقد وهب النبي لسعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيقة المشهور .

ولم يحدث سفك لآية دماء إيان رحيل بنى النضير لأنهم نزلوا على شروط النبي حتى يخرجوا وبها جروا إلى خير .

وقد نزلت سورة الحشر بأكملها تتحدث عن طرد بنى النضير وحسبما يقول ابن هشام ^(١) ومفسرو القرآن فإنه يمكن تقسيم تلك السورة إلى جزأين : ١ - من الآية ٢ حتى ٩ ، ٢ - من الآية ١١ حتى ١٧ ، والجزء الأول يرتبط مباشرة بإخراج يهود بنى النضير والجزء الثاني يتتحدث عن موقف المنافقين أمثال عبد الله ابن أبي ومن على مشاكلته ، وهذا هو النص :

الجزء الأول : « سورة الحشر » .

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظنتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعمتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقدف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعبروا يا أولى الأبصار ، ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ، وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسليه على من يشاء والله شديد العقاب ، ما أفاء الله على

(١) ابن هشام (السابق) (ص ٦٥٢)

رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوعوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويعثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴿ (سورة الحشر : ٢ - ١٠) .

الجزء الثاني : « في شأن المنافقين » :

﴿ ألم تر إلى الدين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لخرجون معكم ولئن قوتلتم لننصركم والله يشهد إنهم لكافرون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينتصرون ، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ، لا يقاتلونكم جمِيعاً إلا في قرى محسنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جمِيعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، كمثل الذين من قبلهم قريراً ذا قوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴿ (سورة الحشر : ١١ - ١٧) .

كما نرى بوضوح فإن المسائل المتعلقة بقضية بنى النضير قد ناقشتها الآيات : سبب طرد بنى النضير ودفع المسلمين إلى قطع نخيلهم وسلطة الرسول المطلقة في توزيع الغنيمة كما يريد حيث لم يعط الأنصار لا خيلا ولا ركابا بينما لم يشعر الأنصار بأى شيء من الحقد مما أخذه المهاجرون . وكذلك موقف المنافقين الغاضب وهم عبد الله بن أبي وزمرة الذين حرضوا بنى النضير على مقاومة النبي ووعدوهم بالوقوف بجانبهم ولكنهم تصلوا وتركوا حلفاءهم اليهود في موقف صعب أجبرهم على التزول على شروط قاسية .

ومن الجدير بالذكر أن كايتانى ^(١) وقد رأينا متحفزاً ومتاهباً للدفاع عن بنى قينقاع لم يقل كلمة واحدة في لوم الرسول فيما يخص وقعة بنى النضير . وهذا لأنه لم يجد أى سبب يبرر لومه

وحتى نفهم سلوك النبي في تلك القضية يجب أن نضع في أذهاننا الاعتبارات الآتية :

(١) حينما أراد أبو سفيان أن يثار لهزيمة بدر خرج فيما بين الخامس والعشر من ذى الحجة في السنة الثانية للهجرة على رأس جيش قوامه من مائتين إلى أربعمائة محارب مكى يمتطون ظهور البعير وسلك الطريق الذى يمتد إلى هضبة نجد حتى وصل إلى أقرب مكان من قتاه وعسكر قريباً من جبل ثيب على مسيرة يوم من المدينة وفي الليل ذهب إلى بنى النضير وتحدث إلى « سلام بن مشكم » الذى كان في ذلك الوقت زعيم قبيلة بنى النضير وخازنها فاستقبله سلام وعرفه أخبار المدينة ومحمد صلوات الله عليه من المسلمين هناك ، وعند الفجر قفل أبو سفيان راجعاً إلى معسكره وأمر بغزو العريض ودمر المقاتلون المكيون بعض التخيل وأضرواها النار في متزلاين وقتلوا أنصارى ومعاونه في الحقل ، ثم هرب أبو سفيان ورجاله وعندما علم النبي بما فعله أبو سفيان ورجاله خرج يطلبهم ولكنه لم يدركهم ووصل إلى قرفة الكلر واتخذ طريقه للمدينة ووجد في طريق عودته كمية من السويف في حمل ثقيل تركها الفارون ليتخففوا منها أثناء الهرب وقد سميت هذه الغزوة « غزوة السويف » ^(٢)

إذن فقد علم أبو سفيان الأخبار من زعيم بنى النضير ليهاجم محمداً صلوات الله عليه في المدينة وهذا يعد فعلاً في قمة الخيانة يرتكبه هذا الزعيم لأن حسب الميثاق بين محمد صلوات الله عليه وبهود المدينة يجب على اليهود إلا يساعدوا القرشيين ضد محمد صلوات الله عليه. إذاً فقد كان النبي على حق تمام حين عاقب بنى النضير على هذه الخيانة الشنعاء.

(ب) وقد سنت الفرصة لعقابهم وهذه الفرصة لاحت عندما ذهب النبي يطلب مساهمتهم في دفع دية الرجلين من بنى عامر اللذين قتلهمما عمر بن أمية

(١) انظر حلوليات الإسلام ج ١ (ص ٥٨٤ ، ٥٨٨)

(٢) انظر ابن هشام (ص ٥٤٣ - ٤) الواقدى (ص ١٨١ - ١٨٣) - الطبرى جزء واحد (١٣٦٧ - ١٣٦٤)

الضمرى ولم يعطه بنو النضير ولكنهم طلبوا من النبي أن يستريح إلى جوار جدار لهم وزعموا أنهم ذهباً يتشارون ولا تأخروا في الرجوع شك النبي في أنهم ربما يدبرون مؤامرة لقتله وذلك بقذف حجر من فوق الحائط الذي يسند إليه ظهره ليشدوها رأسه وقد كان على حق في شكه في هذه المؤامرة ولذلك حينما رجع فجأة وعاد إلى المدينة أعطى أوامره لمحمد بن مسلمة الأوسى بأن يذهب إلى بنى النضير ويأمرهم بالهجرة لمكان بعيد عن المدينة وأن يكون رحيلهم خلال عشرة أيام وإلا أعمل التقتل فيهم تاركاً لهم إمكانية أن يحملوا معهم ما استطاعوا من أموال وأن يأتوا كل عام ليجذوا ثمار نخيلهم . وأما بقية القصة فقد ذكرناه آنفاً .

وأما « ر . و . و . و . » ، فمع أنه كان عادلاً وموضوعياً وحسن النية تجاه النبي فإنه لم يكن على حق أن يقول : « إن مثل هذا التصرف القاسي يبدو غير مبرر إذا قيس بالجرم المرتكب أو ربما لا يتفق مع ما قيل من أشياء تعد تصرفات مبهمة في موضوع تعمد الخيانة من جانب اليهود ^(١) لأنه بعد أن تآمر اليهود مع أبي سفيان ليلة غزوة السويفي كان محمد على حق أن يفتت بهم ولكن أن يتظر حتى تنسح له الفرصة لترحيلهم ، فليست هذه تصرفات مبهمة جداً بل هذه « حصاده وحسن تصرف تام » .

« الصراع مع بنى قريظة »

وقد كان الصراع مع ثالث قبائل يهود المدينة أكثر عنفاً وهو الصراع الوحيد الذي وصل إلى حد سفك الدماء وكان سبب ذلك أن بنى قريظة قد خانوا النبي ^{صلوات الله عليه} خيانة عظمى وعرضوا للخطر وجود المسلمين أنفسهم والإسلام وقائده وتلك هي الأحداث .

(١) في شهر شوال من العام الخامس للهجرة مارس ٦٢٧ ذهبت جماعة من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق من بنى النضير وحبي بن أخطب من بنى النضير وكأنه بن أبي الحقيق من بنى النضير وهو زة بن قيس من بنى وائل وأبي عمار من بنى وائل ومعهم حشد من بنى النضير وحشد من بنى وائل إلى القرشيين بهم

(١) (و . م . و .) محمد في المدينة - الترجمة الفرنسية (ص ٢٥٥) - باريس - مايو - (١٩٥٩) .

وأغروهم بحرب رسول الله قاتلين : « نحن معكم عليه حتى نتأصل شأته » ، فقال لهم أهل مكة : « يا عشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول وأنتم أهل للحكم بيننا وبين محمد فمن على حق ديننا أم دين محمد ؟ » ، فرد عليهم اليهود : « دينكم خير من دينه وأنتم على الحق دونه » ، وعندما سمع القرشيون ذلك تهلكت أساريرهم وتحفروا لقبول ما عرضوه عليهم من حرب رسول الله ﷺ وأبرموا إتفاقاً فيما بينهم وتواعدوا على الحرب .

« ثم رحل هؤلاء اليهود وذهبوا إلى قبيلة غطفان وهي من بطون قيس عيلان وأغروهم بحرب رسول الله ﷺ قاتلين لهم : « سنكون معكم نحن وقريش وسار القرشيون يتقدمهم أبو سفيان بن حرب وخرجت قبيلة غطفان وعلى رأسهم عبينه بن حصن بن بدر .. إلخ ^(١) » - ثم إد حبي بن أخطب اليهودي ذهب إلى كعب بن أسد زعيم بنى قريطة ودعاه إلى نقض حلفه مع النبي ومساعدة قريش وبنى غطفان عندما يأتون ويهاجمون المدينة . فنقض كعب بن أسد باسم يهود بنى قريطة عهده مع النبي ونزل على رأى حبي وأخذ يجهز المؤمن لجيش قريش وبنى غطفان ولما علم النبي بهذه المؤامرة أرسل إلى بنى قريطة رسولين هما سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج ليعرفوا ما إذا كان ما وصلهم صحيح أم لا فذهب الرجالان إلى حبي بنى قريطة وعلموا أن الأمر أسوأ مما يعلمون فقد قال لهم بنو قريطة : « ومن هو رسول الله ؟ ليس بيننا أى ميثاق و « عهد مع محمد » (ابن هشام ص ٦٧٥ وعندئذ عاد الرسولان إلى محمد يحملان إليه ما سمعاه من أخبار) .

ولما علم النبي بهذه الاستعدادات لغزو المدينة أمر بناء على نصيحة سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة وعندما وجد جيش قريش وحلفائهم هذا الخندق بدأ وفي حصار المدينة في الثامن من ذى القعدة سنة ٥ هـ ٣١ ماوس سنة ٦٢٧م وقد استمر الحصار خمسة عشر يوماً ^(١) . وتفاصيل هذه الغزوة المعروفة بغزوة الخندق لا مجال لها هنا وكل ما يهمنا هو دور بنى قريطة القبيلة الوحيدة التي كانت لا تزال بالمدينة .

كان بنو قريطة يسكنون في بيوت في جنوب المدينة وهذا الجزء لم يكن محاطاً

(١) ابن هشام (ص ٦٦٩ - ٦٧٠)

بالخندق المحفور حول المدينة ويدو أن خطة القرشين وحلفائهم من غطفان بالاتفاق مع بنى قريطة هى مهاجمة المدينة من الجزء الشمالى بينما يهاجم يهود بنى قريطة المسلمين من جهة الجنوب وكان معسكر القرشين يقع فى رماح فى وادى الحقيق على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة بينما كان معسكر غطفان فى غابة على مسافة مائة من المدينة .

ولأن بنى قريطة كانوا ضعافا فقد انتظروا أول لقاء بين الجيشين الكبيرين «الأحزاب وال المسلمين » وقرروا أن لا يدخلوا المعركة إلا حين تلوح بشائر النصر . وعندما لم يدل شئ على أن هذا النصر يلوح فى الأفق ظل يهود بنى قريطة فى حالة ترقب حتى الانسحاب الكامل من جانب جيش الأحزاب ولأن بنى قريطة كانت عندهم النية لهاجمة المسلمين من الخلف كما ثبت كل المصادر التى دلت على ذلك فإن بنى قريطة طلبوا من قريش ألف رجل ومثلهم من غطفان حتى ينفروا الخطه المتفق عليها . وأحس محمد برائحة الخيانة فبعث سريتين بقيادة «سلام بن أسلم » «وزيد بن حارثة » للدفاع عن الجزء الجنوبي من المدينة حيث يوجد بنو قريطة .

ويجب أن نستبعد هذا الزعم الساذج والمثير للسخرية الذى يقوله كاتبنا «جا ص ٦٢٤ » والذى رده م . و . وات (ص ٢٥٥) ، ويقول كاتبنا : «إن بنى قريطة كانوا يحتلون موقعا على قدر كبير من الأهمية وكان يمكن للقرشين بالاتفاق معهم أن يهاجموا المدينة من الجزء الآخر أيضا أي من الجزء الذى لا يحميه الخندق وقد احتل بنو قريطة بحصونهم خلف المدينة موقعا على جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية جعلهم يتسلدون الموقف » ج ١ ص ٦٢٤ وملحوظة ١ ص ٦٢٥ .

ويردد م . و . وات بنفس السذاجة التى لا تصدق قائلاً : « إن هجوم بنى قريطة من الجنوب على مؤخرة المسلمين كان يمكن أن يستأصل شأفة محمد » (٢) .

(١) انظر ابن هشام (ص ٦٧٠ - ٦٧٧) ، ابن الأثير الجزء الثالث (ص ١٣٠ - ١٤١) ، العقوبى الجزء الثانى (ص ٥٠ - ٥٢) ، الخميس جزء واحد (ص ٥٣٩ - ٥٥٤) - البخارى الجزء الثالث (ص ٩٣ - ٩٨) ، السيرة الخلبية (ص ٦٠ - ٨٥) ، الطبرى جزء واحد (ص ١٤٦٧ - ١٤٧٠) - الواقدى - فلهاؤزن (ص ١٩٢ - ١٩٥) .

(٢) م . و . وات محمد فى المدينة - الترجمة الفرنسية (ص ٥٥) .

إن وات كايتانى ينسون أن السريتين اللتين بعث بهما النبي لعمادة ظهور المسلمين من هجمات بنى قريظة كانتا كافيتين لإفشال هذه المحاولة من جانب بنى قريظة ونسوا أيضاً أن هؤلاء اليهود لم يشكلوا أية قوة قادرة على إلحاق ضرر فادح في مؤخرة المسلمين وخضوعهم التام واستسلامهم أمام هجوم المسلمين فيما بعد لهو دليل واضح على ضعف قوتهم الحربية فهل ، أنا أيضاً أحق في أن أرى كاتانى وبالأخص وات يكتبون هذه السخافات ؟ في الواقع بعد أن انسحب القرشيون وخلفاً لهم من غطfan وفي نفس اليوم سار المسلمون إلى بنى قريظة ليعاقبواهم على خيانتهم فلما رأوا الهجوم انسحبوا إلى حصونهم وبعد صلاة الظهر بقليل سار المسلمون إلى تلك الحصون يحمل رايتهم على بن أبي طالب والرسول على فرس يقال له اللهيف على رأس جيش به ست وثلاثون فرساً ثم توقف ليستريح عند ماء أناس الذي يوجد أسفل حرة بنى قريظة وقد سبقه على وأبو قتادة مع بقية جيش المسلمين « ابن هشام ص ٦٨٤ - ٦٨٥ - الطبرى جا ١٤٨٥ - ١٤٨٦ » وعندما تقدم على بقىمة الجيش إلى حصونهم هب بنو قريظة يشتمون محمداً بأذى الشتائم ولا علم النبي من على ما قالوه اقترب من حصونهم قائلاً : « يا إخوان القردة ألم يخزكم الله ويستقم منكم ؟ فردوه عليه » . (القد علمت) « ابن هشام ص ٦٨٤ » .

« وفرض رسول الله الحصار حول حصونهم لمدة خمسة وعشرين يوماً حتى أرهقهم الحصار قذف الله في قلوبهم الرعب وقد دخل حبي بن أخطب مع بنى قريظة في حصونهم وحينما سجت قريش وغطfan مع ما كانوا عليه من عهدهم كبير بن أسد وعندما تيقن بنو قريظة أن رسول الله لن يرحل قبل أن يقضى عليهم قال لهم كعب بن أسد : « يا عشر يهود لقد ألم بكم ما ترون وإنى أعرض عليكم ثلاثة خصال فاختاروا ما شئتم ، فسأله وما هي هذه الخصال فقال لهم : ندخل في عهد هذا الرجل ونؤمن به فقد علمتم والله أنه لنبي مرسل وإنكم تجدون ذلك في كتابكم وإن اتبعتموه ستؤمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم » ، فقالوا له : لا نترك حكم التوراة أبداً ولا نرضى به بديلاً فقال لهم : فإن أبitem فاقتلو زراريكم ونسائكم بأيديكم ثم نخرج إلى محمد ورجاله بسيوف مصلتين لا نترك وراءنا أى شيء حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن متنا فقد متنا دون أن نترك ذرية من بعدها تخاف عليهم وإن انتصرنا ترجمنا وأنجبنا ذرية أخرى فقالوا له

أنقتل هؤلاء المساكين ؟ ما قيمة الحياة بعدهم ؟ فقال لهم : فإن أبيتم فهذه ليلة السبت وقد يظن محمد وأصحابه أننا لن تفعل شيئاً فهيا نأخذ محمداً وأصحابه على غرة فأجابوا : أنعدوا في سبتنا ويفحصونا ما حاق بأهلنا حين تحرروا وعدو في السبت مسخهم الله فقال بغضب « ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً » (١) .

وفي الصباح وبعد خمس وعشرين يوماً وقيل خمسة عشر يوماً من الحصار اتفقوا على أن يستسلموا للنبي فبعثوا نياسن بن قيس ليتفاوض مع النبي وطلبوه أن يرحلوا بنفس الشروط التي رحل بها بني النضير ولكن النبي رفض لأن حالة بني النضير تختلف عن حالة بني قريظة وطلب منهم أن يستسلموا بلا شرط وعندئذ طلبوه مقابلة لبابة بن عبد المنذر الأوسى حليفهم القديم فبعث الرسول إليهم أبا لبابة الذي نصحهم بأن يستسلموا دون شروط وأفهمهم بحركة من يده حول عنقه أن المصير الذي يتظار لهم هو الذبح وهي حركة ظل يؤذن نفسه عليها حتى سامحه النبي ولم يكن أمام بني قريظة إلا أن يستسلموا بلا شروط فربطوا الرجال في حبل وسبقوه بواسطة محمد بن مسلمة وجمع النساء في مكان آخر وعهد معهم إلى عبد الله بن سلام وغنم المسلمين كل ما في بيوت بني قريظة من آنية وسلاح وملابس ومنقولات وغنموا في ذلك (١٥٠٠) سيف و ٣٠٠ زرد و ١٠٠٠ رمح و ١٥٠٠ أوقية) ، وكثير من الزجاج وبعض الإبل والحمير .

أما عن مصير الأسرى فإن الأوس الذين كانوا حلفاء بني قريظة قد توسلوا إلى النبي ﷺ بأن يترك لهم التصرف في مصيرهم كما فعل مع بني قينقاع حلفاء الخزرج حين ترك مصيرهم في أيدي الخزرج ومع أن النبي رأى أن الفرق كبير بين الموقفين إلا أنه أجابهم « لا تررضون عشر الأوس أن تحكم فيهم رجلاً منكم قالوا نعم فقال النبي فذاك إلى سعد بن معاذ » (ابن هشام ص ٦٨٨) .

فجئ بسعد بن معاذ إلى النبي فتوجه إلى المتدخلين حول النبي قائلاً : « تشهدون الله على أنكم ستنزلون على حكمي في بني قريظة ؟ قالوا نعم فقال النبي نعم ، فقال سعد : « أحكم فيهم بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتنقسم الأموال » .

(١) ابن هشام (ص ٦٨٥-٦٨٦) .

فقال النبي لسعد بن معاذ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » (ابن هشام ص ٦٨٩)

ويحكى ابن إسحاق أنهم أنزلوا من حصونهم وحبسهم رسول الله في دار بنت الحارس وهي امرأة من بنى النجار وذهب الرسول إلى سوق المدينة وحفر لهم خنادق في هذا السوق ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق وتضرب أعناقهم في تلك الخنادق جماعة بعد الأخرى وكان من بينهم عدو الله حبي بن أخطب وزعيمهم كعب بن أسد وكان عددهم ما بين стمائة إلى السبعمائة ومن بالغ في عددهم قال : أنهم ما بين الشمائة والسبعمائة (ابن هشام ص ٦٩).

ولم يقتل أحد من نسائهم باستثناء امرأة واحدة لحرميها ارتكبها لم يعرف ما هي (ابن هشام ص ٦٩٠ ، ١ ، ٢٢ هامش)^(١)

وقد أمر النبي أن يقتل من الذكور من أئبنت وبيع من لم يثبت أسيراً وقد روى ابن هشام أيضا ص ٦٩٢ أن سلامة بنت قيس عمة النبي أوصته أن يترك رفاعة بن صموئيل القرطبي لأنها زعمت أنه يقيم الصلاة ويأكل لحم الإبل أى أنه مسلم فتركه النبي .

وسمت أموال بنى قريظة ونسائهم وأطفالهم هكذا : للفارس ثلاثة أسمهم اثنان للفرس وواحد له والمشاة سهم واحد وكان عدد الفرسان ست وثلاثون وقد خرج خمس الغنائم للنبي قبل التقسيم وهذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها خمس الغنائم كلها ويعطى للنبي ومنذ ذلك الحين جرت القاعدة على إعطاء الخمس للرسول في بقية الغزوات التالية وقد بعث النبي سعد بن زيد الأنصاري مع بعض نساء اليهود الأسرى إلى نجد فباعهم واشترى بثمنهن أسلحة وخيال .

وقد اصطفى رسول الله لنفسه من سبايا بنى قريظة ريحانة بنت عامر بن خنافة وهي امرأة من بنى عمرو بن قريظة وظلت عند النبي حتى مات عنها وحينما عرض عليها أن يتزوجها قالت له « يا رسول الله أحب أن أظل ملك يمينك فهذا خير لي ولك » ، فتركها الرسول ولما أصرت رفضت أن تعتنق الإسلام وفضلت

(١) وفي بعض المصادر يقال أنها رمت حجراً كثيراً على أحد المحاصرین المسلمين

أن تظل يهوديه اعتزلاها النبي ولكن بعد وقت قصير أعلنت إسلامها فضمنها النبي
إليه « ابن هشام ص ٦٩٣ » .

أما العقارات والتى كان أكثرها مزارع النخيل فلم تبع ولكنها قسمت إلى
خمسة أقسام متساوية قسم للنبي والأقسام الأربع لأربع من القبائل عن طريق
القرعة .

وهذا كل ما يمكن أن يقال في موضوعبني قريظه .

ولذلك فإنه من العجب أن نرى كثيراً من المستشرقين يذرفون دموع التماسيع
على مصبر بنى قريظة مثل كايتانى الذى يزعم أن المذبحة التى راح ضحيتها ٩٠٠
من أبناء اليهود كانت مدبرة وأن حكم سعد بن معاذ كان بناء على توجيهات من
النبي وأن مسألة خيانة اليهود خيالية وأن محمداً وحده يتحمل مسؤولية تلك
المذبحة (١) .

وفي كتاب صغير يتسم بالسوقية بعنوان « محمد والفتح العربي الكبير »
(ميلانو، ١٩٦٧) يردد فرانشيسكو جاريل اكينتشن مزاعم كايتانى .

ولكن ما لاحظ كايتانى فاسد للأسباب التالية :

(١) حكم سعد بن معاذ لم يكن بإملاء من النبي وهذه جلسة الحكم الذى
نطقه سعد حين حمل إلى حيث يجلس النبي مع مثلى المهاجرين والأنصار ومن
بينهم الأوس وهم الحلفاء القدامى والمدافعون عن بنى قريظة والذين كانوا يريدون
أن يساعدوهم وقد اتفق الجميع على أن يتولوا على حكم سعد ولم ير أحد أن
سعد تداول مع النبي قبل أن ينطق حكمه ولم يشك أحد من الأنصار فى حدوث
مثل تلك المشاورة فبأى حق يزعم كايتانى ومن على شاكلته يتجرءون بالحديث عن
أن الحكم كان بإيعاز من النبي ؟ وهل شهد كايتانى وأمثاله جلسة الحكم هذه التى
حدثت قبل ثلاثة عشر قرناً من ميلادهم ؟

(ب) لقد أوضحنا بما فيه الكفاية خيانة بنى قريظة للنبي إبان غزوة الخندق
أليس من المثير للسخرية إذاً أن يتحدث كايتانى عن ٩٠٠ بريء ؟ وهل الذين
يتآمرون مع الأعداء من قريش وغطفان ليهاجموا ظهور المسلمين بينما يهاجم

(١) كايتانى - حلوليات الإسلام - ج أ ص ، ٦٣ ملحوظة ٨ .

القريشيون وحلفاءهم شمال المدينة يكونون براءء ؟ وأما كونهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بفضل السريتين اللتين بعث بهما النبي لإفشال المخطط وأيضاً بسبب عدم وجود هجوم مجاهي وحقيقي من جانب القرشيين فهذا لا يلغى شيئاً من إدانة اليهود باعتبارهم خائين .

(جـ) بأى حق يتحدث كاتبى عن « المذبحة اللا إنسانية بعد اشتراك بنى قريطة فى الهجوم على النبي وMuslimi المدينة ؟ إن كاتبى نفسه يعترف فى الجزء الأول أن بنى قريطة كان لهم دور مهم فى مهاجمة محمد بالاتفاق مع قريش على أن يهاجم القرشيون الجزء الأعلى من المدينة بينما يهاجم اليهود الناحية الأخرى وفى ملاحظته فى هذا السياق يقول أيضاً إن التبيحة الواضحة أن بنى قريطة كانوا سيحتلون حدود المدينة وسوف يكونون فى موقع غاية فى الأهمية الاستراتيجية وسوف يتحكمون فى الموقف وكان إخراج بنى قريطة لمهاجمة المدينة يعني أن ينظم اليهود صفوفهم ليهاجموا الناحية المقابلة للمدينة والسماء العالية والتى تقع ضمن حدودهم « المرجع السابق ص ٦٢٥ » ، وهذا هو كلام كاتبى فكيف يتجرأ بعد ذلك على وصف بنى قريطة بأنهم أثرياء ؟ ولكنه التعصب الأعمى الذى جعله يقع فى هذه التناقضات .

إن حكم سعد وما تمخض عنه ما ليس للنبي فيه دخل ينبع من أن بنى قريطة اشتركوا في هذا التحالف الذى جاء يهاجم المدينة بهدف استصال شأفة المسلمين ومحمد والدين الإسلام . إذا فقد كانوا محاربين أعداء بمعنى الكلمة وقانون الحرب يحتم قتل الرجال بالسلاح وأسر النساء والأطفال وقد كان حكم سعد بن معاذ تطبيقاً دقيقاً لهذا القانون وإذا كان القانون فى حد ذاته غير عادل فهو قانون الحرب الذى يطبق فى كل زمان ومكان بمتى الظلم والقسوة كما أن العلماء المستشرقين الأوروبيين يعرفون ذلك تماماً وقد طبقة الأوروبيون آلاهه وآلاف المزارات فكيف يأتون اليوم ليلقنونا دروساً في الأخلاق في موضع الحرب !

وأما حكم « مكسيم رودنسون » في هذا الموضوع فهو حكم رشيد حيث يقول « لقد كانت مذبحة بنى قريطة من ناحية أخرى ومن وجهة نظر سياسية أمراً مفروضاً فقد كان بنو قريطة يشكلون خطراً دائمًا على المدينة وكان تركهم يرحلون يقوى مركز المؤامرات المضادة للمسلمين في خير والموتى فقط هم الذين لا

يعودون وقتلهم من الممكن أن يساهم في إضعاف الروح المعنوية لدى الأعداء وقد كان الحل الذي اختاره محمد هو الأمثل من الناحية السياسية ونعلم جيداً أن السياسيين لا يقبلون الاعتبارات إلا عندما تصبح لديهم عوامل سياسية مفيدة أو عندما لا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك « (١) »

ولكن رأى و . م . وات (٢) مضطرب جداً فبدلاً من أن يسوق حكماً واضحاً فإنه يتخطى فيسوق أحياناً ملاحظات عن الولاء للإسلام الذي فضلته سعد على ولاته القبلي الذي كان يتطلب منه أن يضع في الاعتبار الحلف القديم بين بنى قريظة والأوس .

فتح خير

لقد تخلص محمد نهائياً من يهود المدينة ولكن ظل هناك بقية من اليهود يشرون القلاقل ويدبرون المؤامرات مع أعداء المسلمين ويقومون بدعاية مضادة لدين الإسلام بين مختلف القبائل التي لم تكن قد دخلت الإسلام . لقد رأينا كيف أن اليهود الذين طردوا من المدينة وجلعوا إلى خير قد حرضوا قريشاً وغطفان على أن يتحالفوا ويرسلوا بجيشه جرار إلى المدينة وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت النبي يتزل على حكم سعد بن معاذ ويقتل رجال بنى قريظة ليمنعهم من أن يتهموا لحربه مرة ثانية كما فعل بنو النضير .

وبعد يومين مما وقع لبني قريظة - بدأ زعماء خير يتحركون . فقد اجتمع زعماء خير وزعيم بنى النضير اللاجئين إلى خير يجتمعون لمشاوروا فيما يجب أن يفعلوه وأخذ النساء يصرخن ويزقن ثيابهم ويقطعن عقودهن حداداً على بنى قريظة . وخطب سلام بن مشكم في اليهود المجتمعين وعرض عليهم الدخول في حلف مع يهود تماء وفدرك ووادي القرى ليتحالفوا ويغزوا المدينة قبل أن يهاجم محمد خير وهو الهجوم الذي قدروا أن يكون هجوماً وشيك الوقوع فقوبل اقتراحه بالترحاب من جانب المجتمعين سوى كنانة بن الريبع الذي أكد

(١) مكسيم رودنسون ، محمد ، (ص ٢٤٨) ، باريس ، ١٩٧٥ .

(٢) م . و . وات محمد في المدينة الترجمة الفرنسية (ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) . وهذا الرأى مضطرب ويشير له رائحة الشroud وهو رأى دائم يردد وات في كل مرة تظهر له مشكلة واضحة .

لهم أن الهجوم لن يكون وشيك الواقع (١) وقد كان على حق فيما حدثت
غزوة خير في شهر رمضان من السنة السابعة للهجرة بينما كان هذا الاجتماع في
١١ ذو الحجة في السنة الخامسة من الهجرة أى قبل فتح خير بأكثر من عام .

لقد سار النبي على رأس جيش المسلمين إلى خير في الأيام الأخيرة من
رمضان للسنة السابعة للهجرة (بداية مايو ٦٢٨ ميلادية) وكان على بن أبي
طالب يحمل لواء الجيش ذي اللون الأبيض وقد استعمل النبي على المدينة عليه
ابن عبد الله الليثي ومر بالجيش على الصهباء ونزل في وادي يسمى الرجيع بين
خير وغطفان لمنع غطفان من مساعدة خير لأن غطفان كانوا متحالفين مع أهل
خير وغطفان صغيراً ليساعدوا خير في حربهم ضد النبي وبعد سيرهم بوقت قصير سمعوا
سخطاً وجلبة بين اليهود فاعتقدوا أن المسلمين هاجموا قومهم ففروا راجعين إلى
منازلهم وتركوا الساحة خالية بين النبي وأهل خير .

واقترب المسلمون من حصن خير وأخذوا يسقطونها واحداً بعد الآخر وكان
أول ما سقط من الحصون حصن ناعم وثاني الحصون كان يسمى حصن القاموص
وكان لقبيلة بنى الحقيق .

ومن النساء اللاتي أسرن ذكر صفية بنت حمبي بن أخطب التي كانت متزوجة
من كنانة بن الريبع بن أبي الحقيق ، وقد اصطفى النبي صفية لنفسه ثم تزوجها
في طريق العودة إلى المدينة وقسمت بقية السبايا بين المسلمين (٢) وكان زوج صفية
وهو كنانة بن الريبع خازن لبني النضير وحارث خزائدهم وقد سأله النبي أين يوجد
هذا الكثر فزعم كنانة أنه لا يعلم شيئاً عنه ولكن أحد اليهود قال للنبي إن كنانة
يحوم كل يوم حول أنقاض بيته ، وهنا قال النبي لكتنانة : « ولو وجدت الخزائن
عندك أقتلك ؟ فقال كنانة : نعم ، فأمر النبي بحفر الأنقاض فظهر جزء من الكثر
فقال النبي لكتنانة أين تخفي الكثر ؟ فرفض كنانة أن يرشد عن مكانه فأمر النبي
الزبير بن العوام أن يعذبه حتى يعترف أين يخفي بقية الكثر ولما يشنه قتله
محمد بن مسلمة .

(١) الواقدي ، فلهوزن ، (ص ٢٢٤) .

(٢) ابن هشام (ص ٢٥٨) .

ثم استولى المسلمون على بقية الحصون فيما عدا حصن الواطة والسلام فقد حاصرهم المسلمون ولما تأكروا من أن الحصين على وشك السقوط رجوا النبي أن يخلق بينهم وبين الرحيل فوافق النبي ، بينما سلم أهل فدك حصونهم وقد أرسلوا إلى النبي ليستبقيهم أيضاً مقابل أموالهم فواافق النبي ، وقد رجا أهل خير النبي أن يزرعوا الأرض مقابل نصف الخارج منها لأنهم يعرفون زراعة الأرض أفضل من المسلمين فواافق النبي على شرط أن يستطيع طردتهم من الأرض حين يريد^(١) . وعلى هذا كانت خير غنيمة لل المسلمين الذين شاركوا في فتحها بينما كانت فدك خاصة للنبي لأن المسلمين لم يفتحوها بالقوة .

يهودية تدس السم للنبي

بعد أن انتهى النبي من فتح خير وفديك أهدت يهودية تدعى زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكك أحد زعماء اليهود كتف شاة مشوية إلى النبي ، وكانت تعلم أن النبي يفضل هذا الجزء من الشاة ، ولذلك حشته بالسم كما حشت بقية الفخذ ووضعته أمام النبي الذي تذوق جزءاً من الكتف ، ولكنها لم يستسغها وكان رجل يأكل النبي ويدعى بشير بن البراء بن معروف قد ذاق قطعة فاستطابها وأكل جزءاً كبيراً من الكتف ولكن النبي تقياً قطعة اللحم ، ثم قال : « إن هذا العظم يحدثني أنه سموم » استدعاي زينب بنت الحارث فاعتبرت فقال لها ما الذي حملك على ذلك ؟ » فقالت له : « لقد فعلت بقومي ما لا يخفى على أحد فقلت لنفسي لو كان ملكاً أتخلص منه ، ولو كاننبياً فسوف يحميه الله من هذا فسامحها النبي ، ولكن بشير مات بالسم ، ويعتبر أن النبي في مرضه الأخير قبل الموت قال أنه منذ الأكلة التي أكلها في خير يشعر أن عرقه يتقطع ، كما أن المسلمين يزعمون أن النبي مات شهيداً مع ما أولاًه الله من النبوة^(٢) .

وقد ذكر ابن هشام أسماء المسلمين الثمانية عشر الذين استشهدوا في خير (٧٦٨ ، ٧٦٩) ، وأما الغنائم فقد قسمت غنائم حصن الشق ونطاه بين المحاربين المسلمين وغنائم حصن الكنيسة كان خمسها للنبي وذى القربى واليتامى ونساء النبي والوسطاء بين النبي وأهل فدك « المرجع السابق ص ٧٧٣ »

(١) ابن هشام (ص ٧٦٤ - ٧٦٥)

(٢) ابن هشام (٧٦٥)

أما عن عقد المزارعة مع أهل خير فقد ظل سارى المفعول في حياة النبي وخليفته أبي بكر وكذلك في عهد عمر بن الخطاب ، ولكن عمر سمع بحديث للنبي يقول لا يجمع دينان في الجزيرة العربية » ومن ناحية أخرى فإن النبي حين منح ليهود خير حق استمرار زراعة أراضي خير وعاملهم على نصف الخراج قال لهم أن له الحق في أي وقت أن تنتزع منهم حق الزراعة ويطردتهم من هذه الأراضي وهذا بالضبط ما ذكرهم به عمر حينما أمرهم بالرحيل عن الأرض في سنة عشرين هجرية (٦٤٢) ميلادية .

وعلى ذلك فقد كان في غزو النبي خير وفديه ووادي القرى مبرأ تماماً من الناحية السياسية والدينية وحتى الاقتصادية ولذلك فإنه لم يجرؤ أحد من المستشرقين حتى الحاقدين على الإسلام أن يرفع صوته بالاحتجاج على هذه الغزوة وما أحسن ما قاله يانصاف مونتجومري وات : « إذا كان يهود المدينة بعد تصفية بنى قريطة ظهروا بعظهر المواجهة فإن يهود خير ومن بينهم زعماء بنى النضير قد كانوا مثيرين للقلق ومعين ضد محمد دائماً بداعي الثأر وكانتوا يوظفون ثرواتهم في جزء كبير منها لتهريض العرب المغاربين ولا سيما القبائل القوية مثل غطفان على التحالف معهم ضد المسلمين ولقد كان محمد على حق في مهاجمة خير (١) .

وعلى العكس من ذلك ما أورده جود فرواه ديمومين (٢) في هذا الموضوع وهو متناقض وبهم حيث يزعم أن محمداً قد بدأ حصاراً لم يكن مستعداً له (ص ١٥٩) ولو لم يكن مستعداً من الناحية العسكرية فكيف استطاع الحصول على كل حصون خير في خلال أربعين يوماً؟ وهناك هراء آخر وهو « أن المسلمين كانوا قلقين من مهاجمة بقايا اليهود الذين كان بعضهم يجاورونهم في المدينة (ص ١٥٣) ولكن هؤلاء المسلمين هم الذين طردوا اليهود من المدينة ، وقتلوا كثيراً منهم بالسلاح ويهود خير هؤلاء هم الذين ما فتتوا يتآمرون ويحرضون قريش وغطفان للخروج بجيش يهاجم محمدًا والمسلمين في المدينة إذاً لماذا يشعر هؤلاء المسلمين ببعض القلق لمهاجمة خير؟ .

(١) م . و . وات محمد في المدينة الترجمة الفرنسية (ص ٢٦٢) .

(٢) محمد (ص ١٥٨ ، ١٦٢) .

إن فتح جميع حصون خير لم يكلف المسلمين سوى ما يقرب من عشرين قتيلاً^(١) وهو رقم ضئيل جداً بعدد هذه الحصون وهي سبع حصون هي حصن القومنص والناعم وأبو الحقيق وحصن الشق والنطاه والسلاليم وحصن الوطيم وحصن الكتبية ويضيف اليعقوبي إليها أسماء أخرى « جزء ٥٦٢ » والبكري (ص ٣٣٥) يضيف إليها حصنناًعاشرأ إن فتح خير كما يعترف بذلك فراتسبول^(٢) قد أعطى مهلاً كل الأسباب ليخطط بهذه الحملة التي منحته بضربة واحدة السيطرة على كل المستعمرات الهامة لليهود .

تصفيية الشخصيات المزعجة

١ - كعب بن الأشرف :

من بين يهود المدينة كان هناك شعراء يجتهدون في نظم القصائد يهاجمون بها النبي وال المسلمين وبالاخص النساء المسلمات والإسلام كدين .

وكما قال كايتاني « جزء ١ ص ٥٣٤ » « من بين اليهود يتميز على وجه الخصوص الشاعر كعب بن الأشرف بالعنف وعداوه اللدود التي كان يبديها في كل موقف باتجاه محمد والإسلام وهو من قبيلة بني النضير وكان أحد الذين أبدوا قمة الحقد لنصر المسلمين في بدر ولم يستطع أن يعزى نفسه للهزيمة الساحقة وللقرشيين الذين كان يسميهم « ملوك البشرية » وبدافع كراهيته للمسلمين رحل كعب إلى مكة وأقام عند المطلب بن أبي وادعة بن دبيرة السهemi زوج عاتكة بنت أبي العاص بن أمية فاستقبله هذان الروجان استقبلاً حاراً وقد نظم كعب قصيدة يحيى بها الأمل في نفوس القرشيين ويلهب عواطفهم للثأر وقد بكى القرشيون القتلى وحرض أهل قريش بعنف ضد محمد وقد زاعت أشعار كعب في مكة وأحدثت أثراً عظيماً وأثارت القرشيين ، وأعادت إليهم ما كانوا نسوه من المشاعر بعد هزيمة بدر ولم يتزدروا في إظهار ألمهم الفاجع وقد استمر زرف الدموع والشجن العام لمدة شهر في مكه ، وما تزال قصائد كعب ترد حتى وصلت إلى مسامع محمد الذي تألم للمساوية التي يسوقها الشاعر وقد أمر محمد بداعف أهمية قصائد هذا الشاعر أمر شاعره حسان بن ثابت أن يرد على جميع القصائد الساخرة التي نظمها أعداؤه شرعاً وقد أمر حسان أن يسب ويشتم بالشعر كل الذين استضافوا الشاعر اليهودي في مكة وقد انتصرت أشعار حسان في النهاية

فلم يجرؤ أحد من القرشيين على استضافة هذا الشاعر حتى لا يتعرض لسباب وشتائم الشاعر المسلم حسان بن ثابت فلم يجد كعب بن الأشرف بدأ من العودة إلى المدينة حيث كتب أيضاً أشعاراً جديدة يهاجم بها محمد والدين الجديد، ويحاول أن يتهم النساء المسلمات في شرفهن ، باختصار لقد حاول هذا الشاعر أن يbedo الأكثر جرأة والذى لا يمكن احتماله أمام أعين الناس .

ولما انزعج محمد من هذا العدو الخطير جداً طلب من أصحابه قائلاً : « من يخلصنى من ابن الأشرف ؟ » فهرب محمد بن مسلمة ليقتله ، ولكنه حين وضع في حسابه جميع المخاطر والصعب لم يجرؤ أن ينفذ وعده وأصبح مضطرباً وامتنع عن الطعام والشراب ، ولما سأله محمد عن الباعث على سلوكه الغريب اعترف له محمد بن مسلمة أنه لم يستطع أن ينفذ وعده دون أن يقترف الكذب والخداع فسمح له محمد بأن يسلك أى السبل ليحقق هدفه المنشود فاطمأن محمد بن مسلمه لكلام النبي ، وأسرع ينفذ مهمته وأخذ معه أربعة من المسلمين وهم أبو نائلة ابن سلامة بن واقش أخو كعب بن الأشرف في الرضاعة وعباد بن بشور بن واقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عباس بن جابر ^١ ابن هشام ص ٥٤٩ ، ٥٥١ ، الواقدي ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، الطبرى ج ١ ص ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١١٠ بن خلدون ج ٢ ص ٤٢ .

وهذا بالتفصيل ما ذكره « كايتانى » في هذا الموضوع ليدل على بشهادة مستشرق في صالح محمد على غير العادة ويكتفى بالنسبة له تبرير أمر محمد بالتخليص من رجل خطير و مجرم إلى أقصى درجة ولم يكن بوسع النبي أن يفعل غير ذلك مع الرجل الذى :

(أ) ذهب إلى مكة يعرض القرشيين على الأخذ بثأرهم من هزيمة بدر .

(ب) رجع إلى المدينة ولم يكف عن مهاجمة النبي ودينه بانقطع قصائد السباب .

(ج) نظم قصائد فاضحة تهدف إلى التشهير بالنساء المسلمات مما أحق بهن الأذى (ابن هشام ص ٥٥٠) ومثل هذه الجرائم لا تستحق سوى القتل ، ولم يكن للنبي اختيار آخر سوى أن يحكم عليه بالإعدام . وقد عهد بالتنفيذ إلى محمد بن مسلمه الذي تطوع لتنفيذ المهمة وحتى ينفذها على خير وجه فقد استعان بسلكان بن سلامة (يقال له أبو نائلة) الذي كان أخاً لكتب من الرضاعة

ثم عباد بن بشر ثم «الحارث بن أوس» ثم «أبو عباس بن جابر» وقد أرسلوا أول الأمر أبا نائله أخا كعب من الرضاعة وقد كان شاعراً أيضاً فتناشداً ثم قال أبو نائله لـ كعب: «لقد جئتك لأمر أريدك أن تكتمه فيما بيننا فرد كعب: «قل أسمع»، فقال أبو نائله: «لقد كان قدوم هذا الرجل (محمد) علينا شؤماً عظيماً فلقد عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت بنا السبل حتى هلك أبناءنا وأزهقت أرواحنا وأصابنا القحط نحن وأبناءنا»، فقال له كعب: «لقد أذرتكم وحذرتكم من ذلك»، فقال أبو نائله: «أريد أن أبتاع منك طعاماً مقابل رهن»، فقال كعب: «أعطيك أولادك رهناً»، فرد أبو نائله: «إنك لا يرضيك أن يعيينا الناس ولـي أصحاب الـ مـ بـهـمـ ماـ الـ مـ بـيـ وـأـرـيـدـ أـنـ أـحـضـرـهـمـ إـلـيـكـ لـيـتـاعـوـاـ مـنـكـ طـعـامـاـ وـسـنـعـطـيـكـ تـرـوـسـنـاـ رـهـنـاـ عـنـدـكـ»، وكان أبو نائله يريد من وراء ذلك أن لا يشك كعب إذا ما جاء هو أو أحد أصحابه بـ مـ سـلـحـهـ فـوـافـقـ كـعـبـ قـائـلاـ: «حـسـنـاـ أـنـاـ أـرـضـيـ بـالـسـلـاحـ رـهـنـاـ».

وبعد هذا اللقاء عاد أبو نائله إلى أصحابه وقص عليهم ما كان منه مع كعب وأسر إليهم بأن يحملوا السلاح ويجتمعوا عند النبي وقد تبعهم النبي إلى «برق الغرقد» ثم قال لهم: «باسم الله انطلقوا، اللهم أيدهم» ثم عاد النبي إلى بيته.

وفي ليلة قمراء: وصل الأربعة إلى حصن كعب، فناداه أبو نائله وكان كعب قد عرس منذ وقت قريب فقفز من على سريره فقالت امرأته إنك رجل حرب وأهل الحرب لا يتزلون في تلك الساعة فرد كعب: «هذا أبو نائله ولو وجدني نائلاً لـ يـقـظـنـيـ فـقـالـتـ اـمـرـأـهـ:ـ «ـ وـالـلـهـ إـنـىـ لـأـحـسـ فـىـ صـوـتـهـ بـنـازـلـةـ»ـ فـرـدـ كـعـبـ «ـ إـنـ الشـجـاعـ إـذـ دـعـىـ إـلـىـ نـزـالـ أـجـابـ»ـ.

ثم نزل كعب من حصنه. وسأله الأربعة أن يذهب معهم إلى شعب العجوز ليتسامروا بقية ليلتهم فوافق فساروا حتى هناك وبعد ساعة أو ساعتين صاح أبو نائله في أصحابه: «اقتلو عدو الله» فتسبقت سيوفهم إلى كعب دون أن تقتله فاستل محمد بن مسلم خنجراً من جراب سيفه ويقر به بطن كعب (ما بين السرة

(١) كاتانى الجزء الأول سنه سبعة هجرية (ص ٤٣)

(٢) حـيـاـتـ مـحـمـدـ (صـ ٢٩٤)

والعنة) فخر صريعا . وقد كان كعب حين هاجمه قد رفع عقيرته بصياح أسمع من حوله من الحى .

ورجعوا إلى المدينة فدخلوا على النبي وأخبروه بقتل كعب .
ولما أصبح الصباح ارتعد اليهود لقتل كعب حتى لم يعد بالمدينة يهودي لا يخاف على حياته (١) .

وقد امتحن كعب بن مالك في قصيدة نظمها في معركة بنى النضير قتل كعب ابن الأشرف بأبيات ذكرها ابن هشام (ص ٥٥٣) ، كما أن حسان بن ثابت قد نظم قصيدة أيضا في قتل كعب بن الأشرف وكذلك قتل سلام بن أبي الحقيق جاء فيها :

الله در عصابة لا قيتم يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم مرحًا كأسد في عررين معرف
وكما أورد الواقدي فإن قتل كعب بن الأشرف في ١٣ - ١٤ ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة (٣ - ٤ ديسمبر ٦٢٤م) وهذا التاريخ لا يتفق فقط مع ما أورده الواقدي كتاريخ لغزوة أبي عمار في ١٢ - ١٣ ربيع الأول وهي الغزوة التي شارك فيها النبي بنفسه .

٢ - أبو رافع بن أبي الحقيق :

(٤ - ١٤ ذى الحجة سنة ٤ هـ) .

وقد أمر النبي بقتل شخص آخر هو أبو رافع بن أبي الحقيق من بنى النضير وقد هاجر مع قبيلته بنى النضير إلى خيبر حين طردوها من المدينة وهناك أخذ يحرض قبيلة غطفان والقبائل العربية المجاورة ليعلنوا الحرب على المسلمين وينبأها الإمامى وأمام الخطر الذى شكله نشاط أبي رافع كان على النبي أن يتصرف بجسم فاختار خمسة من المسلمين ليقتلوا هذا الرجل الخطير وكان هؤلاء الخمسة هم عبد الله بن أنيس وأبو قتادة والأسود بن الخزاعى وعبد الله بن عاتك (٢) ومسعود بن سنان . وقد غادر هؤلاء الخمسة المدينة في الرابع من ذى

(١) ابن هشام (ص ٥٥٢) .

(٢) بعض المصادر تقول بدل (ابن عاتك) (عبد الله بن عقبة) انظر الطبرى ج ١ (ص ١٣٧٥) .

الحجـة سـنة أـربع مـن الـهـجـرة وـتـوجـهـوا إـلـى خـيـر وـذـهـبـوا خـلـسـة إـلـى بـيـت الـمـرـضـعـة الـقـدـيـة لـعـبـدـالـلـهـ بـنـعـاتـكـ حـيـثـ اـخـتـفـوا هـنـاكـ ، وـفـي لـيـلـةـ مـنـ الـلـيـالـى خـرـجـوا مـنـ مـخـبـئـهـمـ وـتـوجـهـوا إـلـى بـيـتـ أـبـيـ رـافـعـ بـنـ أـبـيـ الـحـقـيقـ وـقـدـ حـرـصـواـ أـثـنـاءـ مـرـورـهـمـ عـلـىـ الـمـنـازـلـ فـيـ طـرـيقـهـمـ أـنـ يـغـلـقـواـ أـبـوـابـهـاـ حـتـىـ يـصـعـبـ عـلـىـ مـنـ فـيـهـاـ الـخـرـوجـ وـلـمـ وـصـلـواـ إـلـىـ بـيـتـ أـبـيـ رـافـعـ صـعـدـواـ السـلـمـ الـخـارـجـيـ الـمـؤـدـيـ إـلـىـ حـيـثـ يـنـامـ أـبـوـ رـافـعـ وـقـدـ طـلـبـواـ مـنـ اـمـرـأـتـهـ أـنـ تـرـكـهـمـ يـدـخـلـواـ لـيـقـدـمـواـ عـطـيـةـ لـأـبـيـ رـافـعـ ، وـكـانـ عـبـدـالـلـهـ أـبـنـعـاتـكـ يـعـرـفـ قـلـيـلاـ مـنـ الـعـبـرـيـةـ مـمـكـنـهـ مـنـ أـنـ يـتـحـدـثـ مـعـ هـذـهـ الـمـرـأـةـ بـالـعـبـرـيـةـ وـهـنـاـ وـافـقـتـ الـمـرـأـةـ فـتـحـتـ الـبـابـ وـلـكـنـهـاـ فـزـعـتـ حـيـنـ رـأـتـ الـرـجـالـ الـخـمـسـةـ مـدـجـجـيـنـ بـالـسـلـاحـ فـطـعـنـهـاـ أـحـدـهـمـ بـخـنـجـرـ فـيـ رـقـبـتـهـاـ ثـمـ تـوـجـهـواـ إـلـىـ أـبـيـ رـافـعـ الـذـىـ كـانـ نـائـمـاـ فـيـ سـرـيرـهـ وـغـرـزـ أـحـدـهـمـ سـيـفـهـ فـيـ صـدـرـ أـبـيـ رـافـعـ وـسـجـبـهـ بـقـوـةـ بـعـدـ أـنـ فـصـلـ جـثـةـ أـبـيـ رـافـعـ إـلـىـ جـزـئـيـنـ وـقـدـ كـانـ أـبـوـ رـافـعـ عـجـوزـاـ فـمـاتـ مـنـ فـورـهـ وـهـرـبـ الـمـسـلـمـوـنـ الـخـمـسـةـ وـصـاحـتـ زـوـجـةـ أـبـيـ رـافـعـ بـعـدـ رـحـيـلـهـمـ فـخـرـجـ الـيـهـوـدـ بـعـدـ مـشـقـةـ مـنـ مـنـازـلـهـمـ وـلـكـنـ هـيـهـاتـ فـقـدـ هـرـبـ الـمـسـلـمـوـنـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـخـبـئـونـ فـيـ كـهـفـ مـلـدـةـ يـوـمـيـنـ حـتـىـ أـوـقـفـ الـيـهـوـدـ الـبـحـثـ .

وـرـجـعـ الـمـسـلـمـوـنـ الـخـمـسـةـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ دـوـنـ أـنـ يـسـهـمـ سـوـءـ بـعـدـ غـيـابـ اـسـتـمـرـ عـشـرـةـ أـيـامـ مـنـ أـرـبـعـةـ إـلـىـ ١٤ـ مـنـ ذـيـ الـحـجـةـ لـلـسـنـةـ الـرـابـعـةـ لـلـهـجـرـةـ الـمـوـافـقـ ٧ـ - ٧ـ مـاـيـوـ ٦٦٦ـ (١)ـ وـهـذـهـ هـىـ قـصـةـ قـتـلـ أـبـيـ رـافـعـ بـنـ أـبـيـ الـحـقـيقـ وـكـانـ جـرـيـمـتـهـ أـشـنـعـ مـنـ جـرـيـمـةـ كـعـبـ بـنـ الـأـشـرـفـ لـأـنـهـ كـانـ يـحـرـضـ غـطـفـانـ وـالـقـبـائـلـ الـعـرـبـيـةـ الـأـخـرـىـ لـمـحـارـيـةـ مـحـمـدـ وـالـمـسـلـمـيـنـ وـقـدـ وـعـهـمـ بـالـمـالـ وـالـسـلـاحـ .

وـقـدـ نـظـمـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ قـصـيـدـةـ مـدـحـ فـيـهـاـ قـتـلـ أـبـيـ رـافـعـ (٢)ـ

وـفـيـ هـذـاـ الصـدـدـ نـذـكـرـ هـنـاـ إـحـدـىـ شـطـحـاتـ «ـجـوـدـفـرـوـاـ دـيـمـوـمـيـنـ»ـ حـيـثـ يـزـعـمـ فـيـ كـتـابـهـ «ـمـحـمـدـ»ـ (صـ ١٢٨ـ)ـ أـنـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ كـانـ فـقـيـراـ قـرـزاـمـاـ (ـيـنـظـمـ الـشـعـرـ

(١)ـ انـظـرـ الـوـاقـدـىـ - فـلـهـوـزـنـ (صـ ١٧٠ـ ، ١٧٢ـ)ـ - الـطـبـرـىـ جـ ١ـ (صـ ١٣٧٥ـ)ـ إـلـىـ ١٣٨٣ـ)ـ أـبـنـ الـأـثـيـرـ (صـ ٩٣١ـ)ـ وـقـدـ ذـكـرـ أـبـنـ هـشـامـ هـذـاـ الـحـدـثـ بـشـكـلـ عـاـبـرـ (صـ ٣١ـ)ـ وـلـمـ يـدـكـرـ التـارـيـخـ .

(٢)ـ انـظـرـ الـطـبـرـىـ جـ ١ـ (صـ ١٣٧٦ـ)ـ وـابـنـ سـعـدـ (٢ـ ، ١ـ ، ٦٦ـ)ـ .

الرديء) ، لأنه امتدح قيمة كعب بن الأشرف والشعراء الآخرين الذين كانوا يسبون النبي . وهذا يؤكد :

(أ) أن جودفروا ديموبين لا يفهم الشعر العربي لأن المؤرخين للأدب العربي القدامى والمحاتون يحكمون بأن شعر حسان بن ثابت يتفوق على شعر كعب بن الأشرف مائة ذراع وكذلك على شعر بن الزبعرى وكل الشعراء الآخرين الذين سبوا النبي ولا يمكن أن يحكم على الشعر العربي إلا فاهم لغته الأم اللغة العربية .

(ب) وهذا يؤكد أيضاً أن جودفروا ديموبين كان متعصباً سىء النية ضد النبي والإسلام .

ولم يفعل مكسيم رودنسون ^(١) سوى أن يردد آلياً نفس السخافات ولم يكن كتابه سوى ترديد لأراء المستشرقين الآخرين دون أن يفكر هو نفسه في القضايا محل الخلاف إلا في حالات نادرة .

٣ - اليسيير بن رزام :

بعد قتل أبي رافع أراد يهود خير أن يختاروا سلام بن مشكم زعيمًا لهم ولكنه رفض ، فاختاروا اليسيير بن رزام الذي حرض غطفان على حرب النبي ويقول ابن هشام : « إن اليسيير بن رزام حاول أن يدفع غطفان إلى حرب رسول الله فبعث النبي إليه عبد الله بن رواحة على رأس جماعة من أصحابه فيهم عبد الله بن أنيس حليف بن سلامة ولما وصلوا إلى اليسيير بن رزام تحدثوا معه وقدموا له العطايا وقالوا له لو جئت إلى النبي فسوف يستعملك ويعلى قدرك وما زالوا به حتى رضى أن يسير معهم ومعه مجموعة من اليهود فحمله عبد الله بن أنيس على بعيره ولما وصلوا إلى قرفة وهى مكان على بعد ستة أميال من خير وقد كاد اليسيير بن رزام أن يوافق على الذهاب إلى النبي شعر عبد الله بن أنيس أن اليسيير حاول أن يستولى منه على سيفه فهجم عليه وضربه بسيفه فقطع ساقه فضربه اليسيير بعصا غليظه من شجر يقال له الشوحط فجرحه فهجم كل من صاحبى النبي على اليهود وقد قتل اليهود واحداً أخذ بعدها ريا ^(٢) .

(١) مكسيم رودنسون « محمد » (ص ٢٢٧) حيث يتكلّم عن الشعراء الرديئين للنبي .

(٢) ابن هشام (ص ٩٨١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠) انظر الواقدى - فلهوزن (ص ٩٨٠ ، ٢٣٩) .

٤ - خالد بن سفيان بن نبيح الهمزلي

لقد كان الأشخاص الثلاثة الذين تحدثنا عنهم يهود وهذا شخص رابع لم يكن يهوديا وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهمزلي . وقد شرع في جمع القبائل لحرب النبي وكان الحى الذى يسكن فيه يقع في نخلة أو عرقه .

ولما علم النبي بتحركات خالد بن سفيان أحضر « عبد الله بن أنيس » بطل الأغبيان السابقين وقال له : « لقد جاءنى أن ابن سفيان بن نبيح الهمزلي يؤلب القبائل على وهو بننخلة أو عرقه فاذهب إليه واقتله » ، فقال عبد الله بن أنيس « يا رسول الله صفة لي حتى أعرفه » فقال له النبي : « حين تراه كأنك رأيت الشيطان والعلامة التي بينك وبينه ألك حين تراه ترتعد » فقال عبد الله بن أنيس : « فخرجت بسيفى حتى رأيته مع نساء يبحث لهن عن مكان يقلون فيه بعد الظهر لما رأيته أحست بالرعدة التي حدثنى عنها رسول الله فاقتربت منه حتى كنا وجها لوجه فقال : « من أنت ؟ » ، قلت : « عربي سمع عنك وعما تحشد من القبائل فجاء ليكون عونا لك » ، فقال ابن سفيان : « نعم لقد عزمت على ذلك » ، فسرت معه قليلاً حتى اطمأن لى ثم عاجلته بضربية سيف فقتله ثم تركته ونساءه عاكفات عليه وما رجعت إلى رسول الله قال لى : « هل ظفرت » قلت : « أجل قتلتة » فقال النبي : « أحقا ؟ فقام وأدخلنى بيته وأعطانى عصا قائلاً : « احفظ هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس » فخرجت ومعى العصا فسألونى « ما هذه العصا ؟ » فقلت : « هذه عصا أعطانها رسول الله وأمرنى أن أجعلها عندي » فقيل لى : « الا ت يريد أن ترجع إلى رسول الله وتسأله لم هذه العصا فرجعت إلى النبي وسألته : « لم أعطينى تلك العصا » ؟ فقال النبي : هذه علامة بيني وبينك يوم القيمة وفي هذا اليوم لن يحمل عصا إلا قليل من الناس ». فجعل عبد الله بن أنيس العصا عنده حتى مorte وأمر بأن توضع بين كفه وجسده بعد الموت » .

* * *

(١) ابن هشام (ص ٩٨١ - ٩٨٢)

خاتمة

باختصار إن كل الإجراءات التي اتخذها النبي ضد اليهود سواءً كانت فردية أو جماعية كانت تغليها اعتبارات حرية . فيهود المدينة منذ أن وطئت قدم النبي المدينة حاربوه حرب تخريب وحرباً دينية وعقائدية وحرب أعصاب وأخيراً حرباً قصيرة . فقد حاولوا أن يطلبوا القبائل العربية المحاربة على محمد والإسلام وعاصمه المدينة بالمؤامرات والمال والسلاح وعرضوا الأمة الإسلامية الناشئة للمخاطر المتواصلة . وحتى يحافظ على نفسه ودينه فإن محمد لم يكن من الممكن أن يظل مكتوف الأيدي أمام الخطر اليهودي . وبالتعاسة من يرى مثل هذا الخطر ولا يسرع لاستصاله بشتى الطرق !

والدموع التي يذرفها المستشركون على مصير اليهود في مختلف حلقات صراعهم مع النبي لا تتم إذا إلا عن نفاق بواح لأنهم عندما يتعلّق الأمر ببلادهم لا يذرف أى منهم دمعاً في الظروف المشابهة لتلك الظروف . إن أيا من الإجراءات التي اتخذها محمد لم يكن بداعي ديني أو عنصري . ولا حتى بداعي اقتصادي كما يحلو لبعض المستشركون أن يذكروه مما يدل على ذلك أن القيمة التي حصلها المسلمون من وراء ذلك كانت تافهة وفي بعض الأحيان لا توجد غنيمة : فقائلة مكة حيث يعترضها المسلمون خيراً عشر أو مائة مرة من كل ما غنموه من اليهود .



ب - محمد والمسيحية

مفهوم عيسى في القرآن وسوابق هذا المفهوم في المسيحية :

من بين أكثر الآراء شيوعاً بين دارسي الإسلاميات الأوروبيين ذلك الرأي القائل بأن مفهوم القرآن عن قضية صلب لسيح مقتبس من المسيحية القديمة . ولذلك ناقش هذا الرأي نبدأ بذكر الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع :

- ﴿ وَبِكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيمَ بِهَتَنَاءٍ عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكُنْ شَبَهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء الآيات من ١٥٦ إلى ١٥٨) .

ويؤكد القرآن في هذه الآيات بقوّة على أن اليهود لم يقتلوا المسيح ولم يصلبوه ولم يكن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله هو الذي قتل بل كان شخصاً مشابهاً له أو أنه كما حكى القرآن حرفيًا « شبه لهم » أنهم صلبووا المسيح ولكن في الحقيقة إن الذي صلب شخص آخر غير المسيح يشبه المسيح .

وبحسبما يورد القرآن يتحدث عيسى عن نفسه قائلاً : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّاً . وَجَعَلَنِي مَبَارِكًاً إِنِّي كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دَمَتْ حَيًّا . وَبِرًا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَارًا شَقِيقًا وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمِ وَلَدَتْ وَيَوْمِ أُمُوتَ وَيَوْمِ أُبَعْثَرُ حَيًّا ﴾ (سورة مريم آيات من ٣٠ إلى ٣٣) ، ثم يؤكّد القرآن ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرِيمٍ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَتَرَوْنَ . مَا كَانَ اللَّهُ أَنْ يَتَخَذِّدَ مِنْ وَلَدٍ سَبَحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كَنْ فِيْكُونَ ﴾ (سورة مريم ٣٤ - ٣٥) .

فيعيسى ليس ابن الله ﴿ إِنَّهُ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الزخرف آية ٥٩) كما أن عيسى نفسه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف آية ٦٤) .

وحتى يؤكّد القرآن على الوصف البشري الخالص لطبيعة المسيح يقول : ﴿ إِنَّ

مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴿ (آل عمران آية ٥٩) .

أما عن بيت عيسى فإن القرآن يعرف بهذه الألفاظ : ﴿ وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة وبمثراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (الصف آية ٦) .

كما أن القرآن يقف في وجه دعوى التثليث بقوة حيث يقول : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ (سورة النساء آية ١٧١) .

أما الذين قالوا : إن المسيح هو الله فهم الكفار ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله عليه الجنة ومؤاوه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (سورة المائدة آية ٧٢) .

﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمة صديقة كانوا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يوفكون ﴾ (المائدة آية ٧٥) .

كما أن معجزات عيسى لم تكن إلا بأمر الله ﴿ وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً وإذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بياذنى فتتفتح فيها فتكون طيراً بياذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بياذنى وإذا تخرج الموتى بياذنى وإذا كففت بنى إسرائيل عنك إذ جتتهم بالبيانات فقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (المائدة ١١٠) ﴿ وإذا قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كتمت مؤمنين قالوا : نريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وأخرنا وأية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إتى منزلها

عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعزبه عذاباً لا أعزبه أحداً من العالمين . فإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلت له فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن عبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . الله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قادر ﴿سورة المائدة من آية ١٢ إلى ١٢٠ آخر السورة﴾ .

كما تؤكد الآيات التالية نفس الأفكار ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أني يكون لي ولد ولم يمسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعمله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بنى إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفتح فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئكم والأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأبئكم بما تأكلون وما تدخرن في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كتم مؤمنين ، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطعوه ، إن الله ربّي وربّكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم ، فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وشهادنا بآنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكرروا ومكرر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كتم فيه تختلفون . فاما الذين كفروا فأعزبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين عاصوا وعملوا الصالحات فيويفهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴿سورة آل عمران من آية ٤٥ - إلى ٥٧﴾ .

وهذه هي الآيات القرآنية الرئيسية المتعلقة بعيسى ويمكن أن نستخلص منها النتائج الآتية :

- ١ - إن عيسى ما هو إلا رسول من رسول الله مثله في ذلك مثل بقية الرسل .
- ٢ - إن عيسى بشر لا أكثر ولا أقل مثله في ذلك مثل أي بشر آخر خلقه الله .
- ٣ - إذاً فهو ليس ابناً لله لأن الله لم يلد ولم يولد .
- ٤ - إذاً فعيسى ليس أحد أقانيم التثلية والتى هي الآب والابن والروح القدس .
- ٥ - خلق الله عيسى كما خلق الناس جمِيعاً أى بقوله : كن ، ولكن هذه هي فعل الله وعلم ذلك ، فعندما يقول القرآن إن عيسى خلق بكلمة الله فهذا يعني فقط بأمر الله أى بالنفحة الإلهية التي لا علاقة لها بالكلمة Logos المذكورة في إنجيل القديس يوحنا «١٢١» والتي تطورت فيما بعد بشكل كبير في اللاهوت المسيحي ولن أركز كثيراً على هذه النقطة فـأى مسلم يفهم من كلمة «كلمة» في الآيات ٣٩ ، ٤٥ من سورة آل عمران والأية ١٧١ من سورة النساء لم يفهم إلا المعنى الذي أوضحته . وهو كلمة كن التي تنطبق على كل المخلوقات والله يقول كن لعيسى فـيكون عيسى وهذا كل ما في الأمر وأى تفسير آخر يعد فاسداً ولا يمكن قبوله .
- ٦ - لقد قام عيسى بمعجزاته ليس بقوته الذاتية ولا إرادة الذاتية ولكن بقدرة الله وتلك هي حالة بقية الأنبياء الآخرين في معجزاتهم ، وهدف هذه المعجزات في القرآن - وحسبما يقول الإسلام - هو أن تثبت أن الأنبياء الذين قاموا بها مرسلين من قبل الله ليؤدوا رساله عهد بها إلى أناس أرسلهم الله إليهم وهذا مناقض تماماً لما فهمه آباء الكنيسة المسيحية من دور المعجزات التي قام بها يسوع المسيح في الواقع لقد أكد آباء الكنيسة أن معجزات المسيح تثبت ألوهيته (١) ومن المعجزات المذكورة في الأنجيل لا يذكر القرآن سوى ثلاثة (١) شفاء الأعمى .
انظر متى ٨ - ٣٠ - ٣١ - ٢٩ ، ٢٠ : ٣٤ ، ٤ - ١٠٠ ، ٣ الآباء اليونانيين مجلد ٢٠ رقم (٣٠٨) ملتون فريجم (٧) وقد أكدوا أن معجزات يسوع تثبت أنه ابن الله وهو نفس رأى يوحنا كريزوسينوس وهيلارويس .

مرقص ٢ ، ١١ ، ١٢ ، ١٠ ، ٤٦ إلى ٥٢ لوقا ١٨ ، ٣٥ إلى ٤٣ وإبراء الأبرص « انظر متى ٢٨ من ٢ إلى ٤ مرقص ١ ، ٤٠ إلى ٤٥ لوقا ٥ ، ١٢ إلى ١٦ ، ١٧ ، ١١ إلى ١٩ » .

وإحياء الموتى « لوقا ٢٧ من ١٢ إلى ٥٦ يوحنا ٩ ، ٣٢ إلى ٤٤ » وعلى عكس ذلك فإن معجزة الطير المصنوعة من الطين ليست مذكورة في الأنجليل الأربعية ، ومن بين المعجزات الثلاثين الذين ينسبونها إلى المسيح ويدرجونها تحت العناوين التالية : طرد الأرواح الشريرة وشفاء الأمراض التي لا شفاء منها (البرص والشلل الخ) وإحياء الموتى وتعدد الأطعمة والأشرية وخرق قوانين الطبيعة (المشي على ماء البحر والطيران في الهواء .. الخ) إذا فالقرآن مع اعترافه الكامل أن عيسى قام بمعجزات إلا أنه يعطي هذه المعجزات معنى آخر غير المذكور لدى آباء الكنيسة ، وبالنسبة للقرآن فتشهد المعجزات فقط على أن عيسى نبى وأنه رسول الله ليس إلا .

ويتفق القرآن في ذلك مع كلام المسيح نفسه إذا كانت الكلمة « أب » تفهم بالمعنى العام للكلمة وهو « رب » أى أبو الناس جميعاً ومربيهم . وهذا هو كلامه « إن الأفعال التي منحنيها الأب لأقوم بفضلها بتلك الأعمال تشهد في ذلك أن الأب هو الذي أرسلني » (يوحنا ٥ ، ٣٦٠) « والأفعال التي أقوم بها باسم أبي هي التي تشهد لي » (يوحنا ١٠ ، ٢٥) ولكن المشكلة كلها هي معرفة ما إذا كان علماء اللاهوت المسيحيون سيقبلون هذا التفسير لكلمة أب وهو الله الذي لم يلد !

٧ - وفيما يتعلق بموت يسوع المسيح فإن القرآن صريح فلم يقتل اليهود عيسى ولم يصلبوه إذا فقد مات موتاً طبيعياً ولكن ما لم يوضحه القرآن في هذا الصدد هو تعبير « بل رفعه الله إليه » (سورة النساء آية ١٥٨) « يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى » (سورة آل عمران آية ٥٥) فكلمة « رافعك » يمكن أن تؤدي إلى غموض . ولكن في رأينا ليس هناك غموض . والغموض لا يحدث إلا إذا نسينا أن حرف العطف المستخدم هنا هو الواو التي تلحق بالموت مباشرة الرفع إلى الله . في الحقيقة إن الواو لا تعنى التتابع ولكن تعنى مطلق الجمع دون أي تتابع . ولو أراد القرآن أن يعبر عن التتابع المباشر لكان لا بد أن يستخدم حرف العطف الغاء وكان لا بد أن يقول متوفيك رافعك إلى إذا يجب أن نفهم الآية بمعنى أن أرواح البشر ترفع إلى الله بعد الموت وعيسى لا يعد استثناء من البشر فالله سيميته وسيرفع روحه إليه . تماماً كما يفعل بكل البشر .

* * *

السوابق المسيحية على المفهوم القرآنى للمسيح

وسترى الآن ما إذا كان المفهوم القرآنى عن المسيح يتفق مع بعض المذاهب المسيحية التى وضعها علماء اللاهوت المسيحيون أم لا .

كون المسيح ليس ابنًا لله وأنه من طبيعة أخرى غير طبيعة الله وأنه خلق من العدم فهذه تعاليم مجموعة من الآرئين وعلى رأسهم « إاتيوس وإنوميوس وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الأنوميبيو » أنصار - اللا مشابهة بين الله والمسيح » في الواقع إن كرابتيوس الانطاكي ^(١) « المولود حوالي سنة ٣٠٠ في قيسارية المتوفى حوالي ٣٦٦ في القسطنطينية - وكان طبيباً وتعلم الجدل الأرسطي في الإسكندرية وأصبح مطراناً في سنة ٣٦٢ أنيوميوس من كيادوتش ^(٢) « مات في سنة ٣٩٢ أو ٣٩٥ في صناحية داركولاني كابودوتش » وقضى شبابه في القسطنطينية ثم أقام بمصر حيث أصبح تلميذاً لإاتيوس ثم أصبح من نواب المطران عام (٣٥٨) ثم مطراناً لكريت عام (٣٦٠) وهو الذي وضع مذهب أوتيوس في شكله الأخير وفي رأيه ورأى معلمه أوتيوس فإن كلمة « مولود » هي الصفة الأساسية للطبيعة الإلهية كذلك فإن طبيعة يسوع ليست إلهية ، ويؤمن إيتوميوس بأن الله قوى وواحد لا شريك له كما يؤمن أن الله لا يمكن أن تكون له ذرية لأن أي ذرية تعنى بالضرورة الانتقال من مرحلة اللا وجود إلى مرحلة الوجود والولد يصير مولوداً من الأب أي كمخلوق خلق من مخلوق غير مخلوق ، وهنا لا بد أن يحدث بالضرورة تنوع في الطبيعة كما ينفي إيتوميوس مطلقاً فكرة التثلية .

(١) انظر عنه G . G . ٤٢ p . ٥ - رقم (٥٣٤) إلى (٥٤٦) ، يردنهاور ، ج ٣ (ص ٢٣)
القاموس اللاهوتى الكاثوليكى ج ١ رقم (٥١٦) و (٢) انظر عنه - تلمونت ج ١ (ص ٥٠١
إلى (٥١٦) ، يردنهاور ج ٣ ١٣٩ إلى ٩٨ كلوزى ، تاريخ وثقافة إيتوميوس ، كيل ،
١٨٣٣ ، القاموس اللاهوتى الكاثوليكى ج ٥ ، رقم ١٥٥١ رلى ١٥١٤ ، رلينسكل ،
اللاهوت والكنيسة الطبعة الثالثة ليزج . ١٨٩٨ ج ٥ - ٥٩٧ ٦٠١

(ب) وقد ذهب بعض آباء الكنيسة أبعد من ذلك أيضاً فقد قالوا إن عيسى «ليس إلا بشر» وعند جوستان فإن المسيح هو ولد يوسف ومريم وكان مجرد راع حتى سن الثانية عشرة حيث تلقى بواسطة باروخ وباسم وبأمر إيلوهيم رسالة السماء «الفلسفة جه» ، من ٥ إلى ٢٦ مطبعة كيرويت ، باريس ١٨٦٠ ، ص ٢٣٦ «ومنهم أيضاً كريوكرات الذي لم يرى في أن يوسف الذي تربى في أحضان اليهودية إلا عدواً للعهد القديم وداعية سلام يسخر من شريعة موسى» «ترتوليا من عن الكتابة المقدسة» ، ٩٨ ، بدل ، مجلد ٢ ، رقم ٦٧ ، الفلسفة (٧) ، من ٥ إلى ٣٢ ، ص ٣٨٥ «ومنهم أخيراً سيدنت الذي يميز بين شخصيته في المخلص «يسوع» مؤيداً القول بأن عيسى ولد مثل بقية البشر دون أي تدخل معجز وأنه لم تظهر إلا بركة عابرة من المسيح منذ تعميده في الأردن وحتى قبل نبوته ... أما زعماء العلوم الروحية الآخرون مثل سيمون الساحر وشروميه ويازيليد وفانتين وماريشيون الخ وبعدهم مانس فإنهم ينكرون بشريه المخلص يسوع المسيح ولا يريدون أن يروا في الأحداث التي حدثت له عند مولده وموته وبعثه إلا ظواهر متشابهة دون أدنى حقيقة موضوعية (١) .

في الواقع إن كريوكرات السكندرى الذى عاش في النصف الأول من القرن الثاني يقول : إن الله ولد (أرينى ، ٢٥ رقم ١ ، الفلسفة ، ج ٧ ، من ٥ إلى ٣٢ ، طبعة كرويس ، باريس (١٨٦٠) (ص ٣٨٥) «ويؤكد أن يسوع ليس إليها وليس إلا بشرًا مثل بقية البشر وهو ابن يوسف النجار ومريم ولكنه من طبيعة سامية بفضل دمه واستقامة حياته» الفلسفة ص ٣٨٥ «ويتليك يسوع طبيعة صلبة وخلصة تذكرنا بما رأه في حياته السابقة ، فلقد تربى على الشريعة والعادات اليهودية ولكنه سخر منها وأدت به هذه السخرية المتحررة إلى التخلية التي سمحت له بأن يتخلص من الملائكة الخالقين (الفلسفة السابق) وبهذه السخرية من شريعة موسى كان عيسى أداة للسلام بين البشرية وهذا هو كل موضوع الخلاص عند

(١) جـ ١ بارى ، مقال في SETISME (١) في معجم اللاهوت الكاثوليكى مجلد ٤ رقم (١٤٨٥) - باريس (١٩٢٤) .

(٢) بارى ، مقال عن كريوكرات (Corporate) في المعجم اللاهوتى الكاثوليكى المجلد الثانى (الجزء الثانى رقم (١٨٠٠) ، باريس ، (١٩٢٣))

كربوكرات الذى لا يتحدث لا عن ألوان المعاناة التى لاقاها يسوع ولا عن موته ويقتبس كربوكرات من أفلاطون نظرية أسبقية وجود الأرواح وينفى مطلقاً الوهية يسوع .

أما سيرنت فقد ولد فى مصر وتكون علمياً بشكل معين فى الاسكندرية وتبخر فى الفلسفة اليونانية وفى الحكمة الشرقية ودرس أعمال فيلون ومحاولته المصالحة بين الفلسفة اليونانية وتعاليم موسى ولما ترك مصر نزح إلى فلسطين فى زمن التبشير الرسولى وأقام فى القدس ثم فى قيصرية ثم فى أنطاكية واستقر فى آسيا حيث أقام مدرسة وأسس مذهباً ، انظر أريينه ج ١ ، ٢٦ ، P. G ١ ، مجلد ٧ ، رقم (٦٣٤) إيفان ، الهرطقات ، ٢٨ ، ١ ، P. G ، مجلد ٤١ ، رقم (١٧٧)

وفى دراسته لل المسيح يميز سيدنت فى المخلص بين شخصيتي يسوع وال المسيح ويؤكد أن يسوع ولد من يوحنا ومريم مثل بقية البشر « الفلسفة ٢٨ ص ٣٨٨ ، تير توليان ، الكتابة المقدسة ٤٨ رقم ٦٧ » وقد عانى ومات وقامت قيامته « بارينيه ، الهرطقات المضادة ، ١ ، ٢٦ ، P. G ١ ، ٧ رقم (٦٨٤) ، الفلسفة ، ٧ ، ٥ ، ٣٣ ، ص ٣٨٩ » وكما يقول القديس أو جستين فإنه يجب أن يبعث ولكن يسوع ليس هو الله . إنه رجل خير بعقله وحكمته وفى لحظة تعميده تلقى فى شكل يمامه المسيح الذى أرسلته القوى السامية وتعلم منه وحى الله الغير معروف « أريينيه المرجع السابق » ولكن هذا الضيف الغريب « المسيح » الذى يستعصى على الآلم ولا يمكن أن يعانى لم يحتفظ به يسوع حتى موته ولحظة عذابه . فى الحقيقة لقد ترك المسيح يسوع وصعد إلى السماء وقد عانى يسوع وحده ومات « الفلسفة ص ٣٨٩ » (١) إذن ففى رأى سيدنت فإن عيسى البشري لم يكن إلا رجلاً حدثت له بركة عابرة دخل فى أثناها المسيح لحظة تعميده يسوع التى قام بها القديس يوحنا وخرج قبل صلبه ويسوع البشري هو وحده الذى عاش مثل بقية البشر ومات حقاً وصلب على الصليب إذاً ليست هناك طبيعتان عند سيدنت بل على العكس فإن سيدنت يؤكد « أن يسوع لم يولد من عذراء لأن هذا يبدو له

(١) بارى مقال عن سيدنت فى المجم اللاهوتى الكاثوليكى مجلد ٢ ج ٢ رقم (٢١٥٣) ، ٢١٥٤

مستحلاً ، ولكنه ابن يوسف ومريرم بإنجاب مشابه لبقية البشر وقد تفوق على جميع البشر بالعدل والحدر والحكمة وبعد تعميده جاءه المسيح مرسلاً من القدرة العليا التي هو فوق كل شيء ونزل على يسوع في شكل يمامة وهنا أعلن هذا المسيح عن الآب الغير معروف وقام بالمعجزات حينما ترك يسوع وحده عانى يسوع وصلب وبقى المسيح لا يمكن المساس به لأنه مثل الهواء لا يمكن لمسه » .

إذا فالمفهوم الطبيعي للمسيح عند « سيرنست » يتشابه مع المفهوم القرآني بينما يوجد بعض الشبه فقط بين مفهوم « جوستان ش وكريوكرات » والمفهوم القرآني . وعند علماء الروحانيات العظام مثل « بارلستيد » و « فالنتين » و « مارثيون » يجب أن نبحث عن أوجه شبه بين مفهومهم عن عيسى ومفهوم القرآن .

(١) بازليد :

ولد « بازليد » في نهاية القرن الأول الميلادي وعاش وتعلم بالاسكندرية خلال فترة حكم الامبراطور هادرمين (١١٧ - ١٣٨) والامبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١) وحسب ما أكده كليمون السكندرى فإن علماء الهرطقة يضعونه بجانب استريل الأنطاكي (چستان) محاورة ، ٣٥) ويلحقون الاثنين بالملحدة وهم ميندلر وسيمون الساحر (ايرينيه ، ضد الهرطقات ، ١ ، ٢٤ ، ١ ، ٢٤ هيبوليت ، الهرطقات ، ٧ ، ٢٨١) وقد كتب تعليقاً على الإنجيل في (٢٤) كتاب وكان عنوان التفسير (كليمون السكندرى ، علم الفلك ، ٤ ، ٨١ ، ١) ويقول أورچين أن بازليد نفسه قد ألف إنجيلاً خاصاً به كما أن له كتاباً آخر يشتمل على بعض المزامير .

كما أن معرفته بالكون قد أوردها القديس إريينيه فيما يلى : « من الآب ولد العقل أولاً ومن العقل ولدت الكلمة ثم من الكلمة ولد الخطر ومن الخطر ولدت الحكمة من القوه ومن القوه والحكمة ولدت الفضائل والملوك والملائكة والذين يسميهم الأولي ومن أجدهم خلقت السماء الأولى ومنهم ولدت ملائكة آخرون . إنهم يرفضون أن يعتقدوا بوجود المسيح كلمة الله وكلمة الآب (أو سبب ، التاريخ الكنسى ، ج ٣ ، ٢٧ ، ٢٧٣) كما أنهم يدرسون نفس الآراء التي قال بها سبرنست وكريوكرات فيما يخص يسوع .

و هذه النبذة عن الآراء المتعلقة بطبيعة المسيح في القرنين الثاني والثالث تكفى لإيضاح أن المفهوم القرآني ليسع له سوابق عند بعض مثل الكنيسة المسيحية في بدايتها أى حين كانت قريبة من منابعها الأولى قبل أن تحرف على نطاق واسع من قبل البيزنطيين وتدخل في تفسيرات عقيمة وإذا كان المضططعون بهذه الآراء يعتبرهم آباء الكنيسة ملاحدة وهرطقة ، فإن هذا لا يغير في الأمر شيئاً ، فليس المطلوب أن ترضى عنهم المجامع المسماة الأرثوذوكسية . وما يهمنا هنا هو أن هذه الأفكار ظلت محل تقدير من جانب أكبر وجهاء المسيحية في عهدها الأول ، ولذلك فهي تمثل العقائد المسيحية في صفائها .

إذن فمن الخطأ اتهام القرآن بأنه أساء التصور عن المسيحية ومؤسسها وهو اتهام ردده تقريرياً المستشرقون .

* * *

مريم التي تجعل منها الشعائر المسيحية إلهه تعبد

يذكر القرآن أن بعض المسيحيين يعتبرون مريم أم عيسى إلهة وهذه هي الآيات :
﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ أَنْتَ قَلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَمِّي إِلَهَنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سَبَّحْتَنِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلِمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنْكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْبِ مَا قَلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دَمْتَ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة المائدة الآيات ١١٦ ، ١١٧) .

وفي معرض الحديث عن هذه الآيات يجب أن نوضح بدأياً ردًا على التتائج المخاطئة والمستخلصة بشكل متسرع من جانب المستشرقين والمسيحيين الشرقيين أنه ليس في هذه الآيات ولا في أي مكان في القرآن ما يؤكّد على أنّ مريم جزء من الثالثون أو أقْتُوم من هذا الثالثون إن كل ما قاله القرآن في الآية ١١٦ من سورة المائدة هو أن هناك بعض المسيحيين ينظرون إلى مريم أم عيسى على أنها إلهة وهذا كل ما في الأمر .

بينما يؤكّد المدافعون عن المسيحية أن هناك شعائر مسيحية تساند هذا الاعتقاد ومنهم إيفان (ت ٤٠٣ م) في كتابه « عدو الهرطقه » ، الكتاب الثالث ، الهرطقه رقم ٧٩ - في موسوعة الآباء اليونانية مجل ٤٢ ، رقم ٧٣٩ - ٧٥٥ وقد خصص فصلًا كاملاً لما يسمون CollyridiEns وهم الذين يقدّمون القرابين إلى مريم كما يذكر إيفان أنه كتب بخصوص موضوعهم خطاباً إلى كنائس الجزيرة العربية وهذا يؤكّد أولاً أن هذه الطائفة كانت موجودة في زمنه كما كانت موجودة في الجزيرة العربية وهذه الطائفة هي طائفة المونتانية أتباع مونتانوس وهو الذي أسّها حوالي سنة (١٥٦ م) في منطقة فريجى ثم في كل آسيا الصغرى وقد تنبأ مونتانوس هو وتلميذه الأولين بريسكلا (Priscila) وماكسيملا (Maximilla)

بالنهاية القرية للعالم والتى تبدأ بسقوط أورشليم العيا على قرية فارسية صغيرة تسمى ببيودا وكانت تنبأ لهم الروحية قد قادتهم إلى أن يكونوا ضمن النبوة المذكورة في الإنجيل عند القديس يوحنا (١٤ ، ٢٦ ، ١٥ ، ٢٦ ، ١٦ ، ٧) وكذلك مع الروح القدس

وكل الذى يهمنا في هذا المقام هو الفرقة الموتنانية التى ذكرها إيفان والمسماة *Collyridiens* حيث يقول : « بعد أن ظهرت هذه الفرقة في شداس انتشرت حتى وصلت للجزيرة العربية في شكل مذبح منقول وكان أصحاب هذه الفرقة يعرضون أمام الأنظار خبزاً ثم يقدمونه قرباناً باسم مريم ويوزعونه » ويدرك « بيسرد » « ولا بريول » في رسالته الثانوية عن مصادر تاريخ الموتنانية (باريس ١٩١٣) بالتفصيل المصادر التي تتحدث عن عقيدتهم المتعلقة بمريم أم يسوع باعتبارها إلهة ويناقش إيفان إلحاد هذه الطائفة في معرض حديثه عن القضية التالية وهى هل من حق النساء أن يصبحن قساوسة ومطارنة؟ ويرفض إيفان بشدة هذا الأمر ولا يعترف لهن بهذا الحق ولكنه يعترف لهن فقط بالحق في أن يصبحن راهبات ويخلص إلى أن (جسد مريم مقدس ولكنها ليست إلهة) (موسوعة الآباء اليونانيون المجلد ٤٢ رقم ٧٤٦ ، ١ ، ٤٥ - ٤٦) .

كما يذكر يوحنا الدمشقى (توفي حوالي ٧٥٠) أيضاً هذه الطائفة التي تعبد مريم ولكنه يكتفى فقط بالقول أن هذه الطائفة تقدم إلى اسم مريم بعض الحلوي الصغيرة في تاريخ محدد من كل عام ومن هنا اكتسبوا اسمهم *Collyridiens* أى الذين يقدمون *Collrides* وهي الحلوي الصغيرة أو الخبز الصغير^(١). كما يذكر ليون البيزنطى (من القرن السادس عشر لحة عن الخبز الذى يقدم باسم مريم^(٢)) .

هذه الشهادات الثلاث تؤكد أن عبادة مريم باعتبارها إلهة انتشرت في الشرق المسيحي بداية من القرن الرابع وكان لها أتباع من مسيحيي الجزيرة العربية .

(١) يوحنا الدمشقى ، عن الهرطقة في موسوعة الآباء اليونانيين مجل ٩٤ رقم (٧٢٧) .

(٢) ليون البيزنطى ، ضد الناطرة ، ٤ ، ٣ ، في موسوعة الآباء اليونانيين مجل ٨٦ رقم

(١٣٦٤)

ومن هنا نستخلص :

١ - أن القرآن قد ذكر الحقيقة حين نهى على المسيحيين (أو على بعض الطوائف المسيحية) أن يعبدوا مريم أم عيسى على أنها إلهة .

٢ - أن القرآن لم يقل إن مريم أحد أقانيم التثلثة والقول بأن القرآن قال ذلك هو أكذوبة كبرى اخترعها المبشرون ^(١) والمستشرقون ^(٢) الذين هم في نفس الوقت مبشرون ومسحيون شرقيون سيئو النية مثل « أناواتي » ، مقال عن عيسى في موسوعة الإسلام « وميخائيل هايك » في رسالته المسيح في الإسلام ، باريس ، ١٩٢٩ .

وإذا اعترض على معتبرن وقال ما هو إذن الأقنوم الثالث للتثلث حسب ما يذكره القرآن فأقول : إن القرآن يعلم تماماً أن الأقنوم الثالث عن المسيحيين هو الروح القدس ولكن لأن الروح القدس هذا له وظيفة أخرى غير كونه أقنوم من أقانيم الثالوث الذي لا يعترف به القرآن فإن القرآن لا يمكن أن يذكره على أنه أقنوم . في الواقع إن القرآن ذكر الروح القدس ثلاث مرات (البقرة ، ٨٧ ، ٢٥٣ ، المائدة ١١٠) في معرض حديثه عن عيسى ولكن بهذه الألفاظ ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ (البقرة ٨٧) ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ (البقرة ٢٥٣) ، ﴿ إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ ، المائدة ١١٠ وفي هذه الموضع الثلاثة فإن روح القدس يعني ببساطة الوحي الإلهي ، أو دعم من الله لنبي من الأنبياء ، أو لرجل عبقرى وهذا يؤكده قول الرسول للشاعر حسان بن ثابت « قل وروح القدس معك » إذن فروح القدس في القرآن ليست لها علاقة بروح القدس ثالث أقانيم الألوهية ولا يمكن أن يقول القرآن غير ذلك لأن القرآن يدين مذهب التثلث مطلقاً عند المسيحيين ﴿ لقد كفروا الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ولئن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ (المائدة ٧٣) .

ومن ناحية أخرى فإننا يمكن أن نعتبر أن تأليه مريم هو نتيجة حتمية لعبادة مريم

(١) مثل س . م زوير ، المسيح المسلم ، أيدنبرج ، لندن (١٩١٢) . أ ج ريبسون المسيح في الإسلام (١٩٢٩) .

(٢) مثل مرجليوث ، وديميتري بارند .

التي بدأت منذ القرن الثاني وقد اعتبرها « جيستان وإيرنيه » حواء الجديدة ومعها يسوع المسيح آدم الجديد كما أن أيفان يسميه أم الأحياء ومنذ مجتمع إيفيسيا عام (٤١٩) الذي عرف مريم على أنها أم الآلهةأخذت عبادتها تتأكد وتزدهر ويؤكده « سيفرين ديجابلا » (توفي ٤٣٠ م) أن تمجيد مريم يجب أن يكون شعيرة يومية كما أن هناك بعض العملات من الرصاص من القرن الخامس والسادس الميلادي وما زالت موجودة حتى اليوم تحمل كتابه تقول : عبد مريم .

وقد اعتبرت مريم منذ ذلك الوقت مشاركة في الخلاص أى أنها تشارك مع ابنها في خلاص العالم ويعتقد أغلب علماء اللاهوت الكاثوليك أنها تتعاون مع ابنها يسوع مباشرة وبشكل دائم في عملية خلاص البشرية « إن المسيح ومريم يشكلان كلاهما معا المبدأ الوحيد لخلاص الجنس البشري عن طريق إعادة البشرية إلى المصالحة مع الله لأنها فنيت على الصليب وكان من نتيجة ذلك أن تقاسما مبدأ العلية المشتركة » (١) ومن هنا اعتبرت مثل ابنها أى كإله أو كأفتوم إلهي ولم يكن بين ما أعلنه عبادها وبين كثير من الطوائف المسيحية إلا خطوة واحدة وقد اعتبرت مريم « السبيل إلى كل النعم » وهذا اللقب شهد عليه القديس أندريل الكريتي (توفي سنة ٧٤٠) والقديس جير من القسطنطيني (توفي سنة ٧٣٣) والقديس تراسينس (توفي سنة ٨٠٧) ومن الشرق المسيحي انتقل هذا اللقب إلى الغرب في حوالي القرن التاسع الميلادي من خلال ترجمة كتاب حياة تيوفيل الذي ألفه « بولس » الكاهن حيث يوجد فيه هذا العنوان أما المفهوم القرآني عن الروح القدس باعتباره الوحي الإلهي فإننا نجد في ما يسمى « الوحي الكهنوتي » وكان أول من قال بهذا الرأي هم « بولس » من ساموس (توفي بعد ٢٧٢) ، فوتينوس (توفي ٣٦٧) ، « مارسيل ونسير » توفي حوالي ٣٧٤ وحسب هذا المذهب فإن يسوع المسيح يعتبر فقط رجلاً أو حبي الله إليه أى أنه مبشر فقط وبشر خالص (٢) وقد هاجم أبوليونريوس (٣) هؤلاء المطارنة الثلاثة في هذه النقطة من مذهبهم وهي أن عيسى أو يسوع المسيح لا يعدوا أن يكون مجرد بشر قد أوحى الله إليه (٤) .

(١) ج . ب كارول مقال عن مريم في الموسوعة الكاثوليكية الجزء التاسع (ص ٣٥٩) .

(٢) انظر و باردي بول الساموس ، ط . ثانية ، لوفان ١٩٢٩ ، ص ٣٣ .

(٣) انظر ديمونست . مقطوعة د

(٤) انظر أنقاض من هذا المذهب في مقال جومشين ٣

وكان تيودونس البيزنطي الذى أقام فى روما يدرس فيها يقول أن «يسوع لم يكن إلا بشراً ولد من عذراء وقد عاش حياة دينية أكثر من قرنائه ومنذ تعميده فى الأردن دخل المسيح فى شكل يمامة ومنحه القوى التى كان يحتاجها لينجز مهمته» جـ بيتكرون «اللاهوت القديم» الطبعة التاسعة (ص ٣٥٠) (١) وهذا المفهوم قريب من المفهوم القرأنى لعيسى إن لم يكن مطابقاً له .

وهذا التيار فى المسيحية فى القرن الثانى والثالث والرابع الميلادى يسمى الملكانين أو الوسيط وقد ظهر فى آسيا الوسطى فى العقد الأخير من القرن الثانى وكان أحد أشهر ممثليها هو «جيليوس» وكان من أصل لىبي وقد جاء إلى روما قبل سنة (٢١٧) بقليل حيث أصبح زعيمًا لطائفة الملكانين (براكسيس) «إيجنوس» تلميذ يفونس ، كليو ميوس ولم يترك هؤلاء كتاباً ولم نعرف مذهبهم إلا من خلال الذين قاموا بالرد عليه وعلى رأسهم «إيفان دوسلامس» و «هيوليت أثينا سيوس» (٢) وقد أكدوا أن الأب والابن والروح القدس ليسوا إلا ظلاماً وطريقاً للتبعد عن الله .

وقد ألف مارسل مطران أنقرة وهى الآن عاصمة تركيا وقد توفي حوالي (٣٧٤) مذهبها مشابهاً وحسب قوله فإن الله واحد مطلق وهو وحدة مطلقة ولكن عند الخلق وعندما يصبح بشراً وعندما يرسل روحًا يتطور فى إطار وحدة واحدة وفي الأب تكمن الكلمة دون أن يكون لها جسم حقيقي وفي الاتحاد مع البشر تكون الكلمة يسمى يسوع ولأن الولد يسكن فى الأب وكذلك تسكن الروح القدس فى الكلمة عند إرسال الرسل تخرج الروح القدس من الله «المقطوعات ٦٧ ، ٧١» (٣) ، وكان من بين هؤلاء الملكانين الذين يقترب مفهومهم من القرآن نذكر «بولس الساموسى» وكان كاهناً لأنطاكية من سنة (٢٦٠ إلى ٢٦٨) وقد ولد

(١) هيوليت الفلسفة (٧ ، ٣٥) طبعة فنلندا (ص ٢٢٢).

(٢) هيوليت ، دحض (ص ١١) أثينا سيوس ، إيثان ، الهرطقات من (٦٢ ، ٦٩) انظرها نالت تاريخ العقائد ، (١ ص ٧٣٤ إلى ٧٩٦) برسنج ، الله فى الفكر الآياتى ، لندن ، (١٥٦).

(٣) انظر عن مارسل جـ . م فوند فيلا الأفكار الشلثية فى المسيحية ر . مارسلو . مدريد (١٩٢٣).

في صميم صفات التي كانت عاصمة إمبراطورية كوماجين وفي سنة (٧٢) أصبحت تحت الإدارة الرومانية ثم عادت بعد ذلك إلى سلطة الشام وكانت تتلقى أموال ملك يلميد أو دناتو الثاني ثم أموال أرملته زينوربيا التي خلفته على العرش عام (٢٦٧).

ويخلص باردي مفهوم بول الساموسى عن المسيح بقوله إن هذا البشر الذى يشبه الآخرين هذا الرجل الأرضى يشبهنا فى كل شىء إن فضله وعظمته قد آتى إليه حسب الوعود والكتابات المقدسة وهذا الفضل هو فى شفائه للأمراض أو على الأقل فى أنه تلقى ما يستحقه من اسم المسيح ولكن فى أى وقت ظهر هذا النوع من البركة؟ يمكن أن تكون هذه البركة معاصرة لمفهومه كمسيح ومن المؤكد أن التعميد لا يلعب أى دور فى كتابات الساموسى وبفضيله التعميد يعد يسوع أفضل من بقية البشر حتى من موسى ومن الأنبياء كلهم وقد تخلى كل الرسل بالحكمة الإلهية ولكن لم تكن هذه النعمة عند أحد منهم كما كانت عن ابن داود «عيسى» وحينما جاءه الوحي من أعلى كان فى أبهى صورة ومن ساعته توحد يسوع مع الحكمة أو مع الكلمة بما أن هذين التعبيرين لهما نفس المعنى والاتحاد بين الحكمة ويسوع هو اتحاد أخلاقي خالص وقد أقامت الحكمة مستقرأ لها فى نفس يسوع وقد دخلت فى نفسه وأقامت لها محاربًا وبفضل القوة التى كانت تفعل بها حكمه يسوع هذه الأفعال المعجزة علمتنا أن موسى وبقية الأنبياء قاموا بمعجزات (١).

أما عن مصير يسوع بعد الموت فإن الأقوال الأصلية التى بقى لنا من بول الساموسى لا تقول شيئاً حتى عن مفهوم المسيح كمخلص ويقول باردي فى هذا الصدد «يمكن أن نعتقد أن بول الساموسى قد احتفظ بالللهظ التقليدى للمخلص ولكنه قلص مفهوم الخلاص فى مثال عجيب من الكمال الذى قدمه هذا الرجل الكامل إلى البشر والذى لم يكن سوى يسوع المسيح وحين خضع للحكمة الإلهية التى ملأت قلبه استطاع يسوع أن يهزم الخطية ولا يمكن لأى إنسان فى نفس الموقف أن يزعم لنفسه أنه أحرز نفس النصر إذا خضع للنعمه واقتفي أثر مسيح الله» (المراجع السابق ص ٣٧٩).

وهذا المفهوم مشابه تماماً لمفهوم القرآن فيما يتعلق بيسوع كما توضح الآيات

(١) جوستاف باروى بول الساموسى ، (ص ٣٧٢ ، ٤ ، بروجس ١٩٢٣).

القرآنية التالية : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » (١) الزخرف آية رقم ٥٩ ، « إن الله يبشرك بيحى مصدقاً بكلمة من الله وسيدة وحصورة ونبياً من الصالحين » (سورة آل عمران آية ٣٩) ويجب أن نوضح أن القرآن لم يسند إلى عيسى دور المخلص لأن الخلاص لا يكون إلا من الله الواحد الأحد فهو وحده مخلص البشر .

باختصار فإن مذهب بولس الساموسى يتلخص في تقرير أن هناك إله واحداً من ضمن ما يتصف به الحكمة أو العقل ومسيح هو يسوع رجل بشر مثل كل البشر تلقى الحكمة الإلهية . وهذه هي العقلانية البحتة كما أن بولس يدعم تعاليمه بسلسلة من البراهين من الكتاب المقدس وكان يزعم أنه يهزم أعداءه بالكتاب المقدس ويكتفى على الأقل ما قاله « فانسان دوليدنس » « أقرعوا كتبيات بولس الساموسى وسوف ترون جانباً عظيماً من الأمثلة ولا يمكن أن تفتحوا صفحة إلا وتجدواها مزركشة وملونة باستشهادات العهد القديم والجديد » (١) « كان باردي السابق ص ٣٨٠ » ومن بين البراهين التوراتية التي يستند عليها بولس الساموسى نذكر الأمثلة التالية (٢) .

(أ) فيما يخص وحدة الله نقرأ في العهد القديم « الرب إلهك إله واحد » .

(دوتيرونوم ٤٢٦) وكذلك نقرأ في رسالة بولس إلى الرومانين « حتى لا يكون سوى إله واحد فوق الجميع » ولكن الأب عند بولس ليس له ولد .

(ب) وفيما يخص بشريّة عيسى فهذه آية من إنجيل القدس لوقا (إصحاح ٣ آية ٢٣) (وبدأ عيسى يبلغ حوالي الثلاثين من عمره) إن كلمة بدأ تعنى بالضرورة أنه بشر وليس إله وهذه آية أخرى من إنجيل يوحنا (وقد منحه القدرة على الحكم لأنه ابن البشر) (إنجيل يوحنا إصحاح ٥ آية ٢٧) .

ولكن هذه الاستشهادات لا تعنى عند بولس أكثر من كونها زركشة . ولكن المهم عنده هو الحجج القائمة على العقل فمنذ عرفنا أن الله واحد وأن كل المسيحيين يجب أن يعترفوا بذلك لم يعد من الممكن أن يكون عيسى إلهًا بأى حال من الأحوال لأن مبدأ التناقض يعارض هذا القول لأنه لا يمكن للطبيعة البشرية أن

(١) فانسان دوليدنس (ص ٢٥) .

(٢) لأن بولس يؤكد أن الأب هو الإله الواحد انظر إلينا الهرطقة (٦٥ ، ٣) .

تقسم أو توزع على أصحاب نوازع متعددة لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتحدد مع الطبيعة الإلهية بشكل وثيق حتى يسمح بأن نطلق اسم الإله على المسيح (باردي السابق ص ٣٩٣)

ولم ترد الكنيسة المسيحية الوضعية أن تستمع إلى هذا الصوت المتعقل ولم يعتمد مذهبه إلا من كنيسة أنطاكيه حيث كان مطراناً لها ولكنه واجه أعداءً شرسين وعلى رأسهم «دامفوس» الذي خلف «بولس» على عرش المطرانية بعد اعتزاله وما لشيوه وهو عالم كان يدرس السفسطة كما كان قيساً وقد لفتوا انتباه مطرانية الإسكندرية وروما حول الخطر الذي يشكله مذهب بولس على المسيحية.

وقد دعوا إلى مجمع عقد عام (٢٦٤) في أنطاكيه ولكنه اتفق بسرعة وظل بولس يمارس عمله كمطران ويدرس مذهبه كما كان يفعل قبل ذلك وحيثند دعى إلى اجتماع آخر في سنة (٢٦٨) اجتمع فيه عدد كبير من المطارنة لم يكن من بينهم أى من حضر الاجتماع الأول في سنة (٢٦٤) وقد أعلناوا أن بولس الساموسى يدرس مذهبًا مخالفًا للذهب الكاثوليكية ويجب أن يجرد من منصبه وانتخبوا مكانه «دومينوس بن ديميتريانوس» الذي سبق بولس في كرسى المطرانية وبقية هذه القصة لا يفيد ولكنها توضح فقط ختاماً لذلك أن الكنيسة المسيحية حين أدانت مذهب بولس الساموسى ضيّعت على نفسها فرصة جيدة لتصحيح مذهبها عن طبيعة المسيح ذلك المذهب الذي يضاد العقل والمنطق وحتى تحافظ على وحدة الإله فإن الكنيسة كان يجب عليها أن تعتمد مذهب بولس

الساموسى

كذلك فإن مفهوم القرآن عن عيسى هو المفهوم الوحيد الذي يتطابق مع مذهب وحدة الإله

* * *

ج - سياسة محمد تجاه العرب

كان محمد يعرف تماماً العقليه اليهودية ولم يتعشم يوماً أن يدخل اليهود في الإسلام وخلافاً لرأي بعض المستشرقين الذين يقولون : إن محمداً في بداية إقامته بالمدينة أراد أن يدخل اليهود في الإسلام فإننا نؤكد أن محمداً لم يكن يأمل في ذلك لسبب بسيط لأنه كان يعرف تماماً أنه من غير الفيد إضاعة الوقت والجهد مع اليهود .

من المؤكد أن محمداً « قد دعا اليهود أهل الكتاب إلى الإسلام وبين لهم محسن هذا الدين وحذرهم من انتقام الله وعقابه ^(١) » ، ولكن ذلك كان مجرد دعوة خالصة لأنه كان مقتضاً أنهم لن يجيبوه إلى طلبه .

وروى ^(٢) أيضاً أن محمداً قد دخل أحياناً إلى بيت المدرسي أى المدرسة التلمودية ليهود المدينة وتناقش مع الأحبار الذين يدرسون فيها ولكننا نعتقد أن هذا كان من أجل الرد على الهجمات التي مافته اليهود يشنونها على الإسلام وليس من أجل أن يتتحولوا إلى الإسلام ، ومن بين الموضوعات التي تناولها النقاش بين محمد والآباء ما يلى .

(أ) على أى دين كان إبراهيم ؟

(ب) رجم الزانية .

(ج) اليهود وإنكارهم نبوة عيسى .

(د) متى تقوم الساعة ؟ .

(هـ) الله الخالق فمن خلقه ؟

(و) الأطعمة المحرمة .

وفي جداله مع اليهود كان محمد متأكداً من أن هذا الجدل لا طائل تحته لأن اليهود لا يريدون أن يقتعوا ولا يكن أن يتركوا دينهم .

(٢) ابن هشام (ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٣) .

(١) ابن هشام (ص ٣٨٢) .

كما أنَّ مُحَمَّداً لم يُولِّ اهتماماً لِلإسلام اليهود .

(أ) لأنَّ عددهم كان قليلاً فقد كانوا عبارة عن الفين في المدينة وما حولها أى أنَّهم عدد لا يُؤْبِه له كما أنَّهم من أخطر ما يمكن .

(ب) أنَّهم أصبحوا مصدر قلق من الناحية الدينية والعقائدية بسبب مجادلتهم ومشاغبِهم التي لا تنتهي .

(ج) أما من الناحية العسكرية فلم يكن لليهود أهمية ولذلك لم يكن من الممكن أن يدعموا الإسلام الناشيء .

(د) لم يكن اليهود عرباً حقيقين .

وكان الوضع مختلفاً بالنسبة للعرب الوثنيين لأنَّهم :

(أ) كانوا يشكلون أغلب سكان الجزيرة العربية ولذلك كانوا أول متلقى للدين الجديد .

(ب) كانوا أكثر استعداداً لاعتناق الدين الجديد لأنَّ الوثنية لم تقدم لهم أي عقيدة ذات قيمة .

(ج) بفضل عددهم وأهميتهم كمحاربين مستعدلين للدفاع عن الدين الجديد ضد أي هجوم وكذلك لتأمين انتشاره وانتصاره .

(د) لأنَّهم وبعد كلِّ هذا هم قوم محمد الحقيقين وإن شئت فقلْ هم عائلته . ولذلك فكان من المنطقي جداً أن يختلف سلوك محمد تجاه العرب الوثنيين عنه تجاه اليهود ، ونذكر هنا شبهة لا تدلُّ إلا على السذاجة الحمقاء حيث يقول م . وات « إنَّه لمن المفید أن نخمن ما كان يمكن أن يحدث إذا كان اليهود قد تحالفوا مع محمد بدلًا من أن يصبحوا أعداءً وفي فترات معينة كان يمكنهم أن يحصلوا منه على شروط ممتازة بما فيها أن يترك لهم دينهم وعلى هذا الأساس كان يمكن أن تكون إمبراطورية عربية يكون اليهود جزءاً منها ويكون الإسلام طائفه من الطوائف اليهودية ، ولكنَّ كان وجه العالم يمكن أن يتغير الآن وخلال الأشهر الأولى التي قضها محمد في المدينة بذرت بذور مأساة مروعة اخترت معها هذه الفرصة الذهبية » ^(١) يا لها من قضية مضحكة ومثيرة للسخرية

(١) م . وات « محمد في المدينة »

١ - ماذا يمكن أن تكون هذه الشروط الممتازة التي يمكن أن يحصل عليها اليهود من محمد ، لا يمكن أن تكون سوى أن يتركهم في سلام وأن يترك لهم أموالهم ولكن على شرط أن يدفعوا الجزية ، وهو نفس ما حدث بعد فتح المسلمين لبعض البلاد التي توجد فيها أقليات يهودية ، ومن هنا فإن اليهود لم يتغير وضعهم مطلقاً خلال تاريخ العالم الإسلامي كما لم يتغير وجه العالم .

٢ - ومن العبث أيضاً قوله بأن الإسلام كان يمكن أن يصبح طائفة من طوائف اليهود ، إنني أتساءل حقاً في أي حالة كان م . و . وات حينما كتب هذه الجملة الأخيرة أنه حتى لو احتسى عشر زجاجات من ال威سكي دفعة واحدة لما كان من الممكن أن يقول هذا الكلام

يا سيد وات إن الإسلام لا يمكن أن يصبح نحلة يهودية إلا إذا حدث المستحيل وتحول محمد إلى اليهودية وأى إنسان عنده ذرة من العقل لا يمكن أن يفترض هذا الافتراض ، ثم لماذا يفعل محمد ذلك ؟ أمن أجل عدد محدود من اليهود لا يؤبه له وليس له أى تأثير ؟ ، ما هذا التخريف من الأفضل له ألف مرة أن يتبع دين آبائه وقومه ، دين أغلب سكان الجزيرة العربية .

ولو كان م . وات لم يكن حياً بعد ظهور كتابه وهو ما يزال يعيش إلى اليوم (١٩٨٩م) أى بعد ظهور كتابه (محمد في المدينة) أكسفورد مطبع كلاريندون (١٥٦) لكان من الممكن أن يعتقد أى شخص ما سوء النية أراده أن يلعب معه لعبة قدرة حين أورد في كتابه هذا السخف الذي لا يمكن تصديقه

٣ - لو كان هناك فرصة جيدة قد فقدت فهي فرصة يهود المدينة ويهود خير فقط في أن يظلوا على الحياد أو يعتنقوا الإسلام

* * *

الفصل الرابع

وفاء محمد بالعهود المعقودة

في معرض حديثه عن الصلح الذي أبرمه محمد مع القرشيين بالحدبية في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة والذي زالت بقتضاه العداوة بين الفريقين لمدة عشر سنوات يقول فرانس بول : « أن الذي يعرف موقف محمد من عهوده واتفاقياته لا يشك أن نيته منذ البداية سوف تكون التخلل من هذا الالتزام حالما تسعن الفرصة » (١) .

هذا الزعم وهو أن محمدا لم يكن وفيا بالعهود والمواثيق التي يرمها كاذب تماما لأن محمدا لم يرم أى اتفاق أو عهد أو ميثاق دون أن يحترمه حرفيا وكل خرق لاتفاق إنما جاء بداية من خصمه .

وأهم اتفاقية في هذا الصدد هي الاتفاقية المعروفة بمعاهدة صلح الحديبية « من ١١ إلى ٢٠ ذى القعدة سنة ٦ هجرية ١٣ مارس إلى إبريل سنة ٦٢٨ » وحسب نص هذه المعاهدة « هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلح على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكتف بعضهم عن بعض » ويسود بينهم الأمان على أنه من آتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة محفوظة وأنه لا إسلام ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، ويلتزم محمد بآلا يدخل إمكنا هذا العام وإذا كان العام القادم خرجت قريش عن مكة فيدخلها محمد بأصحابه فيقيم بها ثلاثة لا يحمل إلا سلاح الراكب السيف في الكرب ويدخلها بغيرها (٢) .

وعلى أثر ذلك دخلت خزاعة في عقد محمد بينما دخل بنو يكر في عقد قريش ولكن السلام لم يدم إلا عشرين شهرا ، فقد نقضت قريش المعاهدة بالشكل التالي :

(١) فرانس بول ، حياة محمد (ص ٣٠٤) .

(٢) انظر ابن هشام (ص ٧٤٧ إلى ٧٤٨) ، الواقدي ، فلهوزن (ص ٢٥٥ إلى ٢٥٧) ، الطبرى ج ١ (ص ١٥٤٥ إلى ١٥٤٧) .

(١) بعد صلح الحديبية أرسل النبي كتاباً إلى بني خزاعة إلى بديل بن ورقاء وبقية زعماء خزاعة ليعلن لهم تعهده بأمانهم وتصرفهم وأن لهم نفس حقوق المهاجرين (١).

(ب) وعلى الجانب الآخر دخلت قبيلة بكر بن عبد مناة من قبيلة كنانة وكانت في عداء دائم مع بني خزاعة في عقد قريش حتى تعينهم في صراعهم مع خزاعة.

(ج) ويقول ابن إسحاق (٢) « وعندما أبرم صلح الحديبية أراد أناس من قبيلة بني بكر أن يستغلوا هذه الفرصة ليثأروا من بني خزاعة الذين قتلوا بعضاً من رجالهم فسار نوفل بن أبي معاوية الديلى مع بعض أناس من بني ديل وكان يتزعمهم ولم يكن يومئذ كبير بني بكر ولكنه صنع كميناً لبني خزاعة ، وكانوا حينئذ قربين من الටير وهي عين ماء تسمى بهذا الاسم فقتل أحدهم ثم قتل آخرون ثم صارت معركة وساعد القرشيون بني بكر بإرسال السلاح إليهم والمحاربين الذين كانوا يحاربون في صفوفهم بالليل حتى لا يكتشف أمرهم وقد أثروا ببني خزاعة إلى البيت الحرام .

ويقول ابن إسحاق : عندما تحالف بنو بكر وقريش ضد خزاعة قتلوا منهم ما استطاعوا أن يقتلوه ، وخرقوا ما كانوا أبْرموه من عهود ومواثيق مع رسول الله حين هاجموا بني خزاعة حلفاء وحينئذ ذهب عمرو بن سالم الخزاعي وأحد بنى كعب إلى المدينة لمقابلة رسول الله ووجد النبي في المسجد وحوله ناس من أصحابه فأنشد قصيدة يرجو فيها النبي أن يسرع إلى نجدة بني خزاعة حلفاء قائلاً :

إن قريشاً أخلفوك الموعد ونقضوا ميثاقي المؤكد

(المراجع السابق ص ٦٠٨)

كما خرج بديل بن ورقاء في جماعة من خزاعة ليلقي الرسول بالمدينة فقصوا

(١) انظر الواقدي (٣٦) وابن سعد (٢٥ إلى ٢٥)

(٢) ابن هشام

على النبي كيف أن قريشاً تحالفت مع بني بكر على بني خزاعة وقتلوا رجالاً منهم « وكان هذا أحد أسباب فتح مكة كما يقول ابن إسحاق » (١) .

ومن الواضح ما تقدم أن القرشين كانوا هم الذين نقضوا صلح الحديبية ، فبأى حق إذن يتهم فرانتس بول النبي بعدم الوفاء بتلك المعاهدة ؟ ولكن كراهيته الشديدة وحقده على محمد والإسلام قد أعميَه تماماً .

وعلى الجانب الآخر يعترف ليون كايتانى أن القرشين هم الذين نقضوا صلح الحديبية حيث يقول : استمرت المعاهدة لمدة ٢٢ شهراً ولكن نقضها جاء من الجانب المكى (٢) وبين أن القرشين هم الذين نقضوا صلح الحديبية ، فإن النبي أصبح فى حل من إعلان الحرب على القرشين وستكون هذه الحرب هى آخر الحروب بينهم وهى ستنتهى بأعظم فتوحاته مجدًا ، وهو فتح مكة من السنة الثامنة للهجرة ينابير ٦٣٠ ميلادية .

وعلى عكس خيانة قريش لعهودها فقد احترم محمد بنود صلح الحديبية بطريقة حرفية كاملة وأعظم دليل على تصرفه حادثة أبي بصير .

وأبو بصير هو عتبة بن أسيد بن جر ، وقد أعاده أسياده إلى مكة وهم : أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة والأخنس بن شرقي بن عمرو بن وهب الثقفى ، ولأنه مسلم فقد نجح فى الهروب من مواليه ، ولحق بالتنى فى المدينة فأرسل مواليه أزهر والأخنس أرسلاً رجلاً من بني عمير بن لؤى ومعه مولى لهم فقدموا على رسول الله بكتاب الأزهر والأخنس وهم يطلبون منه أن يعطىهم أبا بصير ، فقال النبي لأبى بصير : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك وملن معك من المستضعفين فرجاً ومخراً فانطلق إلى قومك ، قال : يا رسول الله أتردوننى إلى المشركين يفتونى فى دينى ، فقال النبي يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ومن معك من المستضعفين مخرجاً فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحلقة وجلس معه أصحابه فقال أبو بصير أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ، فقال نعم قال أنظر إليه ، فقال : انظر إن شئت قال فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله ، وخرج

(١) ابن هشام (ص ٥٠٨) السطر الأخير .

(٢) لـ . كايتانى ، حوليات الإسلام (ص ٧٢٢) .

المولى سريعاً حتى آتى رسول الله وهو جالس في المسجد فلما رأه الرسول طالعاً، قال إن هذا الرجل قد رأى فرعاً فلما انتهى إلى رسول الله قال : ويحك (مالك) قال : قتل صاحبكم صاحبى فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوضحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله فقال يا رسول الله وفت زمتك وأدى الله عنك أسلمتى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يبعث بي ، فقال رسول الله : « ويل أمه محسن حرب لو كان معه رجال ! » .

وبما أن النبي قد سلم أبا بصير إلى مولى سديه اللذين جاءا يطلبانه فإنه قد أدى واجبه ولا يمكن أن يطلب من النبي أن يضمن تسلیم أبي بصير إلى أيدى سديه في مكة فهذا واجب الذين يحرسونه حتى مكة .

ومع ذلك فإن النبي أراد أن يتحاشى أى صراع مع القرشيين فأمر أبا بصير أن يغادر المدينة فنزل أبو بصير على أمر النبي ، ورحل عن المدينة وأقام بالعيسى القرية من ذى المروء على ساحل البحر الأحمر على الطريق التى يسلكها القرشيون في طريقهم إلى الشام ، وبلغ المسلمين الذين كانوا جبساً بمكة قول رسول الله لأبي بصير : « ويل لأمه محسن حرب لو كان معه رجال » فخرجوا إلى أبي بصير بالعيسى فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً وكانتوا قد ضيقوا على قريش لا يعنون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها حتى أنت قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلا أوهامهم فلا حاجة لهم بهم فأواهم رسول الله فقدموا عليه المدينة .

وقصة أبي بصير (١) تثبت أن النبي التزم التزاماً دقيقاً ببنود صلح الحديبية برغم أن البند محل الكلام هنا غير عادل ومهين لل المسلمين مما جعل عمر وآخرين من كبار الصحابة يعترضون بخصوص هذا البند .

مرة أخرى بأى حق إذاً يتحدث فرانتس بول ومن على شاكلته عما يزعمونه من نقض للميثاق أو العهد من جانب النبي ؟ بالتأكيد إن التعصب أعممه وأصممه . والأغرب من ذلك أنهم لم يوردوا أى حالة حدث فيها هذا الخرق المزعوم من جانب النبي إن أقل قواعد النقد والتبيح التارىخى تقصصهم

(١) انظر عن قصه أبي بصير ابن هشام (ص ٧٥١ ، ٧٥٣)

رحمة النبي

ونذهب أبعد من ذلك .

فقد أبدى النبي مثلاً نادراً في الرحمة ونبيل النفس في أبهى صورة حينما قهر أعداءه الذين طالما أزعجهو وأذوه وتأمروا عليه .

وأوضح الأمثلة على ذلك هو موقف النبي بعد فتح مكة في عشرين رمضان من السنة الثامنة للهجرة ١١ يناير سنة ٦٣٠ ميلادية حيث أمر حملة الأولوية من المسلمين عندما يدخلون مكة ألا يحاربوا إلا من حاربهم ^(١) ولكنه أمر في نفس الوقت أن يقتل بعض الناس الذين حددتهم بالاسم جزاء جرائمهم ضد الإسلام وهي :

١ - عبد الله بن سعد أخو بنى عامر بن لؤى وأئمأ أمر النبي بقتله لأنه قد كان أسلام وكان يكتب لرسول الله الوحي فارتدى مشركاً راجعاً إلى قريش ففر إلى عثمان بن عفان وكان آخاه للرضاعة فغيبه حتى آتى به رسول الله بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة فاستأمن له ثم عاد إلى الإسلام ، وحينما أصبح عمر خليفة عينه والياً على بعض الأقاليم ثم عينه عثمان والياً على مصر .

٢ - عبد الله بن خطل وهو رجل من بنى تميم بن غالب وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله مصدقاً وبعث معه رجل من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً فنزل متولاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدى عليه فقتله ثم ارتدى مشركاً ، وكان له قبة تان فرتني وصاحبها وكانت تغنيان بهجاء رسول الله فأمر رسول الله بقتلها معه فقتل عبد الله بن خطل وإحدى القيتين بينما نجحت الأخرى في الهرب ثم آتى بها إلى النبي ليؤمنها وهو ما حدث بعد ذلك ، والذى قتل عبد الله بن خطل هو سعد ابن حرثي المخزومي وأبو بربة الإسلامي .

٣ - الحويرث بن نقيدة الذى كان يؤذى النبي بمكة وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله على بعير من مكة يريد بهما المدينة فهاجها بها الحويرث بن نقيدة فرمى بها إلى الأرض وقد قتله على بن أبي طالب .

(١) ابن هشام (ص ٨١٨) .

٤ - مقيس بن ضبابة وإنما أمر رسول الله بقتله لقتل الأنصاري الذي كان قتل أخيه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركاً وقد قتله غيلة بن عبد الله وهو رجل من قبيلته .

٥ - سارة وهي مولاة لبعض بنى عبد المطلب وكانت من يؤذى النبي بمكة فأتى بها إلى النبي فأمنها وعاشت حتى زمن عمر بن الخطاب « من سنة ١٣ إلى ٢٣ هجرية » .

٦ - عكرمة بن أبي جهل وقد هرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له من رسول الله فأمنه فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى آتت به رسول الله فأسلم .

هؤلاء هم الأشخاص الستة الذين أمر النبي بقتلهم بعد دخوله المظفر مكة ولم يقتل من هؤلاء الستة سوى اثنين (ومتغيرة واحدة وهم عبد الله بن خطل ومقيس ابن ضبابة) .

ثم عفا النبي عن كل أعدائه القرشيين الذين شنوا عليه حرباً شعواء لمدة عشرين سنة ولما وصل إلى باب الكعبة وتوجه إلى أعدائه القرشيين قائلاً : « يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال النبي أذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) .

وطوال تاريخ البشرية لم يجد أى متصر مثل سمو ونبل النفس هذا الذي أبدأه النبي حتى مع ألد أعدائه الذين حاربوا عشرين عاماً وأدوه أشد الإيذاء واشتدوا في ألوان الإيذاء والاضطهاد التي لا يمكن تخيلها ضده ، وضد أصحابه فما كان منه إلا أن عفا عنهم حتى أبو سفيان الذي قاد كثيراً من الغزوات ضد النبي وزوجته هند التي « عبرت عن فرحتها بوحشية حين أكلت كبد حمزة عم النبي وسيد الشهداء » (٢) . وعكرمة بن أبي جهل الذي كان أكثر القرشيين تطرفاً وكان يشبه أباه في ذلك ، وكذلك سهيل بن عمرو الذي أبدى كثيراً من الغرور والصلف خلال محادثات صلح الحديبية ، كل هؤلاء أطلق النبي سراحهم

(١) انظر ابن هشام (ص ٨١٨ إلى ٨٢١)

(٢) مكيم ردونسون ، محمد ، (ص ٢٩٨) ، انظر ابن هشام (ص ٥٨١)

واعملهم بأعظم ألوان الرحمة والعفو ومع ذلك فإن أغلب المستشرقين لم يقدر هذه الرحمة حق قدرها وماذا أقول ؟ إنهم يحاولون حتى أن يبخسوا قيمة هذا النبل حين يذكرون بعض الحسابات التفعية فيزعم « رودنسون » أن العفو عن أبي سفيان ، وعن زوجته هند كان الباعث عليه باعث مادى ، ويزهاب بهم التعصب الماركسي إلى حد الزعم بأن محمداً استفاد من عفوه أنه افترض من أغنياء قريش مبالغ كبيرة يا لها من سفالة مادية تاريخية !

إن و . م . وات (١) لم يذكر هذا الحدث الدال على كرم النفس ونبلها ولم ينطق بهذه الكلمة ولا بالمرادف لها في هذه المناسبة ولكنه كعادته ينبع في اعتبارات خارجة عن الموضوع مثل التحقيق والدبلوماسية والمهارة من جانب محمد .

ويشعر فرانتس بول (٢) بالدوار أمام هذا الفعل الكريم من جانب محمد والذي لا يمكن أن يلام على أي شيء منه ويحاول أن يجد أي شيء من اللوم حيث يقول : « بالنسبة لقوة محمد فقد كانت قوته كبيرة ولكن بالنسبة لصحة دينه باعتبار أن كثيراً من الناس الذين كانوا دنيوين قد دخلوا في جماعة المسلمين من أجل الدنيا » منطق غريب ! هل كان على محمد إلا يقبل الدخول في الإسلام من أي شخص غير الذين كانوا مسلمين قبل فتح مكة كما لو أن الإسلام انتهى بفتح مكة . هل هو رجل عاقل الذي يقول مثل هذا الكلام وهو بول ؟ .

وهذا هو موقف محمد من أعدائه بعد انتصاره العظيم عليهم .

فليشير لنا المستشرقون الأوروبيون إلى آية شهامة ماثلة في كل تاريخ أوروبا حتى وقتنا هذا وحتى لا نعود إلى ما قبل عصرنا فإنه يمكن أن نذكرهم بما فعله المتتصرون في الحرب العالمية الثانية بزعماء ألمانيا المهزومين ففي محاكمة نورمبرج المخزية التي بدأت في العشرين من نوفمبر ١٩٤٥ وانتهت في سبتمبر ١٩٤٦ حكم بالموت بالإعدام شنقاً على أكبر عشر شخصيات في ألمانيا وهم (١) جورينج (٢) ريبيندروب والجنرالات كايتل ويدول ، سيسى ، انكارت ، اشتريخ ، فرانك

(١) و . م . وات محمد في المدينة (ص ٩١٩)

(٢) حياة محمد (ص ٩٣)

سوكل وروزمبرج كما حكم بالسجن مدى الحياة على هس وفونك وريدر وحكم بالسجن عشرين عاماً على أشبير وشيراخ و 15 عاماً على نيورت وعشرة أعوام على دونتس وفي ليلة 15 إلى 16 أكتوبر نفذ الحكم على كل المحكوم عليهم بالإعدام فيما عدا جورننج الذي انتحر قبل التنفيذ بساعة ، وهي العدالة الغربية من جانب روسيا التي اشتركت مع بولندا وألمانيا في سبتمبر 1939م في المحور السرى لمعاهدة موسكو في 23 أغسطس 1939م والموقعة بين روسيا وألمانيا وقد دخلت في عداء مع اليابان سنة 1945م بعد أن نقضت من جانب واحد معاهدة عدم الاعتداء التي وقعتها سنة 1941 بمساعدة بريطانيا العظمى وفرنسا اللتين كانتا أول من أعلن الحرب على ألمانيا في 2 ، 3 سبتمبر 1939م والولايات المتحدة التي لم تتعرض لها ألمانيا بأى سوء .

ولكن أى مفكر أروبي برغم كثرة حديثهم في موضوع حقوق الإنسان والعدل والسلام العالمي الخ لم يجرؤ أن يرفع صوته ضد انتهاك العدل حتى أكثر المفكرين جرأة مثل برتراند راسل وجان بول سارتر وكثيرون غيرهم .

لو أن هؤلاء المستشرقين البوسائء كان عندهم أقل أنواع الحياة لكفوا على الأقل عن أن يعطوا دروساً في الأخلاق لمحمد والإسلام وال المسلمين ولكن كما يقول الحديث النبوي «إن لم تستح فافعل ما شئت» .

باختصار - بما أن أيا من المستشرقين الذين تحدثوا عن حياة النبي لم يوضح سمو أخلاق محمد بعد فتح مكة فإننا يمكن أن نؤكد باطمئنان أنه لم يكن عادلاً ولا محايضاً ولا موضوعياً ولا نزيهاً .

* * *

الفصل الخامس

النظم الإسلامية والتأسيس النهائي لها من الرسول

- (أ) الصلاة .
- (ب) الصيام .
- (ج) الحج .
- (د) الزكاة .

من بين القضايا التي ناقشها المستشرقون مرات عديدة تأثر قضية الشعائر الإسلامية في المقام الأول ونريد هنا أن نتحدث عن الصلاة والصيام والحج إلى مكة والزكاة ونناقش كلًا من أركان الإسلام الأربع على حده .

(١) الصلاة :

يقول كايتاني في معرض حديثه عن الصلاة : « فلترجع قبل كل شيء إلى القرآن فإن أول تعبير يقدمه لنا النص المقدس أنه بين التغافل واللوم والإرشادات تفرع الأوامر الصريحة بالصلاحة في عدد قليل من الآيات الشائعة التي إن قارناها ببقية القرآن فلن تشغل إلا حيزة عديم القيمة ومن ضمن آيات القرآن الـ ٦٢١٧ تتعلق بذات الله ولكن من بين بعض الآيات يوجد حوالي ١٢ آية فقط تتعلق بالأمر بالصلاحة ومن يريد أن يتعرف عليها سيجدها في السور المكية في الموضع الآتية « هود آية ١١٠ ، العنكبوت آية ٤٥ ، الإسراء آية ٧٨ ، طه آية ١٣٠ ، الروم آية ١٧ ، ١٨ » وفي السور المدنية في ثمانية مواضع « البقرة ٤٣ ، ٤٥ ، ١١٠ ، النساء ٤٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، التوبه آية ٥ ، النور آية ٣٧ ، المزمل آية ٢٠ » وفي الآيات المكية نلاحظ أن هناك إشارات إلى الصلاة وهي إشارات عابرة وبمهمة ولا تعبّر عن أمر حاسم ولكن تعبّر عن دعوة جادة للصلوة في أوقات مختلفة ليست محددة طوال اليوم ودون تحديد للعدد في بينما يتحدث في موضع عن صلاتين يتحدث في موضع آخر عن ثلاث صلوات وأكبر عدد أشار إليه هو أربع صلوات وليس هناك أى ذكر لخمس صلوات بينما وجد المفسرون المسلمين بقليل من التفسير البهلواني السبيل إلى ازدواجية معنى هذا التلميح وبهذا الشكل المتعسف وصلوا إلى العدد المراد وهو خمس صلوات وفي الآيات المدنية لمجد الأمر بالصلاحة حاسماً وقاطعاً ولكن بلا أى تحديد في العدد أو الكيفية وهناك مقطوعة طويلة من سورة النساء من آية ١٠٢ ، ١٠٣ وهي تتعلق فقط بالحالة الخاصة من الصلاة في مواجهة العدو وتعلن أنه من الجائز شرعاً قصر الصلاة حينما يكون هناك خطر يمكن العدو من الهجوم على المؤمنين بينما هم راكعون يؤدون شعائرهم الإجبارية » ^(١) .

(١) كايتاني حوليات الإسلام ج ١ (ص ٤٠٥) .

ثم ينتقل « كايتانى » إلى الأحاديث ويركز هنا أيضاً « إننا نجد نفس التصور في
الحجج المؤكدة بالنسبة لصدق الادعاءات المتعلقة بالشعائر المفروضة » وقد وجد
كما يقول في أصح كتب الحديث وهو صحيح البخاري ١٥٠ حديثاً متعلقة
بالصلاه ولكنه يقول : « إن القراءة المتأنية لـ ١٥٠ حديث بدلاً من أن تخلق في
داخلنا اقتناعاً تزيد من شكنا لأننا نلاحظ الغياب المطلق لأى حديث صحيح يأمر
صراحة بخمس صلوات في اليوم وكذلك باجتماع الجمعة الأسبوعي وهناك عدد
لا حصر له من المتأقضات ولا الشكوك حول تحديد أوقات الصلوات » (المرجع
السابق ص ٤٥٨) .

ثم ينتقل إلى الوثائق المحفوظة عند ابن سعد ويزعم أنه لم يوجد « حتى ذكر
ولو من بعيد لعدد الصلوات اليومية ولا وجوب صلاة الجمعة ولا الساعة المحددة
لكل صلاة » .

وعندما وجد في خطاب التعاليم الذي أعطاه النبي لعمرو بن حزم حين أرسله
إلى اليمن أشياء محددة وواضحة جداً عن عدد الصلوات والأوقات التي يجب أن
تؤدي فيها لم يقبل كايتانى هذا الخطاب (١) ويزعم أنه ملفق ومن وضع علماء
أصول الدين والفقهاء في القرن الأول والثانى الهجرى .

لتتعرف الأن على قيمة الحجج التي يسوقها كايتانى .

(١) يعترف كايتانى نفسه (ص ٤٥٢ ملحوظة ٤) أن « في بعض الأبواب
الأخرى من صحيح البخارى نجد مذكوراً وجوب أداء خمس صلوات في اليوم ».
ويذكر كمثال على هذا الجزء الأول (ص ١٩) السطر الأخير و (ص ٢٦ ، ١ ،
٨) الخ ولكن أمام هذا الأمر يقول : « ولكن أغلب هذه الأحاديث يبدو أنها
موضوعة ولذلك فإنها لا تستحق حتى مجرد النقد » !

وهذه طريقة جيدة في الجدل فهو يبرر حكمه قائلاً : « إن أغلب هذه
الأحاديث مروى عن أنس بن مالك وهو دليل دامغ على الشك فيها كما أنه

(١) انظر نص الخطاب عند ابن هشام من (٦٦١ ، ٦٦٢)

بالنسبة لاغلب الاوامر فإنها تأتى فى إطار توصيات شفوية يقولها النبي للمرسلين إلى القبائل » .

ولكن هذين السببين فاسدان أولاً لأن أنس بن مالك كان ثقة ومصدقاً ولا يمكن أن نرد أحاديثه نتيجة كلام نسب إلى أبي حنيفة ^(١) ومن ناحية أخرى فإن كون تحديد خمس صلوات موجوداً ضمن وصايا النبي لسفرائه إلى القبائل لا يمكن أن يكون دليلاً على كذب تلك الأحاديث وإلا للزم على الأقل ألا نقبل جميع الرسائل والتوصيات التي رواها ابن سعد وابن هشام والمصادر الأخرى الأولى لسيرته النبي وما كان لا كاتانى ولا المستشرقون الآخرون المتطرفون قد ذهب بعيداً هكذا وإلا لما كان من الممكن أن يكتبو هذه السير الكبيرة عن حياة النبي ومن ناحية أخرى فإننا نجد ذكر الخمس صلوات في قصة وفدي بن سعد بن بكر فقد قال زعيمهم ديمام بن ثعلبة للنبي « آللله أمرك بأن نصلى خمس صلوات » ^(٢) .

(ب) بعد أن قال « كايتنى » أنه متفق مع ما قاله القرآن وقع في تناقض مع القرآن حين زعم أن القرآن لم يحدد أى عدد للصلوات . فالعدد ٣ صلوات ذكر صراحة في الآيات الثلاث التالية .

- ١ - سورة هود الآية ١١٤ « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل » .
- ٢ - سورة الإسراء الآية ٧٨ « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .
- ٣ - البقرة ٢٣٨ « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » .

وقد حاول المفسرون المسلمين أن يستخرجوا الخمس صلوات من الآيتين التاليتين الروم ١٦ ، ١٧ « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون » .

وذلك لأنهم قالوا إن الآية ١٦ تعود على صلاة الفجر وصلاة المغرب وصلاة العشاء بينما تأمر الآية ١٧ باداء صلاة العصر باستخدام كلمة عشياً وصلاة

(١) وهذا ما رواه كمال الدين الدوميري ، حياة الحيوان (ص ٣٥٠ - ١) .

(٢) ابن هشام (ص ٩٤٤) ، ١ ، من (٤ إلى ٥) .

الظهر^(١) بينما يقول آخرون : إن المطلوب هنا أربع صلوات وليس خمسة فحين تمسون تتعلق بصلاة العصر وحين تصبحون تتعلق بصلاة الصبح وحين تظهرون تتعلق بصلة الظهر وعشياً تتعلق بصلة العشاء^(٢) والفرق بين التفسيرين هو في تحديد صلاة العصر .

ولكن المستشرقين لم يعتمدوا هذا التفسير في أي من شكليه لأنهم يريدون أن يفرضوا رأيهم بأى ثمن وهو أن محمداً عندما كان في المدينة إما أنه لم يأمر بأى عدد محدد من الصلوات وإما أنه أمر بصلاتين فقط وهو الصبح والليل بينما صلاة الليل تعد اقتباساً من المسيحية وفي المدينة كانت صلاة الليل مذكورة في سورة الإسراء آية ٧٨ وسورة المزمل آية ٢٠ وبدلاً من ذلك هناك صلاة ثلاثة ذات تراتيل أمر بها تسمى الوسطى **﴿ حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ﴾** البقرة آية ٢٣٨ وهكذا يكون عندنا ثلات صلوات يومية وهي الصبح والظهر والليل وهو ما يتطابق تماماً مع الأوقات الثلاثة لصلاة اليهود^(٣) ، وهكذا الأمر في أعين المستشرقين فكل قضية كما يزعم « بول » أيضاً سخافة قائلاً بعد ذلك « وهكذا في نقطة أخرى تختم على محمد أن يأخذ في اعتباره أن يحدو حدو اليهود في ممارستهم الصلاة اليهودية ولكنه تذكر لذلك » !

إذاً فكل الجهود تدور حول هذه القضية وهي أن محمداً أخذ عن اليهود طريقة وعدد الصلوات اليومية وبما أن اليهود لا يؤدون إلا ثلات صلوات في اليوم فقد حاول المستشرقون بكل السبل أن ينكروا أن عدد الصلوات عند المسلمين خمس وحتى يؤكدوا أن عدد الصلوات الخمس لم يكن موجوداً في حياة النبي ولكن اخترع بعد حياة النبي ، فقد قال جود فروا ديمومبين^(٤) فقد قال بتأكيد وقح « إن الصلوات الخمس ومارستها التقليدية في الإسلام قد شرعت بعد وفاة النبي » .

ولم يسألوا أنفسهم ماذا سوف يستفيد المسلمون من زيادة عدد الصلوات من ثلاثة إلى خمسة ؟ هل كانوا يخافون أن يتهموا بتقليل اليهود ؟ ولكن أى يهود ألم يطرد هؤلاء اليهود نهائياً من الجزيرة العربية بأمر الخليفة عمر حوالي سنة

(١) انظر بلاشير ، ترجمة القرآن ، (ص ٤٣٠) ملحوظة على الآية ١٦ من سورة الروم .

(٢) انظر زودي بارت ، تفسير القرآن ، (ص ٣٨٩) .

(٣) فرانس بول (ص ٢١٥) . (٤) محمد (ص ٤٦٤) .

عشرين هجرية؟ وسيراً على منهجه في الحلول الوسطى وحتى لا يكون له علاقة ببقية المستشرقين المنافقين فإن مونتجومري وات أمام نصوص القرآن والأحاديث التي تشهد على أن النبي حدد الصلوات الخمس اليومية ومع اعترافه بأن هذه النصوص صحيحة يقول مع ذلك : « من المحتمل أنه منذ السنوات الأخيرة في حياة النبي لم تكن الصلوات الخمس يتلزم بها التزاماً دائمًا »^(١) إذن فهو يعترف أن عدد الصلوات التي في حياة النبي كان خمساً ولكن من أي مصدر أو مرجع يزعم أن للالتزام بأداء هذه الصلوات إذاً لم يكن محتملاً خلال السنوات الأخيرة من حياة النبي؟ أنه لم يعطنا هنا أي مرجع نرجع إليه كما أنها لم تجد أي إشارة بهذا المعنى في المصادر التي بين أيدينا فهذا محض افتراض لا أساس له من جانب وات .

ماهية صلاة المسلمين

بعد هذا العرض لأراء المستشرقين نرى الآن على أي شيء ترتكز ماهية صلاة المسلمين وفي أي شيء تختلف تماماً عن الصلاة اليهودية والصلاحة المسيحية .

١ - نلاحظ أولاً أنه من الخطأ التأكيد على أن هناك فريضة عند اليهود تفرض عليهم أن يؤدوا ثلاثة صلوات في اليوم فالصلاحة ثلاثة مرات في اليوم قد ذكرت عرضاً دون أن تكون إلزاماً وبقينا شعائرياً وقد ذكرت في موضعين :

(أ) المذكور ٥٥ آية ١٨ « في المساء وفي الصباح وفي الظهر أشتكى وأنوح » .

(ب) سفر دنيال إصلاح ٦ آية ١١ « ودنيال حينما علم أن الأمر كتب دخل فنزل وكانت نوافذه مفتوحة في حجرته العليا فاتجه إلى أورشليم وكان يركع على ركبته ثلاثة مرات في اليوم يدعوا ربها ويجلده » من الواضح أن هذين النصين لا يتحدثان على أي قاعدة دينية ولا أي شعيرة يهودية ولم تجد في العهد القديم أي شعيرة تأمر بالصلاحة ثلاثة مرات في اليوم عند اليهود

من المؤكد أنه حتى الأيام الأخيرة من العهد الأول لم تكن أي صلاة قد فرضت ولا حتى أمر عام للصلاحة عند اليهود وفي سفر الشفاعة إصلاح ٢٦ من ٥ إلى ١٤ ، ١٣ ، ١٥ نجد للمرة الأولى صيغ للصلاحة تancock بمناسبة تقديم

(١) مونتجومري وات « محمد في المدينة » (ص ٣٧١)

الفاكهة والأموال وبعد ذلك أقيمت طقوس الصلوات اليهودية في المعبد وهو مكان تجمع في أيام العطلة وأيام السوق (كل يوم اثنين وثلاثاء) إذا فليس هناك حديث عن ثلات صلوات في اليوم ولكن خدمة المعبد وكانت محددة ومعرفة تعرضاً عاماً وتبدأ بصيغة (استمع يا شعب إسرائيل) يتبعها قراءة للتوراة وقراءة لأسفار الأنبياء ثم البركات يتبعها الترجمة (وهو شرح بالأرمينية لما قرئ) وتنتهي بخطبة يكون موضوعها محتوى ما كانوا بصدق قراءته .

وما عرضناه يثبت أن هؤلاء المستشرقين الذين ادعوا أن محمداً اقتبس من يهود المدينة عدد وشكل الصلاة الإسلامية لا يعرفون شيئاً عن الصلاة عند اليهود .

٢ - أصبح من العادة ترجمة كلمة صلاة بكلمة دعاء Prayer في اللغات الأوروبية ولكن هذه الترجمة غير دقيقة لأن هذه الكلمة وما يشبهها في اللغات الأوروبية معناه بالعربية دعاء وهو تمجيد الله ودعاؤه وحمده على نعمه والاعتراف بصفتنا كمخلوقات ورضوخنا المطلق لإرادة الله مالك يوم الدين وهذا ما تؤكده تماماً الفاتحة وهي أول سور القرآن والتي يجب أن يقرأ بها في كل صلاة .

وحتى نوضح الفرق الجوهرى بين هذه الفاتحة وما يسمى في المسيحية القدس الأبوى Pater Noser نقول :

القدس الأبوى	الفاتحة
آبانا الذي في السماء عرشه ، تقدس اسمك ، وتعالى مجده وتحققت إرادتك على الأرض والسماء ، امنحنا اليوم الخبز الذي نحتاجه كل يوم واعف عن خططيانا كما نعفو عن من آذونا ولا تسلمنا للغواية وقنا من الشرور : آمين .	﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وهذه هي الفروق بين الآيتين :

(١) في الفاتحة الله هو المتعالى مطلقاً أما في القدس فإن الله متعالى عن الكون ومحددة إقامته في السماء .

(ب) في الفاتحة الله هو الرحمن الرحيم بينما لا يوجد شيء من ذلك في القدس .

(ج) في الفاتحة الله هو مالك يوم الدين أما في القدس فإنه يأمر بأن يتقدس مجده وليس هناك أي كلمة عن اليوم الآخر .

(د) في الفاتحة يدعى المسلمين الله بكل خضوع وانكسار أن يساعدهم أما في القدس فإنهم يأمرون الله أن يعطيهم حبزهم اليومي .

(هـ) في الفاتحة ندعوا الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم أما في القدس فيطلبون من الله أن يحيط عنهم خطاياهم وأن يفعل مثل ما يفعلون من حط الخطايا عن المخطئين كما يأمرون الله لا يتركهم في الغواية وأن يخلصهم من الشرور إذا فأنا في القدس نحن الذين نأمر الله وهو الذي يطيعنا .

ومن هذه المقارنات يتضح أن روح الفاتحة متناقضة تماماً مع روح القدس المسيحي ويرغم هذا الاختلاف التام بين الاثنين فإننا نجد أن من المستشرفين أغبياء أكدوا أن الفاتحة مقتبسة من القدس الأبوى (١) .

٣ - وتعتمد الصلاة الإسلامية على ثلاثة أفعال قيام وركوع وسجود مع تلاوة آيات قرآنية في القيام وتسبيح الله في الركوع والسجود .

وبرغم الجهود الحثيثة من جانب المستشرفين (٢) ليغتروا على واحد من هذه الأركان عند العرب في الجاهلية أو في القصص التوراتية أو في النسخ المسيحية فإنه لا أحد منهم استطاع أن يثبت أن أركان الصلاة الإسلامية الثلاثة توجد مجتمعة في أي صلاة في الأديان الأخرى وكانت محاولتهم عبثية ومثيرة للسخرية .

ب - الصيام

وننتقل الآن إلى فريضة أخرى من فرائض الإسلام وهي الصوم : ويرى أن النبي أمر المسلمين في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بصيام يوم عاشوراء وهو العاشر من المحرم .

(١) انظر لمزيد من التفاصيل كتابنا دفاع عن القرآن ضد منتقديه صفحات ١١٥ إلى ١١٨ باريس ١٩٨٩ م .

(٢) انظر على سبيل المثال جودفروا ديموبين ، محمد ، (ص ٤٧٢ ، ٤٧٣) .

وقد زعم كاتانى (١) ومستشارون آخرون «أن فى هذا تشبهها بصيام اليهود» .

(١) ولكن هذا يقتضى أن الصيام لم يمارسه المسلمون أبداً خلال إقامة النبي فى مكة ولكن هناك حديث مسند إلى عائشة يقول : إن محمداً أمر أتباعه خلال إقامته فى مكة بصوم العاشر من المحرم (٢) وهناك عدد من الأحاديث غير هذا الحديث .

(ب) العاشر من تشرين السنة اليهودية والذى يقابل السنة الثانية للهجرة لا يتفق مع العاشر من المحرم من السنة الثانية للهجرة (٣) إذا كيف أمكن لمحمد إن كان قد أراد أن يقلد اليهود أن يختار يوماً غير يوم اليهود ؟ ومن المعروف أن العاشر من تشرين (هو الشهر السابع من السنة اليهودية) هو يوم الغفران ويجب صيامه عند اليهود .

صيام رمضان :

في الواقع إن صيام رمضان كان موجوداً عند العرب قبل الإسلام وأن محمداً خلال إقامته فى مكة كان يحافظ على هذه الشعيرة العربية قبل الإسلام .

ولكن بعد الهجرة إلى المدينة وفي شعبان من السنة الثانية للهجرة أمر بصيام شهر رمضان وهذه هي الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الأمر :

﴿إِيَّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِعِلْمٍ
تَقَوْنُ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدْةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى وَعَلَى
الَّذِينَ يَطْغِيُونَهُ فَدِيَةٌ طَعَامٌ مَسْكِينٌ فَمَنْ تَطْعُونَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبِيَنَاتٍ مِنَ
الْهُدَىٰ وَالْفَرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمِّمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدْةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يَرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلَتَكْبِرُوا
اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلِعِلْمٍ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة البقرة الآيات من ١٨٣ إلى ١٨٥).

وبعد أن فرض صيام شهر رمضان كله تناهى صيام يوم عاشوراء ولم يعد إجبارياً (٤) ويشرح كاتانى (٥) هذا التغير فى الصيام من يوم واحد مثل صيام

(١) حوليات الإسلام ج ١ (ص ٤٢١) .

(٢) صحيح البخارى ج ١ (ص ٤٧٣) طبعة كربيل ، لبنان (١٨٦٢) م .

(٣) والعاشر من المحرم يوافق الخامس عشر من يوليو سنة ٦٢٣ م و ١٠ تشرين يقع بين يوم ٢٠ سبتمبر و ١٠ أكتوبر سنة ٢٢٣ .

(٤) انظر الطبرى ج ١ (ص ١٢٨١) . (٥) حوليات الإسلام ج ١ (ص ٤٧١) .

اليهود إلى صيام شهر كامل هذا التغير يعود إلى سببين : الأول لأنه لو كان على العرب أن يصوموا مثل اليهود لكان عليهم أن يتبعوا التقويم اليهودي أو يسألوا اليهود كل سنة في أي يوم يوافق يوم عاشوراء ولكن اعتماد التقويم اليهودي كان مستحيلاً ، لأنه كان للعرب شهورهم الخاصة والتي توافق أعيادهم السنوية وتوافق الأسواق في مختلف أنحاء الجزيرة العربية الوثنية ، وإذا لم يحن التقويم اليهودي فإن المسلمين من ناحية أخرى سوف يكونون في وضع متذمّن أمام اليهود الذين كان يمكن أن يكونوا وحدهم في وضع يسمح لهم أن يحدّدوا بدقة بداية السنة الوثنية ، « اليهود » (شبرنجر ، ج ٣ ص ٥٤ ملحوظة) ولم يكن محمد يستطيع أن يصل بخضوعه لشاعر اليهود إلى هذا الحد ويشعر إلى أي مدى يمكن أن يقوم بإصلاحاته والسبب الثاني لصيام شهر كامل بالنسبة للمسلمين منفصلين عن المسيحيين واليهود كان هو نفس السبب الذي يعرفه محمد وحده والذي دفعه إلى تحويل القبلة وهذا دليل جديد على عملية تحرير الإسلام الناشيء من المفاهيم التقليدية للحضارة اليهودية والدين اليهودي والذي جعله الآن في تماسك معين مع « قوانين الماضي »

وهذه خرافات وكلام غير متماسك فالقول بأن محمداً غير الصيام من صيام يوم إلى صيام ثلاثة أيام حتى لا يضطر لاعتماد التقويم اليهودي هل يمكن أن يكون منطق رجل سليم العقل ؟ هل هناك أي علاقة من أي نوع بين الأمرين ولكن كاتاني لأنه غارق في البحث في قضيته المتعلقة باقتباس محمد الصيام من اليهود فإنه ومن على شاكلته مثل شبرنجر لا يمكن إلا أن يخرفو .

والحقيقة أنه ليس هناك أية علاقة بين الصيام اليهودي والصيام الإسلامي وهذه هي الفروق

(أ) الصيام اليهودي محدد بخمسة أيام بعيدة جداً عن بعضها البعض وهي يوم الغفران (يوم كيبور) ويوم العاشر من تשרين ويوم التاسع من آب واليوم الموافق بصيحة تدبر المعبد الأول والثاني ويوم السابع عشر من تموز إحياءً لذكرى سقوط جدران أورشليم في زمن المعبد الأول وسقوط هذه الجدران على يد نبوس من سنة ٧ ميلادية ويوم العاشر من توت ذكرى جلوس فايوشود ونور ملك بابليون على عرش أورشليم (٢ سفر الملوك ٢٥ - ١ - ٢) (سفر التواح ٥٢ ، ٤) ،

(سفر حزقيال ٢٤ من ١ إلى ٢) والثالث عشر من آزار وهو اليوم السابق على يوم بوريم (سفر رستر ٤ ١٦٠٠) ويستمر الصيام أربعاً وعشرين ساعة وعلى العكس من ذلك يستمر صيام المسلمين شهراً كاملاً .

(ب) وفي يوم صومهم يزق اليهود ملابسهم ويلبسون ملابس من الخيش (سفر الملوك ٢١ - ٢٧٠) جوء ابيل (٣٠ - ٢)، المزامير (٣٥ : ١٣) ، چوریت (٤ : ١٠) ، (٨ : ٥) ويضعون الرماد أو الطين على رءوسهم (إسحاق ٥:٥٨) نحر مباح ٩:١) ويزورون المقابر كما أنه من المحرم عليهم أن يتقلوا . وليس في الصيام الإسلامي أى من هذا .

(ج) وفي أثناء صيام اليهود يمتنع القيام بأى عمل (تآن ٦:٦ ، ٦٤) .

وعلى العكس من ذلك في أثناء الصيام الإسلامي لا يسمح فقط بالعمل بل يحث عليه بشدة أما الصوم عند المسيحية فليس له أى علاقه لا مع الصوم اليهودي ولا مع الصوم الإسلامي وليس من المفید أن تتسع في ذلك الأمر هنا ويكفى أن نلاحظ أن الصوم المسيحي والمسمى الصوم الكبير :

١ - يتراوح بين ٣٦ يوماً وستة أسابيع .

٢ - يشتمل بشكل بدائي على وجبة واحدة في اليوم يتتنوع وقتها بين ١١ صباحاً و ٣ ظهراً .

٣ - لا يحرم في هذا الصوم إلا لحم الحيوانات وأغلب الناس يأكلون البيض ومنتجات الألبان (انظر سقراط ، التاريخ الكنسي ، ٥ ، ٢٢) ولم تعد الخمر التي حرمت في القرنين الثالث والخامس محرمة « وبداية من القرن السابع والثامن أصبح البيض واللبن والجبن والسمك تشكل وجبات الصوم الكبير في أنحاء كثيرة دون أن نجد فيها أى شىء من التحريرم » (فاكاندرد ، قاموس اللاهوت الكاثوليكي) ج ٢ رقم (١٧٣٦) وكل المشروبات مباحة أثناء الصوم .

٤ - بينما الوجبة الرئيسية وقانون الصوم المسيحي تسمح بتناول بعض الأطعمة وهذا ما يسمى الصوم الصغير ووجبة المساء الصغيرة (انظر القانون الكنسي فقرة ١٢٥ ، ١) وهكذا نرى بوضوح أن الصوم المسيحي لا يعد صوماً بالمعنى الحقيقي (أى الامتناع عن كل طعام وشراب) وليس له من الصوم إلا الاسم إذاً فمن العبث أن نقول مع جريم وشبرنخ أن فكرة صوم رمضان جاءت إلى محمد من

الصوم الكبير عند المسيحيين والذى يوافق سنة ٦٢٤ ميلادية مع صوم رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

وقد اتبع نفس العبث مستشرون آخرون حيث حاولوا أن يثبتوا زعمهم الاقتباس من المانويين أو من الحارثيين . فيما يتعلق بالمانويين قبل أنهم يصومون ثلاثة أيام حين يبدأ القمر هلاله وحين تكون الشمس في برج الحمل . وبعد أن يمضى ثمانية أيام من الشهر ويقطعون صيامهم عند غروب الشمس ^(١) أما الحارثيين فيقال أنهم يصومون ثلاثة أيام يوماً بدءاً من آذار تمجيداً للقمر .

وقد لخص فرانس بول هذه القضية حيث قال في هذا الصدد «كم من المانويين كان يوجد في الجزيرة العربية قبل زمن محمد؟ هذا هو الأمر محل الشك ومحاولة يعقوب لإثبات أن رمضان في السنة الأولى من الهجرة يتفق مع شهر آذار (مارس) وبالتالي يوضح تبعية الحارثيين التي تضادها المصادر الإسلامية التي تؤكد أن الصيام في شهر رمضان قد بدء في السنة الثانية من الهجرة ^(٢)

ولكنه لم يدحض قضية شبرنجر وجريم إلا أن بقيت قضية أخرى أكثر عثثاً قال بها فنسنك وهي أن رمضان هو يوم السنة الجديدة .. ولكن لما لاحظ أن هذا لا يشرح فرضية الصيام لمدة ثلاثة أيام يوماً طوال النهار وقع فرانس بول في نفس القضية التي ما فتئ يدحضها حيث زعم أن « هذا السلوك ربما يعزى إلى تقليد عربي وحيد جاء من تأثير المانويين أو من أي ملة أخرى » ^(٣)

ج - الحج

وهنا أيضاً أطلق المستشرون العنان لخيالهم السقيم ويمكن أن نقسمهم في هذا الصدد إلى طائفتين ^(٤) أولئك الذين أرجعوا الحج إلى مصدر يهودي ^(٥) وأولئك الذين وجدوا فيه إحياءً لشاعر وثنية قبل الإسلام .

(أ) الطائفة الأولى :

ويأتي على رأس هذه الطائفة « راين هرديت دودي » في كتابه « الإسرائييليون في مكة »

(١) انظر ابن هشام والفهرست لابن النديم طبعة فلوجل (ص ٣٣٣) .

(٢) فرانس بول حياة محمد (ص ٢٢٧) . (٣) فرانس بول « حياة محمد » (ص ٢٢١) .

(٤) أ - ز - هو تسمى الكلام الخفي والأفعال عند مينا السلسلة الرابعة ، ١٤٥ .

(٥) مقال بعنوان الحجيج موسوعة الإسلام ج ١ ٢ مج ٣ (ص ٣٣ ، ٣٤) .

(وقد ظهر هذا الكتاب بالهولندية والألمانية) وقد ذهب إلى أبعد حد حيث زعم أن الحج يعود إلى مصدر يهودي ٠

وقد أتى هو تسمى الذي قرن بين الحج الإسلامي والأفعال اليهودية وقارن بين الوقوف بعرفة ووقف اليهود على طور سيناء ويجب أن يستعد اليهود لهذا الوقوف بالامتناع عن جميع العلاقات الجنسية (سفر الخروج ١٩ ، ١٥) وكذلك بغسل ثيابهم (الخروج ٩ ، ١٠ ، ١٤) وكذلك المسلمين يمتنعون عن العلاقات الجنسية ويلبسون ملابس مقدسة وهي ملابس الإحرام ويرمون إيليس بجمرات في منى وحسب رأى هو تسماه فإنهم يقصدون أصلاً شيطان الشمس .

وأراد فنسنث أن يجد في هذا الرجم ما يشبه يوم التكfir كما أن الكبش « الذي رماه عذرائيل من أعلى صخرة يعود بسهولة في شكل شيطان الشمس » كما أنه رأى في التروية (فعلاً يعتمد على إسالة مياه النبع المقدس في سيلو) ويصل فنسنث بمعزمه الساخرة إلى قمتها حيث يقول أيضاً « ويجب أيضاً أن نلاحظ أنه في يوم التكfir يضاء المعبد وأيضاً في موسم الحج تضاء المساجد بعرفات والمزدلفة » !

ونرى الآن أهمية هذه الآراء :

أما عن قضية دودي فإن فنسنث نفسه يعترف « أنها يمكن أن تعتبر منهدمة من أساسها من قبل سنك هرجر وروتج في كتابه « الأعياد في مكة » .

وما ي قوله هو تسماه عن موضوع الوقوف بعرفة شئ عبئي أولاً لأن وقوف الإسرائيelin بجبل سيناء هدفه تذكر صعود موسى على جبل سيناء ولقاءه مع يوا와 واستقباله لألواح الشريعة ولا ينطبق أى من هذا على الوقوف بجبل عرفة . ومن ناحيه أخرى فإن الامتناع عن العلاقات الجنسية في كل الشعائر الدينية لكل الأديان ليس خاصاً باليهود ومن ناحية ثالثة فإن الإحرام المطلوب من الحاج المسلم هو ملابس مخصصة للحج وليست ملابس لكل الأيام تغسل في مناسبة واحدة كما هو الحال عند اليهود خلال وقوفهم بجبل سيناء .

(١) ر . هو تسمى « الكلام الخفي والأفعال عن مينا » السلسلة الرابعة ، (١٤٥) .

(٢) مقال بعنوان الحجيج موسوعة الإسلام ج ٢٠ مج ٣ (ص ٣٣ ، ٣٤) .

باختصار ليس هناك أى شبه بين الوقوف بعرفة وهو ركن أساسى فى الحج حيث يقول النبي « الحج عرفة » إذا فالحج يتوقف أساساً على الوقوف بعرفة بينما يقف الإسرائيليون بجبل سينا

أما تفسيره رجم إبليس فى منى فهو تفسير من ضمن تفسيرات كثيرة وكلها عديمة القيمة وعلى سبيل المثال فإن فيلوتون الذى « وضع رجم الشيطان والتعبير القرأنى الصفا والمروة فى علاقة ثعبان كان يقيم ضربحاً في الكعبة » .

وكذلك شوكان الذى يزعم أن الرجم هو مثال على وضع الأحجار على الطريق القدسى للحج ليمعن أهل مكة من أن يفكوا رموزه وهذان الرأيان قد صخرهما هو تسامه بما فيه الكفاية

ونناقض الآن هذيان فسنتك

(أ) ليس هناك أى وجه شبه بين رجم إبليس فى الحج ورمى كبش الفداء .

(ب) عازيل (انظر سفر اللاويين ١٦) هو كبش يرمز إلى خطاب الشعب اليهودى وفي يوم كيبور العاشر من تשרين يطلق فى الصحراء أو يرمى بهم من أعلى جبل (يوماً ٦٧ ، سفرة ، آزار ، ٢ ترجمة ، اللاويين ، ١٥ ، ١٠) وفي كتاب التنور (١٣) يوصف عازيل بأنه زعيم المتمردين الأقوية فى المعبد الذى سبق عصر الفيضان . وفي التلمود عازيل هو اسم جبل أو إنسان رمى به فى الصحراء حيث يرمى بكبش الفداء وهناك مفهوم ما تكون عن عازيل عند اليهود ولم يكن قد اعتبر أبداً شيطان الشمس كما زعم فينسينك .

(ج) القول بأن إضاءة المساجد في عرفات والمزدلفة هو تشبه بإضاءة المعبد في عيد التكfir هو السفاهة بعينها فمعنى هذا أن إضاءة كنيسة أو معبد أو مسجد هي تشبه بإضاءة معبد اليهود كما لو كان يجب أن تقنع أى إضاءة في أى دار من دور العبادة خلال الليل حتى لا تفهم بالتشبه إلى اليهود وحينما يرى فينسينك يفكر هكذا نعتقد أنه يحلم !

(ب) الطائفة الثانية :

وأما قضية الذين وجدوا في شعائر الحج الإسلامي إحياءً لتقالييد وثنية من قبل الإسلام فهى قضية مستساغة وكل المصادر الإسلامية تعرف بذلك (انظر بالأخص ابن هشام ص ٧٦ - ٧٧) ، ولكن الإسلام أدخل عليها تعديلات مهمة .

١ - قبل الإسلام كانت الإفاضة من عرفات عند غروب الشمس وفي الإسلام يجب أن يكون بعد غروب الشمس بوقت قصير كذلك فإن الإفاضة من المزدلفة كانت تبدأ قبل الإسلام من طلوع الشمس وفي الإسلام يجب أن تكون قبل طلوع الشمس وهو وقت الوقوف بعرفة ومن خلال هذا الفرق يتضح أن الإسلام حرص على أن يتحاشى لحظة غروب الشمس وشروطها بما يستبعد أي شك في عبادة الشمس .

٢ - كان الغوث بن مر بن عاد بن طقان بن إلياس بن معز هو الذي يسمح بالحج للناس ليحجوا من عرفات ثم كان خلفاؤه يسمحون للناس بذلك وتبعه خلفاؤه وكان هو ومن بعده يسمون الصوفة . والصوفة هم الذين يدفعون الناس من عرفات ويسمحون لها حين ينطلق من مناخ يوم النحر عندما يأتون لرمي الجamar كانوا لا يستطيعون أن يرجموا إلا بعد أن يرجم الصوفة وعندما كان يأتיהם الناس على عجل ويقولون لهم قوموا وارجموا حتى نرجم معكم يقولون لا والله انتظروا حتى تتحرف الشمس وعندما يتهون من الرجم ويريدون العودة إلى منى كان الصوفة يمنعونهم من الإفاضة قبلهم ^(١) وعندما هلك الصوفة انتقلت القيادة إلى الصوفة بن الحارث من قبيلةبني سعد زيد بن منا بن تميم . وكانت الإفاضة بين يدي عدوان الذين ورثوها زعيم بعد زعيم حتى الإسلام . وبعد فتح مكة كان النبي هو الذي يأمر بالحج وفي العام التاسع للهجرة كان أبو بكر ش كان النبي من جديد في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة مارس ٦٣٢ ميلادية ثم كان الخلفاء الأربعه هم الذين ينظمون الحج .

٣ - ومكة هي نقطة الوصول . ويلاحظ فلهاوزن أن هذا التصحيح كان هدفه توثيق صلة الحاج بمكة والكعبة ^(٢) وفي ملحوظاته يقول : « إن مكة في الحقيقة لا تفعل شيئاً بالحج لأنه يمكن أن نخلص إلى أن إجازة الحج كان قد عهد بها إلى تميم وليس إلى قريش » .

٤ - قبل فتح مكة على يد محمد في السنة الثامنة للهجرة ٦٣٠ ميلادية كان هناك كثير من الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية وربما كان لكل منها عيدها

(١) ابن هشام (ص ٧٦ ، ٧٧) .

(٢) انظر فلهاوزن (ص ٨٣) برلين (١٨٩٧) م .

السنوي الخاص بها مع حجج كبرى إليه وتهليل له وربما كانت المشاركة في هذا العيد محدودة ولكنها كانت منتشرة على نطاق واسع وعلى سبيل المثال في أماكن مثل جوراش وطابا لـ كانت هناك مظاهر السلام الإلهي في الأشهر الحرم وكان الاحتفال أيضاً في نفس الوقت ولم يكن الاحتفال في مكان واحد فقط وربما كان من التسع بـ مكان الاعتقاد بأن الحكايات . يركوب ونونوسوس وحتى ديودور والمتعلقة بأزمنة وأماكن الأعياد العربية ترتبط بشكل صارم بالحج إلى مكة وحتى اسم الشهور آجاسيل يابسي عند إيفانوس (وهو الاحتفال بالعيد حول البيت) لا تدل بالضرورة على السجع بـ مكة فمثل هذا العيد كان موجوداً عند عرب الجزيرة العربية وفي فلسطين كما كان موجوداً في أماكن أخرى بعيدة ومن المؤكد أنه قد وجد في هذه المنطقه أكثر من بيت مقدس وبالنسبة للسكان القريبين من مكة كان هناك البيت الحرام (١)

وقد وضع محمد نهاية لكل هذه الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية فيما عدا البيت الحرام بـ مكة . وهنا فالكل يجب أن يتوجهوا إليه ومن هنا تتحقق وحدة العالم الإسلامي والأمة الإسلامية جمعاء بشكل رمزي .

٥ - ويكون أن نتساءل : لماذا اختار محمد مكة دون سائر الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية ؟

وتتأتى الإجابة من جانب « سنوك هورجنوخ » Snouck Hurgronje حيث يقول في المدينة أصبح محمد أكثر اتصالاً بـ مكة التي عاش فيها سنوات الأخيرة قبل هجرته نتيجة الاضطهاد الذي تعرض له من قبل أهلها وكان حيـثـنـدـ لـ الأماكن التي ترعرع فيها بالإضافة إلى أسباب سياسية وأسباب أخرى كل ذلك جعله يبحث في مكة عن وسيلة تعيد الحج إلى الإسلام بكل ما يتعلق بالحج . ومن اللحظة التي علم فيها أن إبراهيم قد اصطحب إسماعيل وأمه إلى الجزيرة العربية لم يكن هناك أى سبب يمنعهم من أن يأتوا إلى مكة ويبنوا فيها الكعبة بأمر الله لأن إبراهيم أصبح بالنسبة لـ محمد مصدر إلهام والنموذج الذي يحتذى وقد علم محمد أن التوراة تجعل من إبراهيم جداً للعرب (المرجع السابق)

(١) فلهـزـنـ السـابـقـ (صـ ٨٥)

٦ - قبل الإسلام لم يكن الحج إلى عرفة شعيرة محددة وإنما كان محمد هو الذي حدد الشعائر بعد فتح مكة في رمضان سنة ٨ هجرية أما أثناء الحج في هذا العام أو ربياً في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة .

العناصر المشتركة بين الحج قبل الإسلام والحج الإسلامي

وبعد أن أوضحتنا هذه الاختلافات يجب علينا أن نذكر العناصر المشتركة بين الحج قبل الإسلام والحج الإسلامي .

١ - الطواف :

والعنصر الأساسي في الحج هو الطواف أي القيام بالدوران حول البيت الحرام ويكون الطواف بأقدام حافية حاملين النعال في أيديهم (انظر ابن هشام ص ٨٨٤ ، ١ ، ٤) .

وكانوا يقومون بالطواف قبل الإسلام وهم عرايا تماماً وهذه العادة أكدتها القرآن (سورة الأعراف من ٢٦ إلى ٣٩) ، ولم يكن الطواف مقتصرًا على الكعبة (انظر ابن هشام ص ٩٢١) ولكن كان يشمل كل الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية عامة .

٢ - الرجم :

وهو قذف حجارة صغيرة وقد كان موجوداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام ويشهد على ذلك بيت للأعشى . وفي الإسلام كان الرجم في اليوم العاشر من ذي الحجة والأيام الثلاثة التالية .

٣ - تقبيل الحجر الأسود :

يمثل تقبيل الحجر الأسود شعيرة من شعائر الحج وتبدأ الدورات السبعة حول الكعبة بدءاً من الحجر الأسود الذي يقبله الحاج ولكن النبي في عمرة سنة سبعة هجرية (٦٢٩) وكان يركب ناقته اكتفى بأن يلمس الحجر الأسود بطرف عصاه وقد أصبحت هذه شعيرة وعندما يكون الحاج راكباً دابة ولا يمنعه ركبها من الطواف يفعل ذلك والحجر الأسود هو صخرة من البارلت .

ويرى أن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني قال أمام الحجر الأسود : « لولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

ويختلف الحجر الأسود في الكعبة لم يرو أن العرب كانوا يقبلون الأصنام فقد جرت عادتهم فقط قبل الإسلام على مداعبة الصنم بالأيدي^(١).

ويقول فلهاؤزن أن قدسيّة الكعبة لم تأت من أن فيها صنم فلقد كان الحجر الأسود مشرعاً حراماً وظل كذلك حتى بعد أن رسمت صورة سطحية له ووضعت في داخل الكعبة وقد كانت الكعبة فقط عبارة عن امتداد فيسيح لهذا الحجر وشاركته الحرمة لأنّه وضع فيها وأخذت نفس سنته المقدسة . إذا فالكعبة لم تكن فقط موقعاً لصنم ولكنها هي نفسها كانت صنماً من الأحجار العظيمة المقدسة^٢.

٤ - السعي بين الصفا والمروة :

الصفا والمروة هما جبلان يعد كل منهما مشرعاً حراماً وكل من كلمة الصفا والمروة تعني حجر ويسعى الحاج بينهما عدة مرات ويتوقف عن كل منهما ويسمى الشيء بينهما المسعي وهذه الشعيرة تسمى السعي بين الصفا والمروة . وفي سنة ٧ هجرية ذبح الرسول أثناء عمرته الأضحية في المروة .

٥ - الحرم المكي :

والمنطقة المحيطة بمكة تعتبر حرم أي مكان محرم ويتنبع في نطاق هذا الحرم قطع أي شجرة أو شجيرة أو أن يسفك دم أو يصطاد حيوانات ولذلك فإن اليمام والغزلان يشعرون بأمان تام^(٢) وتوضح حدود الحرم بأحجار موضوعة على آخر الحدود^(٢)

٦ - الأضحية :

وستكلم عنها فيما بعد بالتفصيل

الإسلام يضفي على الحاج معنى روحياً خالصاً

ولكن مع اعتماد الإسلام معظم شعائر الوثنى قبله فإن الإسلام أضفى عليه روحًا مختلفه فقد غير تماماً مضمون الحجّ بما كان عليه قبل الإسلام .

(١) بينما دخل محمد الكعبة عام فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة كسر وأمر بتكسير أوثان الكعبة وكان عددها حوالي ٣٦٠ صنم ومحى ما

٢ انظر الأغاني ج٦ (ص ٢ ، ١ ، ١٤) .

(١) الواقدي (ص ٣٥) .

(٢) الواقدي (ص ٣٤١) ، البلاذري ، (ص ٥٥) .

كان من صور تمثل معتقدات العهد القديم ^(١) وفي كل مرة كان يهزم قبيلة من القبائل كان يدمر صنها وهكذا لم يبق أى صنم في الجزيرة العربية .

ومن وقتها لم تعد هناك أى شعيرة من شعائر الحج مخصصة لأى صنم ولكن كل الشعائر كانت خالصة لله الإله الواحد الأحد وهذا ما توضحه الآيات القرآنية الآتية :

(سورة البقرة من ١٩٨ إلى ٢٠٠) ﴿فَإِذَا أَفْضَلْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرُعِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هُدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قِبَلِهِ لِمَنِ الْضَّالِّينَ ثُمَّ أَفْيِضُوا مِنْ حِلَالٍ أَفَأَضَلُّ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنِاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذَكْرِكُمْ أَبْاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ .

ويردد الحاج ليك يا ربى منذ إحرامه وحتى وصوله إلى منى وهذه هي التلبية وكل شعائر الحاج تؤدى إلى إرضاء الله عز وجل .

(ب) ويفسر ذلك على النحو التالي .

١ - الرجم يستهدف إبليس العدو اللدود للبشر .

٢ - السعي بين الصفا والمروة يهدف إلى تخلص هذين المشعرين من الوثنية التي كانت تعتبرهما مكانين للعبادة وإدخالهما ضمن الطواف حول الكعبة وهما شعيرة واحدة في الإسلام .

٣ - ذبح الهدى في السلام له معنى مختلف عما كان عند العرب قبل الإسلام .

قبل الإسلام كان العرب يقدمون لآلهتهم دماء الحيوانات التي يذبحونها قرباناً للآلهة وكانوا يسقون الدماء أمام الصنم ويلطخون الصنم بهذا الدم وكانوا يلطخون أيضاً الحجر الأسود بالدم وكذلك جدران الكعبة وصخرة المروة وكانت الأضحيات إما من الإبل إذا كان الشخص ثرياً وإما من الماشية إذا كان الشخص فقيراً وقد ذكرت أمثلة على الكرم المبالغ فيه فكان هناك ثلاثة أمراء من أبناء تبع

(١) انظر البخاري (٤٨ ، ٦٤) ابن هشام (ص ٨٢١ ، ٨٢٢) وفي يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت الحرام فوجد صوراً للملائكة ووجد إبراهيم مصورةً يستقسم بالأزلام فأمر بطممس هذه الصور .

اليمني ذبحوا مائة من الإبل في الحج وتركوا هيأكل الذبائح في كل شعاب الجبال ^(١).

ومن بين القراءين كان هناك إبل يخضون بها الآلهة ويتركونها ترعى بحرية دون أن يمسسها أحد بسوء وقد حدد القرآن منها أربعة أنواع هي البحيرة والسائلة والوصيلة والحامى وقد أدان القرآن هذه العادة.

﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثراهم لا يعقلون ﴾ (المائدة آية ١٠٣) ولم يتفق على تفسير هذه الأسماء اي من المفسرين (عن سعيد بن المسيب) أن البحيرة هي أئش البعير حين يترك لبنتها في ضرعها ويكتنح حلبتها والسائلة هي الناقة التي تركت للآلهة والتي لا يجوز أن تحمل الأثقال . والوصيلة هي الناقة التي لا تلد إلا إناثاً وكانوا يتركونها للآلهة . والحامى هو فحل الإبل الذي ينزو على البعير في وقت معين ثم بعد ذلك لا يحمل الأثقال وإنما يترك للآلهة ولكن ابن إسحاق يقول إن: « البحيرة هي بنت السائبة . والسائلة هي الناقة التي ولدت عشر نوق ليس بينهن ذكر ولذلك يتركونها حرة أى : لا تركب ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ولا يشرب لبنها إلا إذا كان نصيف وإذا ولدت ناقة أئش بعد ذلك قطعت أذنها وتركت مع أمها ولا يحمل على ظهرها ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها إلى نصيف مثلها مثل أمها كما أن الشاة التي تلد عشر شياة إناثاً متتابعات في خمس بظور ليس بينهن كبس ذكر تسمى أيضاً سائبة والحامى هو الفحل الذي يستولد عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ولذلك لا يحمل عليه ولا يجز صوفه ويترك بين الإناث اللائني ينزو عليهن وليس له فائدة غير ذلك ويقول ابن هشام أنه كان عند العرب شيء مختلف عما قاله ابن إسحاق إلا ما يخص الحامى فهو عند العرب كما فسره ابن إسحاق لأن البحيرة عند العرب هي الناقة التي تقطع أذنها ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ولا يشرب لبنها إلا نصيف أو على وجه الصدقة وكانوا يتركونها للآلهتهم . والسائلة هي الشاة ينذر الرجل أن يتركها حرة إذا شفي من مرض أو نجح في تجارة أو في عمل كان يريده فإذا حدث ذلك يترك ناقة أو بعيراً بين بعيره لأحد آلهتهم وتكون حرة في أن ترعى ولا يجوز لأحد أن

(١) الآزارقى ، أخبار مكة ، ٢١ (ص ٦٠) ط فوستن فيلد ، ليزج (١٣٥٨) .

يستعملها والوصيلة هي الناقة التي تلد أنها تؤمن في كل حمل ويترك صاحبها للآلهة الإناث ويحتفظ هو بالذكر وهي التي تكون أنها قد ولدتها مع ذكر في حمل واحد وهذا ما أخبرني به يونس وأخرون يختلف ما قاله أحدهما عن ما قاله الآخر (١) .

وقد أدان القرآن هذه العادات في قوله تعالى :

- ١ - ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ (المائدة آية ١٠٣) .
- ٢ - ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سبّجزيهم وصفهم ﴾ (الأنعام آية ١٣٩) .
- ٣ - ﴿ قل أرءيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحللاً قل الله أذن لكم أم على الله تفتررون ﴾ (سورة يونس آية ٥٩) .

وكان هناك أيضاً عاداتان في هذا الصدد وهمما الإغلاق والتference فعندما يصل عدد الإبل إلى مائة يكون البعير المائة متروكاً لا يحمل عليه ويسمى الإغلاق أما حين يصل العدد ألفاً فإنه يفتقنون عين فحل البعير ويسمى تفقيه أو تعمية (٢) .

أنواع الأضحية

بخلاف الماشية والماعز والإبل والبقر كان العرب قبل الإسلام يقدمون أضحية من البشر إلى دوما في زمن يورفيديوس وفي كل عام كانوا يذبحون رجلاً ويديفونه تحت الذبح وكان الملك المنذر ملك الحيرة قد ذبح ابن الملك وأربعينات من المتدينات اللائي أسرهن وقدمهن إلى العزى كما كان العربي ينذر أن يذبح ولده أن يتحقق هذا أو ذاك مما يريد، وأوضح مثال على هذا النوع من النذر هو نذر عبد المطلب ابن هاشم جد النبي محمد حين نذر أن يذبح لهيل أحد أولاده إن بلغوا عشرًا ولما بلغ أبناء عبد المطلب عشرة واستطاعوا أن يمنعوه . قرر أن يذبح أحد أولاده حسبما تخرج القرعة فخرجت القرعة على عبد الله الذي أصبح والد النبي ولكن أهل مكة رجوا عبد المطلب أن يستشير عرافة لعلها تجد له مخرجاً آخر وقد أشارت عليه هذه العرافة أن يذبح مائة من الإبل بدل عبد الله (٣) .

(١) ابن هشام (ص ٥٧ - ٥٨) .

(٢) انظر ابن الأثير ج ١ ، (٤٦٠) وانظر أيضاً لسان العرب لابن منظور

(٣) انظر القصة بالتفصيل عند ابن هشام من (ص ٩٧ إلى ١)

وبالطبع فإن الإسلام حرم كل تضحيه بشرية وتنحصر الأضحية تحديداً في الحيوانات الآتية الإبل والبقر والغنم والماعز والحد الأدنى هو أن تكون الشاة لها عشرة أشهر وأن يكون البعير أو البقر له سنة على الأقل وتكون الأضحية في عيد الأضحى في منى وفي الأماكن الأخرى في مكة هذا فيما يتعلق بالحجيج أما بالنسبة للمسلمين في بقية أنحاء العالم فإن الأضحية - وهي عادة من الغنم - تذبح في اليوم العاشر من ذي الحجة أي أول أيام عيد الأضحى .

ويجب أن تكون الأضحية حالية من كل العيوب . فلا يجوز أن تكون هزيلة ولا عمياء ولا عوراء ولا جرباء ولا عرجاء ^(١) وهذه قاعدة عامة في كل الأديان ولا تختلف الأديان في هذه النقطة إلا في بعض التفاصيل ، ففي اليهودية مثلاً يعد من عيوب الحيوان الذي يضحى به أن يكون أعمى أو كسيح أو مشوه أو مصاب بالشلل أو بالجرب أو بالرطوبة » أو عنده عضو طويل جداً أو قصير جداً أو عنده الخصيتان مقرونتين أو مسحوقتين أو مقطوعتين ^(٢) .

وكما قلنا منذ قليل فإنه يمكن أن يضحى بالجمل وهذا أفضل ما يضحى به الحاج وذلك على عكس الديانة اليهودية حيث لا يجوز أكل الجمل ولا التضحي به .

أما الغزلان فهي وإن كان اليهود يأكلوها إلا أنها لا يجوز التضحي بها ^(٣) . وفي الإسلام يمكن أن يستفيد المضحى وأسرته من لحم الذبيحة ويعطى منها جزءاً للفقراء وتشهد بذلك الآيات التالية من سورة الحج

﴿ وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهُدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (سورة الحج آية ٢٧ ، ٢٨) .

﴿ وَالْبَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾

(١) انظر ابن رشد . بداية المجتهد ونهاية المقتضى ، ج ١ (ص ٢٥٥) ، القاهرة (١٢٣٥) هجرية)

(٢) انظر سفر اللاويين إصلاح ، من ٢٢ إلى ٢٤

(٣) سفر التثنية ١٢ ١٥

صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرواها لكم
لعلكم تشكرون ﴿٣٦﴾ (سورة الحج آية ٣٦)

وفي اليهودية يجب «أن تستهلك الذبيحة في نفس اليوم الذي ذبحت فيه ولا
يجوز أن يتركوا منها شيئاً لليوم التالي»^(١) والحرب الأعظم هو الذي يستفيد منها.

الفرق بين الأضاحى في الإسلام وفي اليهودية

وهذا يقودنا إلى الحديث عن الفرق بين الإسلام واليهودية فيما يخص الأضاحية
في الحج الإسلامي وفي أعياد اليهود الكبيرة :

(١) يمكن أن نلخص نظام الأضاحى كما هو مبين في سفر اللاويين هكذا
يمكن أن تقسم الأضاحى إلى تضحية بأشياء لا دم لها وأشياء لها دم أما عن
الباعث على الأضحية فيمكن تقسيم الأضاحى إلى أربعة طوائف .

١ - قرابين تحرق .

٢ - قرابين اعتراف وحمد .

٣ - قرابين مكفرة للذنوب .

٤ - قرابين مطهرة .

وفي الطائفة الثانية يدخل الحمل الفووصى وقربان المولود الأول ويدخل في
الطائفة الثالثة قرابين الغيرة والقاعدة العامة هي أن القرابين في الطوائف الثلاثة
الأولى هي التضحية بحيوانات أما في قرابين الاعتراف والحمد فإن الأضحية يمكن
أن تكون من الحيوانات أو من الحضروات .

أما في الإسلام فإن الأضاحى تعتمد فقط على الحيوانات وتكون أثناء الحج

١ - وتكون إحياءً للذكرى فداء إسماعيل (حيث ذكر البعض ومنهم ابن
إسحاق) أن الله افتداه بكبش عندما هم إبراهيم أن يذبحه تنفيذاً لأمر الله

٢ - أو للتکفیر عن بعض الذنوب التي ارتكبها الحاج مثل قص شعره قبل

التحلل .

(ب) وأما القرابين الحيوانية عند اليهود (١) فإنها تحرق كلها أو يحرق جزء منها أما في الإسلام فإنها تذبح فقط ويأكلها المضحي وعائلته والفقراة .

(ج) يراق دم الضحية المذبوحة عند اليهود حول المذبح (اللاوين ١ : ٥ ، ١١ ، ٢:٣ ، ٨ ، ١٣) أما في الإسلام فإن دم الأضاحى يزال تماماً .

(د) عند اليهود يجمع الكاهن الأعظم دم أضحيته أو أضحيية الطائفة له ليوزع جزء منها على شراع المذبح والجزء الثاني على قربانيه (سفر اللاوين ٤ : ٥ - ٧ ، ١٦ - ١٨) وفي يوم كيبور يأخذ دم أضحيته ودماء أضاحى الشعب ليضعهم في قدس الأقدس (سفر اللاوين ١٤:١٦ - ١٥) والأجزاء المختارة من الأحشاء والنسج السميك حول الأحشاء والكليتين بشحتمهما والمصران الأعور والكبد كل هذا يستهلك على المذبح (سفر اللاوين ٤:٨ - ١٠) والأجزاء التي يمكن أكلها يجب أن يأخذها الحبر الأعظم ويجب أن تؤكل داخل السور المقدس وحسب قواعد صارمة (سفر اللاوين ٢٥:٦ - ٣٠) أما في الإسلام فليس هناك حبر أعظم ولا كاهن ولا قدس أقدس ولا مذبح مقدس ولا حتى مكان معين لذبح الأضحيه .

(هـ) وعند بعض أبناء اليهود (عاموس ٥:٢٤، يكاح ٦:٦ - ٨ إيدايك ١:١٦ - ١٧ ، جيرمي ٧:٢٣) نجد كلاماً فاسياً ضد الأضحيه ولكن لا يجب أن نقره على أنه إدانة للأضحيه كلها ولكنه فقط يدين الأضاحى التي لا تصبها طهارة القلب والعدالة وسلامة السلوك الأخلاقي . ولكن في القرآن يتضح التركيز على المعنى الروحاني للأضحيه بشكل تام وهذه هي الآية القرآنية التي توضح هذا المعنى في أبيهى صورة «لَن ينالَ اللَّهُ لَحْوَهَا وَلَا دَمَاؤُهَا وَلَكِنْ بِنَالَهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ» (سورة الحج آية ٣٧) .

وهذه الآية القرآنية تلخص المعنى الروحى للأضاحى بأفضل ما تلخصه مقالة فيلون اليهودى عن الأضاحى وكلام أوزيه وعاموس وإيائى وجيرمى (انظر سفر اللاوين) .

(١) انظر سفر التكويرن (٤٠-٩) واللاوين (٣:١٧ ، ٧:٢٧ ، ١٧:١٠ - ١٤) الثانية

(٣:١٢)

(و) ويرى فلهاوزن أن النهى عن حلق الشعر أثناء الحج موجود أيضاً عند اليهود « وعندما يكون الإنسان في أثناء تنفيذ نذره يجب أن يترك شعره ينمو وعندما يتنهى من نذره يحلق شعره » (١) .

والنذاريون فقط هم الذين يتبعون هذه القاعدة ويتبعونها فقط في يوم نذارتهم والنذاري هو الرجل الذي ينذر الزهد وهناك ثلاثة محظيات مفروضة على النذاري حسب سفر العدد فيجب ألا يشرب الخمر أو أى مشروبات من العنبر ولا يحلق شعره ولا يمس ميئاً حتى لو كان آباً أو أمه والعلامة المميزة للنذاري هي شعره الطويل المتبدلي الذي لا يجوز له أن يقصه إلا بعد انتهاء نذرته فيقصه ويقدمه قرباناً (سفر العدد ٦) والباعث على هذا النذر أشياء إما أن يكون محزوناً أصابته مصيبة أو يريد أن تتحقق له رغبة مثل ميلاد طفل مثلاً .

وهكذا نرى بوضوح أن النذر ليس له علاقة بالحج أو الأعياد الدينية ولذلك لم يكن لفلهاوزن أى حق أن يقارن بين شعيرة عدم قص الشعر في الحج الإسلامي والإلزام بعدم قص الشعر عند النذاريين اليهود .

وعلاوة على ذلك فإن الشعر الذي يقصه الحاج المسلم لا يقدم قرباناً إلى أحد بينما في الأديان الأخرى يقدمون شعورهم قرباناً للإله لأنهم يعتقدون أن الشعر يحتل أهمية كبيرة في حياة الرجل ولذلك فعندما يقدم الرجل شعره إلى إلهه يكون كمن قدم دمه (٢) .

في الواقع إن شعيرة عدم قص الشعر أثناء الحج عند المسلمين هي علامة على الزهد كما هو الحال في عدم مقاربة النساء أو لبس الملابس غير المخيطة في أثناء الإحرام .

د - الزكاة

١ - هل كان محمد اشتراكياً ؟

اقتبس هذا العنوان من الدراسة النقدية التي قام بها ستوك هورج رونخ على كتاب « هيربرت جريم » (محمد من حياته إلى موته) ، فونستر ، آشنيدورف ، ١٨٩٢

(١) انظر فلهاوزن (ص ١٣٣)

(٢) انظر روبرت سون كميث ، دين الساميين (ص ٤٦٤)

وهذه الدراسة ظهرت أولاً في مجلة تاريخ الأديان السنة الخامسة عشر المجلد ٣٠ باريس ١٨٩٤ (ص ٣ إلى ٧٠ ، ١٤٩ - ١٧٨) وقد صدر فيما بعد في المجلد الأول من كتاباته المتعددة وقد قسمت الدراسة إلى أربعة أقسام .

١ - السير القدية (ص ٣٢١ إلى ٣٢٩) .

٢ - هل دعا محمد إلى دين جديد ؟ علاقاته مع اليهودية وال المسيحية (ص ٣٢٩ - ٣٣٨) .

٣ - المحرك الأساسي للرسالة النبوية ل محمد (ص ٣٣٩ - ٣٤٦) .

٤ - هل كان محمد شيوخاً ؟ (ص ٣٤٦ - ٣٦٢) .

وهذا القسم الأخير هو الذي يهمنا هنا .

وقد بدأ ستوك « هورجورونخ » هذا القسم بذكر بعض الجمل التي تحدد ملامح القضية الأساسية عند جرين وهذه هي الجمل .

« لم يكن الإسلام في شكله الأول بحاجة إلى الرجوع إلى أي دين سابق ليستمد منه شرح مذاهبه لأننا إذا نظرنا إلى الإسلام من قريب فإننا لن نراه باعتباره نظاماً دينياً ناشئاً ولكن باعتباره محاولة إصلاح شيعية تمنع بعض المساوىء من أن تنتشر في المجتمع » ويرأصل الكاتب حديثه قائلاً إن الظروف التي أدت إلى ظهور الحركات الشيعية كانت موجودة في مكة ومنها على وجه الخصوص الهوة السحرية بين الأغنياء والبخلاء والربوين من جهة والفقراء المضطهددين من جهة أخرى .

« وحتى يضع نهاية مثل هذا التناقض مستلهمًا عدالة التوزيع فإن محمدًا وهو الذي عرف في شبابه مصير الفقير اليتيم ، وكان قريباً فيما بعد من الطبقة الكادحة أعلن بإصرار أن كل واحد لا بد أن يدفع ضريبة محددة لحماية الفقراء ولكن لأنه كان من الصعب أن يطبق مثل هذا المشروع في مكة فإن محمدًا تخيل عوضاً عن القلق الروحي أن يؤيده بمذهب الحكم العالمي » (ص ١٤ - ١٥ من كتاب جرين) .

وقد قام ستوك هورجورونخ ضد هذه الاستشهادات الغنية على حد قوله وحمل عليها ويضيف قائلاً (ماذا ؟! لم يكن الإسلام الأول ديناً ولكنه كان

بساطة شيوعية ناتجة عن ألوان المؤس في ذلك العصر؟ إن مذهب اليوم الآخر الذي نجد الإعلان عنه في أقدم ما نزل من القرآن يخلق في داخلنا انطباعاً قصيراً يجعل هذا المذهب الذي ينبع من دراسة الإسلام باعتباره محور دعوة محمد والذي لا يمكن أبداً أن نقارنه بنظام الفرائض الشيوعي» (ستوك ، ١ ، ص ٣٤٦).

ويسوق ستوك بدايةً اعتراضين على قضية جرين :

(أ) إذا كانت الزكاة هي الشيء الجوهرى في الدين الإسلامي الذي أعلنه محمد فلماذا لم يكن اعتراض أهل مكة منصباً على الزكاة وإنما اعتربوا في المقام الأول على مبدأ البعث واليوم الآخر؟

وحتى يرد هذا الاعتراض فإن جرين يجيب قائلاً إن هذه حيلة محامي حيث يقول : « في صراع الآراء المتعارضة يكون اعتراض الخصوم منصباً بداية على أوهن الحجج أى مبدأ اليوم الآخر في الإسلام الأول حتى يهرب القرشيون من أن يعلو اعتراضهم على الزكاة فقد هاجموا مبدأ البعث » (جرين ص ٢٩).

ويضحك ستوك هذه الإجابة قائلاً : إن أهل مكة اعتربوا على مبدأ اليوم الآخر ليس « من أجل أسباب فلسفية أو تعمقاً في معرفة الطبيعة ولكن فقط بسبب أنه كان جديداً وغريباً عما يعتقدون » (ستوك ص ٣٤٧).

(ب) واعتراض آخر « في أقدم ما نزل من الوحي على النبي نجد أن فريضة الزكاة قد ذكرت مع الفرائض الأخرى ولكن دون أن يكون لها أفضلية على بقية الفروض وقد تحدث عنها القرآن على أنه يجب أداوها مثل بقية الفرائض ودون أن يدخل القرآن في تفصيات دقيقه كما في حديثه عن الصلاة مثلاً ولا يدل أى من ذلك على أن أهم شيء بالنسبة لمحمد هو التأكيد على تأثير إصلاح شيوعى وكانت أعظم الأعمال التي أمر بها بسم الله كانت هي نفس الأشياء التي ذكرت في الشرائع القدية واستلهمت منها وهى أشياء مألوفة لدى مستمعيه حتى أولئك الذين ليس لهم إلا معرفة سطحية باليهودية والمسيحية ويكتفى أن يذكروا بها ليفهموا ماذا يراد منهم » (ستوك ص ٣٤٩).

وحتى يعتصد جريم قضيته فإنه يفصل الزكاة عن الصدقات ويقول ستوك « إن جريم يرى (١) أن بعض فقرات من القرآن (البقرة ١٢٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥) تعلن بجانب الزكاة أن هناك ضريبة أخرى سيكون مصيرها النسخ بعد ذلك » (ستوك

ص ٣٥) وحسب رأيه فإن الزكاة تتلاقي في الآيات القرآنية التي نزلت في جميع فترات حياة النبي بينما الصدقات لا توجد إلا في الآيات التي نزلت في العهد المدنى وعلى هذا يجيب ستوك قائلاً : « هذا حق ولكن هذا الأمر يشرح بسهولة إذا افترضنا أن هذا المصطلح الأخير (صدقات) كان مألوفاً في اللغة الدينية عند اليهود الذين كانوا يسكنون في المدينة » (ستوك ، ص ٣٥٢) .

إن ستوك يلفت نظرنا أن الزكاة التي فرضها محمد على أصحابه الأوائل كفرضية كانت ضريبة تطهير أو ضريبة للفقراء كما يوضح مصطلح زكاة والكلمات التي من نفس العائلة (الأفعال زكا ، زكي ، تزكي ، والصفة زكي) وهي كلمات لها دائماً حضور ديني في القرآن والسنة القديمة ويحتمل أن محمداً قد أعطاها هذا المفهوم ففعل زكا معناه كان خالصاً تقلياً فاضلاً ، وذكي معناها التقى الفاضل وبهذا المعنى نجد كلمة الزكاة أيضاً مع المعنى العام وهو التقوى في القرآن (ستوك ، ص ٣٥٢) .

ويخلص إلى أن (١) هذا نقل لأفكار معاصرة من الماضي أكثر منه استفهام مبادئ شيوعية أو حتى بساطة شعور عميق باحتياجات المجتمع ، وهذه الدعوة إلى الزكاة والتي تأخذ شكل الجسم أحياناً والتي تسود أيضاً في الشرق كما تسود أحياناً في أوروبا إن الفقر والأمراض المتفرة وجميع ألوان البؤس قديمة قدم العالم والقديم أيضاً هو الشعور الطبيعي بالشفقة والذي يتولد عند من يتأملون تلك الظروف » (ستوك ص ٣٥٣) .

إذن فالزكاة عند ستوك قد فرضها محمد في مكة وهي تعنى ليس فقط ضريبة مفروضة على الأغنياء ولكنها منحة تطوعية يدفعها الغنى للفقراء بداع الشفقة ، ويذكر في هذا الصدد التوارييخ التي ذكرتها الكتب حول الفقه في مقدمة فصله عن الزكاة وقد فرض محمد الزكاة كضريبة في العام الثاني للهجرة في قول أو في العام التاسع للهجرة في أقوال أخرى ولكن الجميع متتفقون على أنها كانت في المدينة بعد الهجرة » (ستوك ص ٣٥٦) .

ولم تكن الظروف في مكة مواتية لفرض مثل تلك الضريبة ، فلم يكن في مكة

(١) جريم ج ١ (ص ٥٧)

مؤامرات شيوعية ولا حوادث فوضوية من هذا النوع الذى كان يمكن لـ محمد أن يقدم الأغنياء شيوعيته المخفة باعتبارها طوق النجاة . وعلاوة على ذلك . فمنذ البداية كانت أمة الإسلام تتشكل في معظمها من الفقراء وكان القليل منهم فقط من يعيش في بحبوحة من العيش ولم يكن من المفضل محاولة فرض ضريبة لصالح الفقراء لأنه ما كان من الممكن تطبيقها ولم تكن الحاجة تدعوا إليها فيما أن أغلب الصحابة كانوا فقراء فإنه لم يكن من الممكن أن يدفعوا شيئاً وأما الصحابة ذوو الثروات فقد كانوا مستعدين للتضحية بأموالهم وحياتهم من أجل قضيتهم الكبرى حتى دون أن يفرض ذلك عليهم بقانون ، فقد كانوا مؤهلين لمعالجة ألوان البؤس التي يعانيها إخوانهم في الدين أما كالذين لم يكونوا ضمن صحابة النبي فلم يكن محمد يستطيع أن يفرض عليهم آية بالطرق التي تخدمه « ستوك ص ٣٥٩ .

باختصار فإن ستوك يرى : « أن الزكاة كفعل من أفعال البر كانت فضيلة تطوعية قبل الهجرة وقد كانت فضيله أساسية بلا شك ولكنها لم تكن على أى حال ضريبة وكان محمد واعياً في البداية وداعية مخلصاً لقضية البعث » (ستوك ص ٣٦٠) . وبعد الهجرة إلى المدينة أصبحت الزكاة فريضة ولكن ما هو تاريخها بالتحديد ؟ من المستحيل تحديده وكانت الأسباب الدافعة إلى تشرع الزكاة هي :

- ١ - كان المهاجرون في المدينة ليس لهم مصادر رزق لأنهم تركوا أموالهم والحرف التي يشتغلون بها في مكة وحتى يغطي احتياجاتهم فكان لا بد من وجود موارد .

- ٢ - وفي المدينة بدأ محمد يقود الحروب ضد أعدائه وهذه المشاريع الحربية كانت تتطلب نفقات كبيرة لتجهيز الجيش وللتجهيزات الأخرى لا سيما حين يكون مجبراً على محاصرة المحسون والقلاع لعدة أيام أو أسبوع وقد حددت الآية ٦ من سورة التوبة مصارف الزكاة .

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾

ويقول ستوك : « إن هذه الآية من القرآن هي المحور الذي تدور عليه كل المصارف الشرعية للزكاة وهناك مذهب يتمسك حرفيًا بتحديد المصارف الشعافية

للزكاة زاعماً أيضاً أن أي موارد للزكاة يجب أن يعاد تقسيمها فيما بينهم ، بينما هناك مذهب آخر يرى على العكس من ذلك أنه يجب أن تصرف ويجتهد في مبدأ التوزيع وكلهم يعترفون أن هذه الآية تتناول تشريع الزكاة في شكله النهائي والذى حاول محمد أن ينظمها في السنوات الأولى بعد الهجرة » . (ستوك ص ٣٦١ - ٣٦٠) .

-رأينا -

هذا ملخص تام وجامع لحجج ستوك هورجرونخ التي ساقها ضد « هربت جريم » وهى أن محمدأ قد فرض الزكاة لعقيدة أساسية في دينه وهى الشيوعية وأن المعتقدات الأخرى لا سيما اليوم الآخر كان يستخدمها محمد كغول يخيف به الأغبياء .

ونحن نوافق تماماً على ححج ستوك لأن .

١ - منذ أن اضطلع محمد برسالته كانت عنده الية في إقامة دين بالمعنى الكامل للكلمة أي نظام معتقدات وسلوك تحدد الإيمان بالله خالق الكون وسيده والعلاقة بين الإنسان والله ومصير الإنسان حسب أفعاله وما يجب على الإنسان تجاه الله وبقية البشر وحتى بقية المخلوقات .

٢ - لم يشعر محمد أبداً أنه مجرد مصلح اجتماعي ولكن وجهة النظر التي كانت لديه منذ أول ساعة من نبوته وحتى ساعة موته هي إقامة منظومة عقائدية وأخلاقية وشرعية قائمة على المبادئ التي أوحى الله بها وعبادة تسبح بحمد الله .

٣ - الزكاة (١) التي فرضت في العهد المكى لحياة محمد لم تكن ضريبة ولكنها كانت صدقة وتبرع ومجرد فضيلة أخلاقية دون فرض ودون عقوبة .

أما في العهد المدنى فإن الزكاة التي كانت تسمى أحياناً صدقة (٢) أو صدقات (٣) أصبحت ضريبة مفروضة على الدخل وتوجه إلى مصارف ثمانية في

(١) هذه الكلمة ذكرت في ، ٣ آية ١٠ آيات مكية و٢٢ مدنية .

(٢) في آيات ١٩٢ ، ٢٦٥ من سورة البقرة ، ١١٤ من سورة النساء ، ١٠٤ سورة التوبه ، ١٣ المجادلة وكل هذه الآيات مدنية .

(٣) في الآيات ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ من سورة البقرة والآيات ٥٨ ، ٨٠ ، ٦ ، ١٠٥ من سورة التوبه ١٤ من سورة المائدة وكل هذه الآيات مدنية ولكن القول بأن صدقة أو صدقات لم توجد إلا في الآيات المدنية لا يعني اقتباسها الفاظ الأمة التي تعود إلى العهد القديم والجديد أى من اليهود والنصارى كما زعم ستوك ومن قبله س . فرانكل لأنها كانت موجودة أيضاً في اللغة العربية قبل الإسلام .

الأية ٦٠ من سورة التوبة ولكن حتى بعد أن أصبحت ضريبة ، لا تعنى الزكاة أبداً أى توجه شيوعي .

٢ - الفرق بين الإسلام والاشتراكية

لأنها في شكلها المعروف ولأنها ترتدى أشكالاً متعددة فإن الاشتراكية قائمة على مبادئ تختلف كل الاختلاف عن مبادئ الإسلام التي وضعها محمد وذكرها القرآن وذكرتها السنن الصحيحة عن النبي .

١ - تؤكد الاشتراكية السيادة المطلقة للمجتمع على الفرد كما تلغى ليس فقط حقوق الفرد ولكن أيضاً حقوق الجماعات الصغيرة مثل العائلة والمؤسسة فالمجتمع يعد كل شيء وبعد غاية وما الفرد إلا وسيلة والأفراد جميعاً متساوون مثل حبات الرمل في الكثيب .

وفي الإسلام لا يوجد شيء من ذلك فهو يؤكد المسئولية لكل فرد تجاه الجماعة التي يعد عضواً فيها والمجتمع الذي هو عضو فيه كما يلغى الروابط بين الفرد وقبيلته .

ويؤكد القرآن على الطبقية بين الناس .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَافَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَلْوِكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ (سورة الأنعام آية ١٦٥) .

﴿ وَاللَّهُ فَضَلَّ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ (سورة النحل آية ٧١)

﴿ وَلَا تَمْنَنُوا مَا فَضَلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (النساء آية ٣٢) .

إن أي شيوعية تعد عدواً للملكية الخاصة وهذا ليس فقط من أجل أسباب نفعية (عدم المساواة في التوزيع) ولكن لأسباب مذهبية وهي أن الملكية تجعل من الأفراد متشابهين اقتصادياً بينما ترعرع الفردية الاقتصادية الفروق بين الناس . والشيوعية الاقتصادية لا تحب أن تشجع إلا المساواة بين الأفراد وجعلهم نسخ مكررة « (١) .

ولذلك فإن الاشتراكية تفرض إلغاء ملكية كل أدوات الإنتاج .

(١) آلن بارير ، تاريخ الفكر الاقتصادي والتحرير المعاصر (ص ٣٧٢) ، محاضرات القانون ، باريس (١٧٣) .

والنتيجة الطبيعية أنها تلغى الميراث و تستلزم الشمولية الكاملة لأدوات الإنتاج . كل هذه الأفكار من إلغاء الملكية الخاصة وإلغاء الميراث وشمولية أدوات الإنتاج تتعارض تماماً مع مبادئ الإسلام لأن .

(أ) النبي أكَدَ في الخطبة التي ألقاها في حجة الوداع على احترام الملكية الخاصة وأكَدَ عليها في الخطبة مرتين حيث قال .

« لا يحل مال امرء مسلم إلا عن طيب نفس منه » .

« أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم » (١) .

أما عن حق الميراث فلقد أكَدَ القرآن بقوَةٍ وبِإصرارٍ خاصَّةٍ في سورة النساء في الآيات ٧ ، ١٢ ، ١٧٦ ، ١١ وقد حددت هذه الآيات بشكل دقيق نصيب كل مستحق للميراث وقد قال الله عن قواعد تقسيم الميراث « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجْرِي من تحتها الأنهر خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعَدُّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » النساء آية ١٣ ، ١٤ . وليس هناك أوضاعٌ من ذلك فليس الميراث فقط حقاً مقدساً ولكن قواعد تقسيم الميراث لا يجوز انتهاكيها .

(ج) كذلك فإن الشمولية الكاملة لأدوات الإنتاج ساقطة لأنَّه ليس لها مكان في إطار الملكية الخاصة .

٣ - القضية الأساسية للشيوخية هي محاربة الطبقات لأنَّه بالنسبة لها تُنبع اللامساواة من الفروق بين الطبقات التي يتشكل منها المجتمع فالشيوخية « تقول بوجود طبقات متعارضة ومن هنا كان التقليديون يرون أن المصالح متعارضة والشيوخية تشكل في أحد معانِيها علم اجتماع الجماعات التي تتصارع من أجل المصالح ولا تجد حلّاً لهذه المتناقضات إلا في إزالة كل هذه التعارضات بكيفية واحدة » (٢) .

أما في الإسلام فإن التجارة مسموح بها حيث يقول القرآن « وأحل الله اليع وحرم الربا » (سورة البقرة آية ٢٧٥) . ولكنه يطلب فقط من يُعَمِّل بالتجارة أن

(١) ابن هشام (ص ٩٦٩)

(٢) آن بارير تاريخ الفكر الاقتصادي (ص ٣٧٥)

يكون أميناً ولا يكون مطهفاً « ويل للمطهفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوه يخسرون » (سورة المطففين آية من ١ ، ٣) .

والنتيجة أن كل منافسة مادامت شريفة فهي حلال ولا يمكن أن ينشأ عنها صراعات اجتماعية ولا أن يتم خوض عنها صراع طبقات .

٤ - ليس هناك حد معين للملكية في الإسلام والدليل هو أن بعض صحابة النبي كانوا يتذكرون ثروات طائلة ومن بينهم عبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت والزبير بن العوام .

٥ - الدولة الاشتراكية متناقضة تماماً مع الدولة الإسلامية لأن :

(أ) الدولة الاشتراكية علمانية ولكن الدولة الإسلامية أصولية .

(ب) الدولة الاشتراكية خاصة في شكلها الشيوعي العملي (الماركسي) قائمة على ديمقراطية البروليتاريا ولكن الحكم في الدولة الإسلامية يجب أن ينحدروا من قبيلة قريش (الأئمة من قريش) .

(ج) الخليفة في الإسلام تغير وضعه بأشكال متعددة فقد عين أبو بكر سنة ١١ هجرية ٦٣٢ م خليفة لرسول الله من قبل كبار الصحابة بينما عين أبو بكر عمر بن الخطاب الذي خلفه في سنة ١٣ هجرية ٦٣٤ ميلادية وبايعه الصحابة الموجودون في المدينة وبعد اغتيال عثمان أصبح على خليفة في سنة ٣٦ هجرية ٤٥٦ م ولكن عارض معاوية الذي صعد إلى الخلافة بعد اغتيال عثمان في سنة ٤٠ هجرية ٦٦٠ م ثم جاء الخلفاء الأمويون من سنة ٤٠ هجرية ٦٦٠ م إلى سنة ١٣٢ هجرية ٧٥٠ م وكان منهم من يخلف أباه في الحكم (يزيد بن معاوية) ومنهم من يعينه من سبقه بعهد وبهذه الطريقة وأحياناً بالقوة تابع الخلفاء العباسيون من سنة ١٣٢ هجرية ٧٥٠ ميلادية إلى سنة ٩٢٣ هجرية ١٥١٧ م وفي كلتا الحالتين كان لا بد من نظام ملكي أو قريب من الملكي .

أما في الدولة الاشتراكية فالمطلوب عكس ذلك تماماً وهو نظام جمهوري محكوم بمتطلبات العقيدة الاشتراكية وينطلق من حزب واحد والسلطة كلها في يد هذا الحزب لأن الحزب هو صفة البروليتاريا وهو الجناح الثائر وطبيعة القوة الفاعلة وقد قال خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الاشتراكي « إن الشعب يقوده الحزب المسلح للنظرية الماركسية وهذه هي القوة العظيمة التي لا تفهر وهي

التي تخلق حياة جديدة وهى التي تصنع التاريخ ، (١) فالحزب هو مصدر كل سلطة وكل حقيقة والحزب باعتباره مستودع الحقيقة فإنه يظن أنه يجوز له أن يتخلص من تبعاتها وهذه علامة على الخطأ وهي ألا يتبع الحزب المبادئ التي يدعو إليها ولذلك فإنه لا يسمح بأى معارضه لأن المعارضة لن تكون « إلا نتيجة خطأ أو غطاءً لنية عدائية تجاه الشعب العامل والمعارضه تصنف باعتبارها خارجة عن القانون (٢) كما يزعم النظام أنه يمثل الشعب ولكن الحقيقة « أن الانتخابات ليس فيها اختيار بين قوائم متعددة ولكنها قائمة وحيدة وهى قائمةتهم وحدهم فقط قائمة الشيوعية » (المرجع السابق ص ٥٢١) كما أن مجلس السوفيت الأعلى هو العنصر الأعلى في سلطة الدولة في الاتحاد السوفيتي .

« وهو وحده الذى يمارس السلطة التشريعية وهو الذى يحتكر المبادرة وهو الذى يصدق على الميزانية فى الاتحاد ويعتمد الخطط التى تقرها لجنة الخطط والمعتمدة من مجلس الوزراء كما أن مجلس السوفيت الأعلى حسب القانون هو الذى يحدد أعضاء مجلس الوزراء ويقر إعادة ترشيحه » (المرجع السابق ص ٥٣١) كما أن مجلس السوفيت الأعلى يت منتخب فى جلسه عامة بمحاجنته ومجلس رئاسته وهذا المجلس يشتمل على رئيس وستة عشر نائب رئيس (واحد من كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد) وسكرتيراً وعشرين عضواً كما أن رئاسة المجلس تتقلد سلطات مجلس السوفيت « وبهذا يمكنه مراقبة الوزراء وتعيينهم وإعفائهم من مناصبهم وإعلان حالة الحرب واعتماد المعاهدات الدولية وسن القوانين العسكرية وأخيراً تفسير القوانين وسن اللوائح » (المرجع السابق ص ٥٣٣) .

بعد هذه اللمحه السريعة عن النظام السياسي فى الدولة الشيوعية الماركسيه يتضح أن ليس ثمة أى تشابه بين الدولة الاشتراكية والدولة الإسلامية .

(د) مصدر القانون فى الدولة الإسلامية هو القرآن والسنة والقياس والإجماع ليس إلا عوامل مساعدة ثانوية تستعمل فى نطاق ضيق وبلا تحديد .

أما فى الدولة الاشتراكية فإن مصدر القانون هو الحزب الاشتراكي الوحيد والقادر

(١) تقرير عن اللجنة المركزية للمؤتمر العشرين للحزب ٢٤ مارس ١٩٥٦ (ص ٤٠) .

(٢) ج بوردو مقاله فى العلم السياسي مجلد ٩ (ص ٥١٨) ، باريس (١٩٧٦) .

على كل شيء « وما أشبه الليلة بالبارحة فما زالت الدولة السوفيتية يحكمها الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي وهو الذي يسن القانون لكنه ليس محدوداً بهذا القانون فهو خالق القانون والمسيطر عليه وهو الذي يقترح مشاريع القوانين والتي تعتمد أحياناً بعض التعديلات من جانب مجلس السوفيت الأعلى خاصة إذا طلب الأمر سن لواحة ومراسيم من جانب الحكومة أثناء دورات انعقاد مجلس السوفيت الأعلى ^(١) والتي سرعان ما تطبق وتعتمد في الدورة التالية » .

وتأسياً على ذلك فإن سلطة التشريع في أي دولة شيوعية ليست محدودة أو مشروطة بأي نص بينما في الدولة الإسلامية لا يبتعد كل تشريع عن نص مقدس وهو القرآن ونص شبه مقدس وهو السنة .

الخاتمة

وختاماً يمكننا أن نرد على السؤال المطروح في أول هذا الفصل وهو هل كان محمد شيوعياً؟ والرد بلا الحاسمة والمطلقة ، فالإسلام كما وضعه مؤسسه يتناقض تماماً مع الاشتراكية أيا كان شكلها وإذا استعرضنا الاشتراكية خاصة في شكلها العملي وهو أعظم الأشكال توصيفاً وأكثرها حقيقة فسنجد أن الأشكال الأخرى للاشتراكية ليست إلا اسماً مستعاراً للاشتراكية .

وإذا كنا توسعنا قليلاً في هذا الموضوع فذلك من أجل أن نحارب هذه الموجة من التعمية التي رانت على العالم العربي وخصوصاً منذ ١٩٥٥ والعالم الإسلامي بصفة عامة ولم يستطع زعماء هذه الموجة رغم نباهتهم الطويل أن يقنعوا أي إنسان جاد .

* * *

(١) هـ شامبر (Chambre) ، تحول الماركسية السوفيتية (ص ٤٦٢ ، ١٩٧٤ م) .

الفصل السادس
نقد الصحة التاريخية لرسائل
وخطب الرسول وأحاديثه

رجعنا الآن إلى مشكلة نقد المصادر ، في الواقع لقد نسب إلى النبي محمد عدد من الرسائل وعدد قليل من الخطب وعدد كبير من الأحاديث أي الأقوال والأفعال .

ونستعرض كل من هذه الأقسام الثلاثة على حده .

أ - الرسائل

تنقسم الرسائل إلى قسمين :

١ - الرسائل إلى مختلف القبائل أو زعماء القبائل .

٢ - الرسائل إلى ملوك البلاد المתחمة بجزيرة العرب .

١ - رسائل الرسول إلى القبائل .

النوع الأول من الرسائل هو الأقل أهمية لأن كتب السيرة والتاريخ لم ترو إلا عدداً قليلاً من هذه الرسائل وأغلبها كان تحذيرات ونصائح مثل تلك النصائح التي أسدتها النبي لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن ^(١) ومن بين رسائل النبي إلى القبائل والتي وصلتنا بشكلها الكامل الرسالة التي حملها عمرو بن حزم إلىبني الحارث بن كعب بن حجران سنة ١٠ هجرية ٦٣١ وفي نفس المناسبة أرسل النبي كتاباً إلى خالد بن الوليد الذي نجح في أن يدخل بنى الحارث في الإسلام دون حرب وقد أورد ابن هشام نص الرسالة التي حملها عمرو بن حزم (ص ٩٦١) وتلك المبعثة إلى خالد ذكرها (ص ٩٥٩ إلى ٩٦٠)

ويمكن أن نذكر هنا كتاب مسيلة بن حاطب المعروف بمسيلة الكذاب ورد النبي على هذا الكتاب وكان هذا سنة ١ هجرية ٦٣١

وهذا نص كتاب مسيلة

« من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فلاني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون »

(١) انظر هذه النصائح عند ابن هشام (ص ٩٥٧)

فرد عليه النبي بهذا الكتاب :

« من محمد رسول الله إلى مسلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (١) .

وفي هذه الرسائل نجد أنه ليس هناك ما يبرر الشك في صحتها فليس هناك أى دافع خاص يمكن أن يجعلنا نفترض أنها موضوعة من أجل تبرير أو مساندة قضية أو شخص معين .

٢ - والأكثر أهمية هي رسائل النبي إلى الملوك والتى أولاها المستشرقون أهمية خاصة ، فمنهم من يرفض كلية صحتها وهو فرانس بول ومنهم من يتعدد ويعلن حكمه مثل جود فروا ديمونين وآخرون كثيرون .
نستعرض أولاً ما تقوله لنا مصادرنا .

كان هناك وفود ورسل بعثهم النبي محمد إلى الملوك يحملون رسائل يدعوهم النبي فيها إلى اعتناق الإسلام هم ورعاياهم .

وهذه هي أسماء السفراء كما أوردها ابن هشام (ص ٩٧١) :

١ - دحية بن خليفة الكلبي وقد بعثه إلى هرقل امبراطور بيزنطة .

٢ - عبد الله بن حذافة السهمي وقد بعثه إلى كسرى ملك الفرس .

٣ - عمرو بن أمية الضمري وقد بعثه إلى النجاشي ملك الحبشة .

٤ - حاطب بن أبي بلترة وقد أرسله إلى المقوس ملك الإسكندرية .

٥ - عمرو بن العاص السهمي وقد بعثه إلى جعفر وعباد بنى الجلدى ملكى عمان .

٦ - سليط بن عمرو وأحد بنى عامر بن لؤى فقد بعثهما إلى ثمامة بن أثال وهوزة بن على الحفظين ملكى اليمامة .

٧ - العلاء بن الحضرمي وبعثه إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين .

٨ - شجاع بن وهب الأسدى وبعثه إلى الحارث بن أبي شمر الغسانى ملك تخوم الشام .

(١) ابن هشام (ص ٩٦٥) .

ولم يورد ابن هشام نص الرسائل التي كان يحملها هؤلاء السفراء ولكنه أورد^(١) نص كتاب النبي إلى ملوك حمير والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان ذو الريان وحمدان عندما اعتنق هؤلاء الأمراء الإسلام في رجب من السنة التاسعة للهجرة ولكن بعض المصادر تروي نصوصاً أغلب هذه الكتب فقد جمع محمد حميد الله ونشر كل هذه النصوص وترجمتها إلى الفرنسية في الجزء الثاني من رسالته للدكتوراه بعنوان (وثائق عن الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي والخلفاء الراشدين)^(٢) ص من ١ ، ١٢٩ وقد نشر حميد الله النص العربي لهذه الرسائل في القاهرة^(٣) .

وقد أخذ حميد الله نص هذه الرسائل عن :

- ١ - عمرو بن حزم الذي أخذها عن أبي جعفر الديعولي (القرن الثالث الهجري والتي ذيل بها كتابه عن ابن طولون (توفي ٩٥٣ هجرية) « إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين » ، من مخطوطات المجمع العلمي العربي بدمشق ويهتمى على اثنين وعشرين رسالة من رسائل النبي .
- ٢ - ابن حديدة : المصبح المضفي في كتب النبي الأمى ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي ، من مخطوطات مكتبة داماد إبراهيم باشا ، استانبول ، رقم ٤٠٧ ، في ٨ ، ٤٠٠ ، كتب في ٧٢٩ هجرية .
- ٣ - ابن سعد في الطبقات .
- ٤ - الطبرى : تاريخ .
- ٥ - ابن هشام : سيرة النبي .
- ٦ - المقريزى : الخطط .

ومصادر أخرى على قدر أقل من الأهمية وصحف في ثبت المراجع من (ص ١٣١ ، ١٣٤) .

(١) ابن هشام (ص ٦٥٦ ، ٦٥٧) .

(٢) باريس المكتبة الشرقية والأمريكية (١٩٣٥م) .

(٣) القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولم ينال حميد الله قضية صحة هذه النصوص إلا بشكل عارض وباختصار في الجزء الأول من عمله (والتي وضع لها تقييماً خاصاً من ص ٩ إلى ١٠٢).

وكذلك فإننا يجب علينا أن نذكر هنا بالتفصيل آراء المستشرقين الذين تعرضوا بالتفصيل لقضية صحة هذه الروايات وسوف نتبع كل رأى على حده .

رأى بول

يرى فرانس بول في مقاله عن محمد في موسوعة الإسلام الطبعة الأولى ج ٣ (ص ٦٩٨ ، ٦٩) أن هذه الرسائل « من المقوس حاكم الإسكندرية وإلى أمير الحبشة وإلى امبراطور بيزنطة إلخ والتي يدعوهם فيها إلى الإسلام هي رسائل ملتفة » ويواصل حديثه قائلاً : « على أي حال فقد اتضح أن الادعاء بأن المخطوط الأصلي لكتاب النبي إلى المقوس حاكم الإسكندرية ليس صحيحاً (٢٥) الجريدة الآسيوية ، ١٨٥٤ ، ص ٤٦٢ وقد اتبعه جورج زيدان في مجلة الهلال ١٩٠٤ ص ١٠٣ وأيضاً يسكر ، الأوراق وراین هرت ، ١ ، ٣) ، ولكن ما روى في موضوع هذه الرسائل لا يستحق بداية تلك الأهمية التي أولاها له معظم من كتبوا عن النبي فهي مجرد أوهام صنعتها تلفيقات خاصة حينما نراها يجب أن تعتبر أنه من غير الواقعى أن سياسياً محنكاً مثل محمد كان قد انتهى لتوه من تحقيق هدف حقيقي وهو فتح مكة يمكن أن يغرق في خيالات وهمية من قبيل تحول هرقل أو ملك الفرس إلى الإسلام الذين يعتبرون أن القرآن العربي الواضح بالنسبة لهم غامضاً مثل التوراة بالنسبة لمحمد ومواطنه الذين لم يستطع أن يخدعهم بالقوة ولا أن يستثير حفيظتهم وبشكل عام فإنه من المثير للشك أن يكون محمد قد فكر أن دينه يمكن أن يصبح ديناً عالياً كما يعتقد مثلاً نولده وجولد تسهير وأرنولد في كتابه « دعوة الإسلام » ولامون في كتابه « دراسات حول حكم الخليفة معاوية » ج ١ ، ١١ ، ٤ ومقاطعات سور المكية التي يمكن أن نسوقها في هذا الصدد (الأنعام ٩٠ ، يوسف ١٠٤ ، الأنبياء ١٥٧ ، والفرقان آية ١ ، وسباء ٢٧ ، ويس آية ٧٠ ، ص آية ٨٧ ، والنبا آية ٥٢ والتوكير آية ٢٧ ، آل عمران آية ٩٠ ، والحج ٢٥ وقد وجدوا تحديده في السياق وفي المقارنات التي ليست مفهومة مثل (سورة الأنعام ٩٢ والشورى آية ٧ حيث

فسروا أم القرى بمعنى مكة) (وفي العهد المدني حل محل مبدأ « لا إكراه في الدين » البقرة ٢٥٧ حل محله بداية نشر الإسلام بقوة السلاح والتي جعلت من ضمن شروطه سيادته على كل الأديان آل عمران ٧٩ ، التوبة ٣٣ الصف آية ٩) ولكن هذا المبدأ استمر في نطاق المناطق التي يسكنها العرب وإذا كان محمد قد أعلن بعد فتح مكة الحرب أيضاً على أهل الكتاب فإن الغزوات الخربية التي قام بها محمد توضح أنه لم يفكر إلا في العرب الخاضعين لحكم الرومان أو الفرس ولا يمكن أن تشير إلى أن مهتماً ذهب أبعد من ذلك في مشاريعه . ولكن من المؤكد أن مهتماً برغم قوته لم يكن يريد أن يتحول النصارى إلى الإسلام واكتفى بإخضاعهم السياسي لمنطقه ودفعهم الجزية . وصحيح تماماً في هذا الصدد أن نتغاضى عن كل هذه الروايات ونبحث عن العمق التاريخي الحقيقى في المفاوضات ذات الطبيعة السياسية من مثل التي حدثت مع المقوس الذى كانت تربطه بمحمد صداقة (انظر عن هذه الشخصية كتاب باتلر الفتح العربى لصر ١٩٠٢) ولا يمكن - تأسياً على تأثير التقاليد المسيحية - أن نقبل بوجود فكرة ناشئة عن مشروع بعثات تبشيرية إسلامية ضمن مشروع كبير .

وفي المقابل فإن صيغة الرسائل الموجهة من النبي إلى القبائل العربية تعدلت في تلك الفترة فلم يعد النبي مقتنعاً بمجرد مكسب سياسي بسيط ولكنه كان يطلب من العرب اعتماداً على قوته أن يدخلوا في دينه ووصل الأمر به أن فرض عليهم أداء الصلاة ودفع الزكاة * وقد أعطى أيضاً يحوزام على حدود الشام آماناً لمدة شهرين ثم بعد ذلك تصرف معه (انظر شيرير : كتب محمد إلى الأمراء العرب ، ١٩ ص ١٤ وما بعدها)

النقد

من السهل أن تدحض المزاعج التي يسوقها بول .

كون الادعاء بأن المخطوط الأصلي لكتاب النبي إلى المقوس حاكم الاسكندرية ليس صحيحاً فإن هذا لا يعني شيئاً بالنسبة لصحة النص نفسه . فكلامه هذا مثل أن ثبت أن هذا المخطوط ليس إلا صورة طبق الأصل .

في الحقيقة وكما قال محمد حميد الله « فإن نص الكتب المبادلة بين النبي

والملقب موجود عند مؤرخ مصرى أقدم من ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٢٧ هجرية « (١) .

٢ - يتحدث بول عن الخصوصيات المتعددة الملفقة والتى نجدها فى كتابات النبي إلى الملوك ولكنه لم يعطينا أى مثال عن هذه التلفيقات وأى عربي متعلم بشكل جيد ومتخصص فى اللغة العربية فى فترة النبي سيجد أنه ليس فى هذه الرسائل أى مخصصات تدل على التلفيق .

٣ - والحججة الثالثة لبول وهى أنه لا يمكن أن يكون محمد قد فكر أن يبعث برسائل إلى الملوك العظام فى اللحظة التى لم تكن جهوده مركزة إلا على هدف واحد وهو فتح مكة .

ولكن هذه الحججة قائمة على افتراض خاطئ وهو أن هذه الرسائل قد بعث بها النبي قبل فتح مكة بينما لم يذكر أى مصدر لهذا الافتراض . كما أن أى مصدر لم يحدد تاريخ محدد لهذه الرسائل إذاً فليس من حق بول أن يسوق هذه الحججة .

٤ - يقع بول فى خطأ واضح حين يزعم أنه يشك كثيراً فى أن محمد يمكن أن يكون قد فكر أن يصبح دينه عالياً لأن آيات السور المكية التى ذكرها بنفسه هى براهين واضحة تهدم قضيته المعاندة للحقيقة وقد قمنا فى مرات عديدة بفحص منطق بول ومن على شاكلته من الذين ادعوا أن محمداً كان يعبد دينه ديناً خاصاً بالجزيره العربية فلم يكن لدى محمد فى أى لحظة من اللحظات هذا المفهوم المحدود عن الإسلام بل على العكس فقد اعتبر الإسلام ديناً لكل البشر ديناً يجب أن يحل محل جميع الأديان وفي أى مكان كان .

٥ - وقد شرع محمد أثناء حياته أن يضع هذا المفهوم موضع التطبيق بعد أن أخضع الجزيره العربية بأكملها قام بإرسال حملات عسكرية إلى « الحدود البيزنطية فأرسل أولاً حملة إلى تبوك وكان هو على رأس جيش عظيم من رجب إلى رمضان من السنة التاسعة للهجرة (أكتوبر وديسمبر سنة ٦٣٠ م) ثم من رمضان إلى صفر من سنة ١١ هجرية (إبريل - مايو ٦٣٢ م) جهز جيشاً كبيراً وجهه إلى الشام فى منطقة البلقاء والدارم فى فلسطين بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة (ابن هشام ، الطبرى ج ١ ١٩٩) ، وهذا يؤكد أن النبي كان ينوى أن يفتح بالإسلام البلاد المتاخمة للجزيره العربية مثل بيزنطية والإمبراطورية الفارسية . . الخ

وقد قام خليفة أبو بكر بمواصلة هذا التوسع فور توليه للخلافة وخرجت الجيوش المسلمة لفتح الشام بعد شهر رجب من سنة 12 هجرية وتوجه عمرو بن العاص إلى فلسطين مروراً ببالياء وتوجه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وتوجهوا إلى اللقاء في الشام على طريق تبوك وهذه الغزوات التي كانت في حياة النبي وبعد موته بعام واحد ثبت بما لا يمكن ضعفه أن الإسلام في فكر مؤسسه محمد بن عبد الله يخاطب العالم أجمع وفي كل مكان كانت فتوح وغزوات النبي هدفها إدخال شعوب أخرى من الأرض في الإسلام وكان قواد هذه الغزوات يعرضون على هذه الشعوب الدخول في الإسلام قبل كل شيء .

٦ - من أجل هذا يجب أن نصف رأى بول بالغباء الشديد وهو أن فكرة القيام بمشروع تبشير إسلامي عظيم نشأت من تأثير التقاليد المسيحية خاصة معجزة عيد الحصاد .

وختاماً فإن كل الحجج التي يسوقها فرانس بول ليثبت أن كتب النبي إلى امبراطور بيزنطة هرقل وامبراطور فارس كسرى والمقوقس حاكم الإسكندرية والنجاشي حاكم الحبشة مزيفة وملفقة لا تساوى شيئاً وتنم عن غباء نادر عند بول .
رأى جاستون وايت (٢)

يهم جاستون وايت على وجه الخصوص بمسألة صحة كتاب النبي إلى المقوقس (٣)

لقد رأى أن كل المكاتب بين النبي والمقوقس ملقة ليدعم رأيه فإنه يسوق حجتين :

١ - لم يكن طريق الإسكندرية مخولاً أن يستقبل الوفود الأجنبية ولا أن يرسل وفوداً للخارج .

(١) محمد حميد الله ، وثائق عن الدبلوماسية (ص ٦٦) .

(٢) في طبعته للخطط المقرية (ص ١١٩) ملحوظة ٢ القاهرة ١٩١١ .

(٣) كل المحاولات لتعديل ما ذكر في المصادر العربية باعت بالفشل انظر مقال جروهمن في موسوعة الإسلام الطبعة الأولى .

وهذه الحجة لا تستند على أى وثيقة ولا يمكن تبريرها لأننا في المصادر العربية نقرأ صراحة أن «المقوقس ملك الإسكندرية» (ابن هشام ص ٩٧١ ، ١٣٠ - ١٤٠) إِذَا فكيف يكون ملكاً ولا يسمح له باستقبال الوفود الأجنبية ولا بإرسال الوفود إلى الخارج ؟ أى نوع من الملك أو الملك يمكن أن يكون هذا الرجل ! .

٢ - القول بأن الكتب المرسلة إلى المقوقس وإلى امبراطور بيزنطة وإلى النجاشي كتبت بألفاظ متشابهة يؤكد حسب قول جاستون وايت أنها ملقة .

وعن هذه الحجة أجاب محمد حميد الله وكان على حق تماماً حين قال : إن هذه الكتب الثلاثة كتبت وأرسلت في نفس اليوم ولنفس الهدف إلى ثلاثة أمراء مسيحيين وكان الكتاب قد استفادوا من نفس الصيغة عند تحرير النصوص الثلاثة^(١) .

والأهم من هذه الحجة هو الحديث الذي لا يمكن الشك فيه من أن المقوقس حاكم مصر أرسل هدية إلى النبي هي مارية القبطية التي تسرى بها وولدت له ابنة إبراهيم ولا يشك أحد في هذه القصة وبالتالي فإنه لا يمكن الشك في أنه كانت هناك مكاسب بين النبي والمقوقس حاكم مصر . كما أن نص خطاب النبي إلى المقوقس لا يشتمل على أى شيء يمكن أن يشير الشك فهو مجرد دعوة للدخول في الإسلام فما الغريب في ذلك ؟

الآن يمتلكنا العجب أيضاً حين نرى أن جود فرواد ديمومين^(٢) يؤكد بشكل قاطع «أن الكتاب الذي ترويه السنة هو ملقة تماماً ولا نعلم من هي الشخصية التي يمكن أن يكون الخطاب قد أرسل إليها» . ولكن هذا دائماً هو دأب المنطق المتعجرف الذي لا يقوم على شيء والذى يميز كتابات أغلب المستشرقين في مجال الدراسات المتعلقة بـ محمد والقرآن والإسلام .

عدم صحة الردود

ولكن إذا كنت أحكم بصحة الكتب التي أرسلها محمد إلى الملوك الذين

(١) محمد حميد الله ، وثائق حول الدبلوماسية الإسلامية ، (ص ٦٧) وقد ترجمت الرسائل الثلاثة إلى الفرنسية بأرقام ١٠ ، ١٤ ، ٣٧ في الجزء الثاني من هذا العمل .

(٢) جود فرواد ديمومين ، محمد (ص ١٦٨) .

ذكرناهم آنفاً فليس الأمر كذلك فيما يخص الردود على هذه الرسائل خاصة الرد
النالب إلى هرقل لأنه من المستحيل أن يكون هرقل قد كتب هذا الرد النالب
إليه وإنما لا اعتقد الإسلام وهذه هي الإجابة المزعومة :

إلى أحمد الذي بشر به عيسى من قيصر ملك الروم .

وصلى خطابك مع رسولك وأشهد أنك رسول الله وإننا نجدك عندنا في
الإنجيل وقد بشرنا بك عيسى ابن مريم وقد دعوت البيزنطيين للإيمان بك ولكنهم
رفضوا ولو اتبعوني لكان خيراً لهم ولكن تمنيت أن أكون عندك لأنخدمك وأغسل
قدميك (١) « في الواقع إن كل جملة وكل تعبير يصرخ شاهداً على كذب وزييف
هذا الخطاب . ومن ناحية أخرى فإن هذا الخطاب لم يورده إلا اليعقوبي (الجزء
الثاني ص ٨٤) وهو مراجع ملئ بالأساطير .

كما أنها أيضاً مزيفة ولكن بدرجة أقل من تلك الردود النالبية إلى النجاشي
ملك الحبشة (٢) لأنه لا يمكن أن يكتب النجاشي هذه الجمل .

« أشهد أنك رسول الله الحق والصدق (وفي مصدر آخر : « حقاً ومصدقاً أى
بشرت بك التوراة والإنجيل ») .

« لا إله إلا الذي هداني للإسلام » في الحقيقة ليس هناك أى مصدر إسلامي
أو أى مصدر آخر أكد أن النجاشي اعتنق الإسلام بينما تعنى هاتان الجملتان أنه
اعتنق الإسلام . إذاً فهاتان الجملتان على الأقل محرفتان وبقية الرد يمكن قبوله أو
ربما كان صحيحاً لأنه يتعلق بشئون عملية في العلاقات بين النجاشي ومحمد وهي
شئون موجودة ومؤكدة حسب مصادرنا وحتى جود فروا ديمومين (السابق ص
١٦٧) يعترف بذلك ويؤكد « أن كتاب النبي إلى نجاشي الحبشة كان امتداداً طبيعياً
للعلاقات الطيبة التي كانت تربط محمد بالنجاشي وختاماً نرى أن الرسائل التي
بعثها النبي محمد إلى الملوك صحيحة بينما الردود على هذه الرسائل موضوعة إما
كلها (رد هرقل) أو في جزء منها (ردود النجاشي والمقوقس) .

أما عن الرسائل إلى مختلف زعماء القبائل العربية فلم يتعرض أحد تقريباً
لمناقشة صحتها .

(١) ترجمة محمد حميد الله المراجع السابق (ص ٢١) من الجزء الثاني .

(٢) مذكور في الترجمة الفرنسية لـ حميد الله المراجع السابق (ص ١٩ - ٢٠) .

ب - الخطب

الخطب المنقوله عن النبي قليلة إلى حد ما وأهمها خطبتان .

١ - خطبه في يوم فتح مكة .

٢ - خطبة الوداع أو خطبة حجة الوداع التي ألقاها في العاشر من ذي الحجة سنة ١٠ هجرية وهاتان الخطبتان روتهم كل مصادر سيرة الرسول القديمة (ابن إسحاق - ابن هشام - ابن سعد)، وكذلك المؤرخون الكبار (الطبرى - ابن الأثير - الخ)، كما أن الاختلافات في النصوص المنقوله اختلافات بسيطة ومحتوى هاتين الخطبتين معظمها مذكور في القرآن الكريم . كما لم يشك أى عالم مسلم أو مستشرق في صحة هاتين الخطبتين . وقد خصص لويس ماسينيون فصلاً دراسياً بالمدرسة العلمية للدراسات العليا وكلية فرنسا لمدة عام لدراسة خطبة حجة الوداع ولكنه لم ينشر شيئاً عن هذا الموضوع ولا هذه المحاضرات والتي حضرتها في آخر أجزاءها وكانت تدرس ببساطة ولم تتعرض لقضية صحة هذه الخطبة .

نقد الأحاديث

الوضع مختلف تماماً فيما يتعلق بنقد السنة أى الأقوال والأفعال المنسوبة إلى النبي والتي اعتبرها المسلمون بعد موت النبي أساساً لكل تشريع بجانب القرآن . والمشكله أكبر من أن ناقشها في علمنا هذا .

فقد خضع الحديث منذ وقت مبكر للنقد الصارم والتمعن من جانب العلماء المسلمين ولذلك فإن الكتب الست الأولى (الكتب الصحاح الستة) للأحاديث المعترف بها عند أهل السنة - على الأقل - أنها صحيحة قد استلزمت نقداً للحديث لأنها اختارت أحاديثها من بين مئات الآلاف من الأحاديث المنسوبة إلى النبي وقد اختيرت حسب معايير خاصة لكل من أصحابها وهي معايير متعلقة بالرواية وقد عاش الذين وضعوا هذه الكتب في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فأبوا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري توفي سنة ٢٥٦ هجرية ومسلم بن الحجاج النيسابوري توفي سنة ٢٦١ هجرية وأبوا داود السجستاني توفي

سنة ٢٧٥ هجرية وأبى إسحاق محمد الترمذى توفي سنة ٢٧٩ هجرية وأبى عبد الرحمن النسائى توفي سنة ٣٠٣ هجرية وأبى عبد الله محمد بن ماجه الفزوى توفي سنة ٢٨٣ هجرية حتى هذه الكتب التى تعد صحاحاً خضعت للنقد من جانب العلماء المسلمين منذ القرن التالى أى بدءاً من القرن الرابع الهجرى حسب قول جولد تسيهير^(١) « هناك قليل من النقد وجه إلى الصحاح فقد ألف أبو الحسن على الدارقطنى (توفي في ٣٨٥ هجرية) كتاباً سماه « الاستدراكات والتطابق » وفيه يوضح الكاتب ضعف ماتى حديث في الصحاح ونجد في أحياناً كثيرة التعبير الحر بشكوك في قضية متعلقة ببعض فقرات الكتب التشريعية للأحاديث فالأشعرى الباقلاني ومعه إمام الحرمين الجوينى والغزالى يرفضون حديث^(٢) رواه البخارى ويعتبرونه موضوعاً « كما يذكر كلاماً للنوى (في كتابه التقريب) حيث يعلن النوى أن ما في الصحيحين البخارى ومسلم « لا يعني إلا معرفة ظنه بينما لا يعنى إلا التواتر »^(٣) .

ولكن المستشرين ذهبا إلى أبعد من ذلك بكثير وكان أشهرهم في هذا المجال بول إجانتس جولد تسيهير في كتابه « دراسات في السنة المحمدية » ج ٢ (ص ١-٧٤) وفي بعض دراساته عن السنة والإسلام .

٢ - يوسف شاخت في مقال بعنوان ثورة في السنن الإسلامية .

دراسات إجانتس جولد تسيهير :

يعنى جولد تسيهير في المقالين ١ ، ٣ المذكورين بعاليه بتوضيح أن عدداً من الأحاديث مقتبس من الأنجليل ويعطى مثلاً على ذلك الأحاديث التالية :

- ١ - « أدوا إليهم (أى النساء) حقهم واسألاوا الله حقكم » وقد قال أنه مقتبس من إنجليل متى إصلاح ٢٢ آية ٢١ « دع مال قيصر لقيصر وما لله لله »
- ٢ - كلمات الإنجليل التى تؤكد أفضلية الفقراء على الأغنياء وقد كان لها صدى في أحاديث كثيرة (على سبيل المثال باب الرقاق رقم ٥١ ، باب الفتنة ، رقم ٦) .

(١) إجانتس جولد تسيهير دراسة الدين المحمدى ج ٢ (ص ٢٥٧) الترجمة الفرنسية ليبون برشيه (ص ٣٥١) باريس (١٩٥٢) .

(٢) البخارى كتاب التفسير رقم (١١٥) سورة التوبه : ٨١ .

(٣) ذكره جولد تسيهير المرجع السابق الترجمة الفرنسية (ص ٣٢٢) .

٣ - « يشكل البلهاء الجزء الأكبر من أحاديث الجنة وهي مقتبسة من إنجليل متى إصلاح ٥ آية ٣ « سعادتهم الذين لهم عقول ضحلة لأن ملوكوت السماوات لهم » .

٤ - « كونوا بلهاء كالحمام » وهذا مقتبس من إنجليل متى إصلاح ١٠ آية ١٦ « تخلوا بالخذر مثل الثعابين وكونوا بسطاء كالحمام » .

٥ - حديث رواه أبو داود (ج ١ ص ١٠١ القاهرة ، ٢٨٠ هجرية) ويشتمل على القدس الأبوى المسيحي (متى ٦:٩ - ١٣ لوقا ١١:٤ - ٢ ، مرقص ١١:٢٥) .

كما أنه يكشف في نفس المقال (٣) عن بعض الكلمات والتعبيرات التي يزعم أنها مقتبسة من الأنجليل من شهيد والتحمس والراقدة والملح والأصداف الملقاة تحت أرجل الخنازير ونحيب هكذا على ملاحظات جولد تسيهير .

(أ) الأحاديث محل الطعن غير موجودة في الكتب الست الصاحح ولكنها موجودة في واحد أو اثنين منها .

(ب) كما أنها تدعو إلى مبادئ عامة يمكن أن تدخل في باب حكمة الأمم وليس بالضرورة مقتبساً من أصل مسيحي .

(ج) الحديث الذي يشتمل على جمل من القدس الأبوى لا توجد إلا عند أبي داود ومسنده أقل تقديرًا من الباقيين .

(د) أما عن الكلمات والتعبيرات المذكورة فإنها لا تثبت وجود اقتباسات لأنها تعبيرات حرفية شائعة وكلمة شهيد لها معنى في الإسلام مختلف تماماً عن معناها في العهد الجديد في الواقع إن المعنى الفقهي لكلمة شهيد (متى ١٨:٢٠ ، ١٦:٢٠) وأيضاً خلال القرون الثلاثة كان يسمى شهيد ومعناه من شهد أو شاهد يسوع المسيح ولكن لم يمت أى منهم من أجل العقيدة المسيحية .

باختصار إن ملاحظات جولد تسيهير سطحية وقليله القيمة من الناحية النقدية وأصبحت مثيرة للسخرية حينما زعم في نفس المقال أن سير محمد كتبت على نموذج الأنجليل .

أما عن دراساته في السنة الإسلامية فإنها دراسات قوية وجديرة بالاهتمام وهي موجودة في الجزء الثاني من دراساته عن عقيدة الإسلام (هال ، ماكس نفير ، ١٨٩٠ ، من ص ١ إلى ص ٢٧٤) .

ولكن الدراسة المعمقة لهذه الآراء في دراساته للسنة تتجاوز اتساعاً نطاق عملنا هذا وسوف نرجحها إذا إلى عمل آخر مخصص كلية لسنة النبي ونتمنى أن تؤلفه إذا أطالت الله في عمرنا .

* * *

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مدخل
٥	المقدمة (أسطورة محمد في الغرب) عشرة قرون من الادعاء الباطل والافتراء
٤٩	الفصل الأول : صدق محمد فيما يتعلق برؤاه للملائكة الأعلى
٦٩	الفصل الثاني : حسيبة الرسول المفترى عليها
٨٧	الفصل الثالث : سياسة محمد تجاه خصومه
٨٩	(أ) محمد واليهود
١٢٦	(ب) محمد والمسيحية
١٣١	- السوابق المسيحية على المفهوم القرآني للمسيح
١٣٦	- مريم التي تجعل منها الشعائر المسيحية إلهه تُعبد
١٤٤	(ج) سياسة محمد تجاه العرب
١٤٧	الفصل الرابع : وفاة محمد بالعهود المعقودة
١٥٧	الفصل الخامس : النظم الإسلامية والتأسيس النهائي لها من الرسول ..
١٥٩	(أ) الصلاة
١٦٣	- ماهية صلاة المسلمين
١٦٥	(ب) الصيام
١٦٩	- صيام رمضان
١٧٤	(ج) العناصر المشتركة بين الحج قبل الإسلام والحج الإسلامي
١٨٢	(د) الزكاة
١٩٣	الفصل السادس : نقد الصحة التاريخية لرسائل وخطب الرسول وأحاديثه

رقم الإيداع 99/9131